

توحيد الربوبية والألوهية

GAQD5143



المحتويات

(مقدمة في تاريخ التوحيد، وبيان منشأ الشِّرك والانحراف)

عناصر الدرس

ذكـــر مبـــدأ التوحيـــد

الحمد لله، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

اعلم أن الأصل الذي كان عليه الناس بعد آدم ﷺ هو التوحيد، والإيمان الخالص بالله ﷻ كما كان أبوهم آدم ﷺ.

وجرَى الأمر على هذا، واستمر حال الناس على الاستقامة والهدى، مجتمعين على أمّة واحدة، ودين واحد، ومعبود واحد، كما قال الله تعالى: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة: ٢١٣]. فقوله: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ ﴾ أي: في الفترة التي بين آدم ونوح - عليهما الصلاة والسلام.

وقوله: ﴿ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ أي: جماعة على دين واحد، وهو الدين الحق، الذي هو الإسلام، المتضمن التوحيد الخالص.

والأمة في الأصل: القوم المجتمعون على المقصد الواحد، يقتدي بعضهم ببعض، وهو مأخوذ من الائتمام. فلما اختلفوا، وخرج قوم منهم في عهد نوح عن الحق، وضلوا عن الهدى، وكفروا بالله تعالى، بعث الله تعالى إليهم رسلًا، يأمرونهم

بالتوحيد، وينهونهم عن الكفر، مبشرين من أطاعهم بالجنة، ومنذرين من عصاهم بالنّار، وأوّلهم في ذلك نوح ﷺ.

ويدلّ على هذا المعنى في تفسير الآية الكريمة قول عبد الله بن عباس { الذي رواه ابن جرير الطبري في تفسيره والحاكم في (المستدرك) بإسناد صحيح قال: "كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق فاختلفوا فبعث الله النبيين". وجاء من وجه آخر عن ابن عباس { كما رواه الطبراني في (المعجم الكبير) وصحح إسناده السيوطي في (الدر المنثور) قال: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ "على الإسلام كلهم". وهذا قول فاصل في تفسير الآية الكريمة. فهو قول حبر الأمّة عبد الله بن عباس { وهو تفسير صحابي.

وهنا أصل لا بد من مراعاته، وهو اعتبار تفسير الصحابي، وتقديمه على ما سواه، على تفصيل في ذلك عند أهل الأصول وعلوم القرآن. قال ابن جرير الطبري: "وقد روي عن جماعة من السلف أنه كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على ملة الحق، وأن الكفر بالله إنما حدث في القرن الذي بعث إليهم نوح # ".

وقال في موضع آخر: "فإن دليل القرآن واضح على أن الذين أخبر الله عنهم كانوا أمة واحدة على الإيمان ودين الحق، دون الكفر بالله والشرك به. وذلك أن الله جل وعز قال في السورة التي يذكر فيها يونس ﷺ: ﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [يونس: ١٩]، فتوعد ﷻ على الاختلاف لا على الاجتماع، ولا على كونهم أمة واحدة، ولو كان اجتماعهم قبل الاختلاف كان على الكفر ثم كان الاختلاف بعد ذلك، لم يكن إلا بانتقال بعضهم إلى الإيمان، ولو كان

ذلك كذلك لكان الوعد أولى بحكمته جل ثناؤه في ذلك الحال من الوعيد ؛ لأنها حال إنابة بعضهم إلى طاعته، ومحال أن يتوعد في حال التوبة والإنابة، ويترك ذلك في حال اجتماع الجميع على الكفر والشرك" انتهى كلامه.

وخالفت في ذلك طائفة فذهبوا إلى أنّ النّاس كانوا أمّة واحدة في الكفر والدين والباطل. واحتجوا لذلك بسياق الآية، حيث يناسب كونهم كانوا على خلاف ما يدعوا إليه الرسل ؛ فبعث الله إليهم الرسل. واحتجت هذه الطائفة أيضًا بما روي عن ابن عباس { قال: "كانوا أمّة واحدة، كانوا كفارًا". وهذا الأثر منكر، لا يصح عن عبد الله بن عباس { وهو مخالف للروايات الصحيحة عنه. فإن في سنده عطيةَ العوفيّ، وهو ضعيف، قال عنه الحافظ ابن حجر في (التقريب): "صدوق، يخطئ كثيرًا، وكان شيعيًّا مدلسًا".

قال ابن القيم: "وهذا القول ضعيف جدًا، وهو منقطع عن ابن عباس، والصحيح عنه خلافه". وقال ابن كثير: "والقول الأول عن ابن عباس أصح سندًا ومتنًا ؛ لأن الناس كانوا على ملة آدم حتى عبدوا الأصنام فبعث الله إليهم نوحًا # ".

أما من جهة السند فقد تقدم الكلام عليه وبيان رجحان الرواية الأولى، الدالة على كون الأصل في البشر التوحيد الخالص لله تعالى، وأما كونه أصحّ من جهة المعنى، فيتأكّد من وجوه متعددة، وأدلّة كثيرة كما سنفصل ذلك فيما يلي:

الوجه الأول: أن أصحّ الطرق في بيان معاني كتاب الله تعالى، هو تفسير القرآن بالقرآن ؛ فما أجمل في مكان فإنه قد فسر في موضع آخر، وما اختصر في مكان

فإنّه قد بسط في موضع آخر، وذلك حيث يتكرّر في كتاب الله تعالى ذكر الشيء، ويكون بعض الآيات أكثر بيانًا وتفصيلًا، كما هو الشأن بالنسبة لهذه الآية حيث بُيِّن معناها في الآية الأخرى، وهي قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ﴾.

فدلّت هذه الآية على أن في الآية الأولى لفظًا مقدرًا، وهو ﴿ فَٱخْتَلَفُوا۟ ﴾، وعليه فإن الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- إنما بعثوا حين الاختلاف. قال ابن عطية: "كل من قدَّر الناس في الآية مؤمنين، قدر في الكلام فاختلفوا".

ويؤيّد تقدير ﴿ فَٱخْتَلَفُوا۟ ﴾ في هذه الآية قراءة عبد الله بن مسعود >: "كان الناس أمة واحدة فاختلفوا فبعث الله النبيّين". وورد نحوها أيضًا عن أبيّ بن كعب >.

الوجه الثاني: الفاء في قوله: ﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ تقتضي أن يكون بعثهم بعد الاختلاف، ولو كانوا قبل ذلك أمة واحدة في الكفر، لكانت بعثة الرسل قبل هذا الاختلاف أولى؛ لأنهم لما بعثوا عندما كان بعضهم محقًّا وبعضهم مبطلًا، فلأن يبعثوا حين ما كانوا كلهم مبطلين مصرين على الكفر كان أولى.

الوجه الثالث: لو كان اجتماعهم قبل الاختلاف كان على الكفر، لكان اختلافهم بعد ذلك هو انتقالهم للإيمان، ورجوعهم للتوبة والإنابة، ولكان الوعد حينها أولى لهم من الوعيد، وقد نصت الآية على توعدهم على الاختلاف، لا على الاجتماع، ولا على كونهم أمة واحدة، ومحال أن يتوعد الله في حال التوبة والإنابة، ويترك ذلك في حال الاجتماع على الكفر والشرك.

قال أبو حيان: "فقوله: ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ ﴾ هو وعيد فصرفه إلى أقرب مذكور وهو الاختلاف هو الوجه، والاختلاف بسبب الكفر هو المقتضي للوعيد لا الاختلاف الذي هو بسبب الإيمان؛ إذ لا يصلح أن يكون سببًا للوعيد".

الوجه الرابع: قول الله تعالى: ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ﴾ يدل على أن هذا الاختلاف هو الاختلاف الحاصل بعد ذلك الاتفاق المشار إليه بقوله: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ ثم حكم على هذا الاختلاف بأنه إنما حصل بسبب البغي، وهذا الوصف لا يليق إلا بالمذاهب الباطلة، فدلت الآية على أن المذاهب الباطلة إنما حصلت بسبب البغي، وهذا يدل على أن الاتفاق الذي كان حاصلًا قبل حصول هذا الاختلاف، إنما كان في الحق لا في الباطل، فثبت أن الناس كانوا أمة واحدة في الدين الحق، من التوحيد وإفراد الله بالعبادة، لا في دين الباطل.

الوجه الخامس: أن المقصود بهذه الآيات بيان كون الكفر باطلًا، وتزييف طريق الأصنام، وتقرير أنّ الإسلام هو الدين الفاصل، فلا يناسب المقام أن يتضمن ما يقوّي عبادة الأصنام، بل سياق الآيات يدل على وجوب أن يكون المراد بأمة واحدة أنهم على الإسلام، حتّى تحصل النفرة من اتّباع غير ما كان عليه الناس، وهو الإسلام.

الوجه السادس: أن الإنسان الأول وهو آدم ﷺ كان نبيًا، يعبد الله وحده لا شريك له، وعلّم أبناءه التوحيد، ولم يحدث بينهم اختلاف في الدين، فدلّ ذلك يقينًا على أن الأصل في الناس التوحيد، ودين الحقّ.

ويؤكّد ذلك أن ابني آدم ذكر الله في كتابه أنهما كانا موحدين؛ إذ قربا لله تعالى قربانًا، كما قال سبحانه: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة: ٢٧] ولا يكون ذلك إلا من موحّد، لكن لم يتقبل منه لمانع، أو لفقدان شرط غير الإيمان والتوحيد، حيث إن القربان كان لله تعالى، ولذلك قال: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾.

ولو كان ذلك لفقدان الإيمان، لقال: إنما يتقبل الله من المؤمنين. ثمّ في نفس السياق أخبر أن خسران أحدهما، وظلمه كان متعلقًا بمعصية عملية، وهو قتله أخاه بسبب الحسد، وذلك في قوله: ﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴾ [المائدة: ٢٨- ٣١].

الوجه السابع: قول الله ﷻ: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ﴾ [الإسراء: ١٧] يدل على أن القرون التي بين آدم ونوح -عليهما الصلاة والسلام- كانت على الإسلام، ودين الحقّ، ولهذا لم يشملها إهلاك الله لها، كما وقع على القرون التي بعد نوح ﷺ.

الوجه الثامن: ما جاء في حديث عياض بن حمار أنّ رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته: ((ألا إنّ ربّي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم، ممّا علمني يومي هذا:

كلّ ما نحلته عبدًا حلال، وإنّي خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنّهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرّمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزّل به سلطانًا)) الحديث رواه مسلم. قال ابن عبد البر في (التمهيد): "والحنيف في اللغة المستقيم السالم". والحنيفية تتضمن معرفة الربّ، ومحبته، وتوحيده، وهي معنى قول: لا إله إلا الله، كما سيأتي تفصيله عند تفسير كلمة التوحيد.

ولا استقامة ولا سلامة أعظم من الإسلام، وهو كما أخبر الله تعالى عن إبراهيم ﷺ في قوله: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [آل عمران: ٦٧].

فدلّ هذا الحديث على أن تغيير الحنيفية التي خلقوا عليها كان بأمر طارئ من الشيطان، ولو كان الأصل في البشرية الكفر لقال: خلقت عبادي كفارًا أو مشركين، فأتتهم الرسل فاقتطعتهم عن ذلك، ولم يكن الأمر كذلك، بل قال: ((خلقت عبادي حنفاء)) أي مسلمين، كما تقدم تفسيره، وهذا أمر واضح لا خفاء به.

الوجه التاسع: أن الله تعالى استخرج ذرية آدم من صلبه، شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليكهم، وأنّه لا إله إلا هو، وذلك كما أخبر الله في كتابه حيث قال: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٢، ١٧٣].

قال أبيّ بن كعب > عند هذه الآية: "فجمعهم، ثم جعلهم أزواجًا فاستنطقهم، فتكلموا وأخذ عليهم العهد والميثاق ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ قال: فإني أشهد عليكم السموات السبع والأرضين السبع، وأشهد عليكم أباكم آدم أن تقولوا يوم القيامة لم نعلم بهذا، اعلموا أنه لا إله غيري، ولا رب غيري، ولا تشركوا بي شيئًا، إنّي سأرسل إليكم رسلي يذكرونكم عهدي وميثاقي، وأنزل عليكم كتبي. قالوا: نشهد إنّك ربُّنا وإلهنا، لا ربَّ لنا غيرُك، ولا إله لنا غيرك، فأقروا يومئذ بالطاعة، ورفع عليهم أباهم آدم ﷺ فنظر إليهم فرأى فيهم الغنيّ والفقير وحسن الصورة ودون ذلك، فقال: ربّ لو سويت بين عبادك؟ قال: إنّي أحبّ أن أُشكر، فرأى فيهم الأنبياء مثل السرج عليهم النور، وخصوا بميثاق آخر بالرسالة، وهو الذي يقول: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧] وهو الذي يقول: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

وكان روح عيسى ﷺ في تلك الأرواح التي أخذ عليها العهد والميثاق، فأرسل تلك الروح إلى مريم -عليها السلام- قال: ﴿فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ [مريم: ١٧- ١٩]، حتى بلغ: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٢١]. قال: حملت بالذي خاطبها، وهو روح عيسى. قال: فسألت مقاتل بن حيّان: من أين دخل الروح؟ فذكر عن أبي العالية، عن أبيّ بن كعب أنّه دخل من فيها".

ولا منافاة بين أثر أبيّ بن كعب، وبين الآية التي ذكر في سياقها وهي قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ الآية، حيث أخبر أنه أخذ الميثاق من ظهور ذرية آدم؛ إذ لا مانع من أن يكون الله تعالى أخرج ذرية بني آدم بعضهم من بعض، كما أخرجهم من ظهر آدم أولًا.

قال ابن قتيبة: "ألا ترى أن الله تعالى حين مسح ظهر آدم # على ما جاء في الحديث، فأخرج ذريته أمثال الذرّ إلى يوم القيامة؛ إذ في تلك الذرية: الأبناء، وأبناء الأبناء، وأبناؤهم إلى يوم القيامة، فإذا أخذ من جميع أولئك العهد، وأشهدهم على أنفسهم، فقد أخذ من بني آدم جميعًا من ظهورهم ذريتهم، وأشهدهم على أنفسهم".

ومحلّ الشاهد من الآية والأثر: أنّهم ذلك اليوم كانوا أمّة واحدة على دين الحقّ، ولا يتصور أن يكون الأمر على غير هذا الذي أشهدهم عليه ربهم، حين خلق آدم ثم من بعده ذريته، بل ذلك شاهد قويّ على أنّه خلقهم على وفق تلك الشهادة، ثمّ طرأ عليهم من بعد ذلك ما يخالف تلك الشهادة من التوحيد، والإقرار بربوبية الله وما تقتضيه من ألوهيته، لما عرض لهم من أسباب البغي والحسد والجهل ونحو ذلك مما يدعو إلى خلاف الفطرة، والدين الحقّ.

الوجه العاشر: أنّه من مقتضى هذا الميثاق الذي أخذه الله تعالى على عباده - حيث أخرجهم من ظهر أبيهم آدم - الفطرةُ التي فطر الله النّاس عليها، وما ركز الله تعالى في نفوسهم من معرفته، ومحبته، والتوجّه إليه، ودعاها إلى عبادته وحده لا شريك له، بحيث لو ترك الإنسان، وخُلِّيَ ممّا يفسد فطرته من

الوساوس، وأُبقي على فطرته الأصلية لَمَا كان شيء من الأديان الباطلة، ولا اختار وتوجه إلى الدين الصحيح ؛ لأنه إنما يُقْدِم على الدّين الباطل لأسباب خارجية، كإفساد الأبوين له، أو حصول الأغراض الفاسدة من البغي والحسد ونحوه، وذلك كما دلّ عليه قول النبي ﷺ : ((كلّ مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصّرانه، أو يمجسانه، كمثل البهيمة تُنتِج البهيمة، هل ترى فيها من جدعاء)) رواه البخاري ومسلم. ثم قال أبو هريرة: "واقرءوا إن شئتم: ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ الآية". والزيادة عند البخاري من طريق يونس عن الزهري، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن أبي هريرة. وظاهر رواية البخاري أن زيادة أبي هريرة من الحديث المرفوع، لكن جاء مصرحًا في رواية الزبيدي عند مسلم أنه من قول أبي هريرة، وكذلك في رواية أخرى عند البخاري من طريق شعيب عن الزهري.

قال الحافظ ابن حجر في (فتح الباري): "في آخر حديث الباب من طريق يونس: ثم يقول: ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ إلى قوله: ﴿ ٱلْقَيِّمُ ﴾ وظاهره أنه من الحديث المرفوع، وليس كذلك بل هو من كلام أبي هريرة أدرج في الخبر، بيّنه مسلم من طريق الزبيدي عن الزهري ولفظه: ثم يقول أبو هريرة: "اقرءوا إن شئتم".

والمراد بالفطرة الإسلام. قال الخطابي: وأشهر الأقوال أن المراد بالفطرة الإسلام. وقال ابن عبد البر: وهو المعروف عند عامة السلف". والأدلة على أن المراد بالفطرة الإسلام كثيرة ؛ منها قول أبي هريرة إثر ذكر الحديث: "واقرءوا إن شئتم: ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ﴾" ففسر الفطرة في الحديث بهذه الآية، وهي الإسلام وهذا تفسير السلف كما ذكره عنهم ابن جرير

الطبري. ثم قال: "وقوله: ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ يقول: لا تغيير لدين الله، أي: لا يصلح ذلك، ولا ينبغي أن يفعل".

قال ابن القيم: "ولم يقل لا تغيير؛ فإن تبديل الشيء قد يكون بذهابه، وحصول بدله، ولكن إذا غير بعد وجوده لم يكن الخلقَ الموجودَ عند الولادة".

ـ ومما يدل أيضًا على أن المرادَ بالفطرةِ في هذا الحديثِ الإسلامُ وروده في بعض الروايات بلفظ "الملة" بدل "الفطرة". قال مسلم في صحيحه في سياق ذكر روايات هذا الحديث: "في حديث ابن نمير: ((ما من مولود يولد إلا وهو على الملة)). وفي رواية أبي بكر، عن أبي معاوية: ((إلا على هذه الملة حتى يُبين عنه لسانه))".

ولفظ "الدين" في قوله تعالى: ﴿ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾ هو عين الملة، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦١].

ومنها قوله: ((فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه)) فيه بيان أنهم يغيرون الفطرة التي فطر الناس عليها، والأصل المغير غير ما آل إليه الأمر من التغيير إلى اليهودية والنصرانية والمجوسية.

ومن الأدلة أيضًا: تشبيه المولود في ولادته عليها بالبهيمة الجمعاء، وهي الكاملة الخلق، ثم تشبيهه إذا خرج عنها بالبهيمة التي جدعها أهلها فقطعوا أذنها، وفي ذلك دليل على أن الفطرة هي الفطرة المستقيمة السليمة، وما يطرأ على المولود من التهويد والتنصير بمنزلة الجدع والتغيير في ولد البهيمة.

هذا جملة الكلام في تقرير هذا القول، وأهم الأدلة التي تؤكد رجحان ما بيّناه من أن الأصل في الناس الدين الحق، والإقرار بالتوحيد، ولا حاجة بنا إلى دليل أكثر مما ذكرنا من هذه الوجوه في نصرة هذا المذهب.

وفي هذه المسألة قول آخر ذهب إليه فئة من المتكلمين، آثرت استكمال تحصيل المذاهب، وتقرير طرائق الناس فيها، مع بعده عن الصواب، وشدّة ضعف مسلكه.

وفحواه أن الناس كانوا أمة واحدة في التمسك بالشرائع العقلية، واحتج صاحب هذا المذهب بحجة واهية، واضطرب فيها أشدّ الاضطراب، حيث زعم أوّلًا أن الفاء تفيد التراخي، وبالتالي فإنّ ذلك يفيد أن بعثة جميع الأنبياء كانت متأخرة عن كون الناس أمة واحدة، فتلك الوحدة المتقدمة على بعثة جميع الشرائع لا بد وأن تكون وحدة في شرعه غير مستفادة من الأنبياء، فوجب أن تكون في شريعة مستفادة من العقل.

ثم أجاب بعد ذلك على كون آدم نبيًّا باحتمال تمسكه بالشرائع العقلية أولًا ثم بعد ذلك جاءته النبوة، أو باحتمال أنّه بعد ذلك صار شرعه مندرسًا فرجع الناس إلى التمسك بالشرائع العقلية. وهذه حجة داحضة، يظهر بطلانها من ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: أنّ إقراره بأنّ آدم كان نبيًّا يكفي في إبطال زعم تمسكه بالشرائع العقلية، وأما زعمه تأخر نبوته فهذا أمر مظنون محتمل فكيف يرد به المستيقن، لاسيما وقد دلّ القرآن على أن الله تعالى علمه أوّل ما خلقه، وأمره ونهاه أول ما أوجده، وذلك بيّن في القرآن الكريم، معلوم فيما قصّ الله تعالى لنا من خبر آدم ﷺ ليس هذا موضع بسطه.

الوجه الثاني: الأدلة السابقة التي ذكرناها في بيان أن المراد بـ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾، أنّهم كانوا على الإسلام، والدين الحق كافية في إبطال قول من زعم أنهم كانوا متمسكين بالشرائع العقلية.

الوجه الثالث: أنّ الله تعالى لم يوكل الناس قطّ إلى الأحكام العقلية، كما أنّه لم يرتب عليها ثوابًا ولا عقابًا، ولا علّق عليها حكمًا دنيويًّا ولا أخرويًّا، بل سنّته في ذلك إرسال الرسل؛ لدعوة الناس إلى ما يحقّق مصالحهم في الدنيا والآخرة، رحمةً للعالمين، ومِنَّةً منه عليهم.

وليس المقصود من كلامنا هنا بيان عدم تعارض العقل والنقل، ونقض شبهات المتكلمين وغيرهم في تقديم العقل على النقل، وإنما المراد بيان أنّ العقل ليس أصلًا لثبوت الشرع في نفسه، كما لم يرتب عليه الله تعالى شيئًا من الأحكام.

هذا مع التنبيه إلى أن العقل معتبر في الشرع، له أهميته ومكانته، لكن ليس على حساب ما أخبرت به الرسل أو أمرت به أو نهت عنه، فالأدلة الشرعية متضمنة للأدلة العقلية ومستلزمة لها، والأدلة العقلية مستلزمة للأدلة الشرعية.

وقد جمع الله تعالى بينهما في قوله: ﴿ وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الملك: ١٠].

ولا يمكن القول بموجب الشرائع العقلية إلا مع اقتران الإيمان بالرسل، والدخول تحت شريعتهم، فأدلة العقول مستلزمة لصدق الرسل، فلا يمكن مع عدم تصديق الرسل، فضلًا عن عدمهم بالأصل القول بموجب العقول، ويدل على ذلك قول الله تعالى: ﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ

خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ﴿٨﴾ قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ ﴿٩﴾ وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ٨ - ١١].

قال ابن الوزير في (إيثار الحق على الخلق): "إن العقول بريئة أصحّ البراءة وأوضحها عمّا ادعوا عليها من معرفة وجوب ما لم يرد به كتاب من الله تعالى".

والعقل وحده دون اقترانه بالسمع لا يبلغ به العبد مقاصد الشرع، وغايات الهدى، وبسبب الاغترار بالعقل، وتجريده عن السمع ضلّ كثير من الخلق، كما قال الله تعالى: ﴿أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ أَوۡ يَعۡقِلُونَۚ إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤]

فكيف يقال مع هذا: أن الأصل الذي كان عليه الناس أوّلًا الاحتكام إلى الشرائع العقلية، وأن الله أهملهم، وتركهم سدى، حيث لم يرسل إليهم من يهديهم، ويعلمهم ما يجهلون، ويدعوهم إلى توحيد الله تعالى، وعبادته الذي هو الغاية من خلقهم، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

بيان منشأ الشرك والانحراف

قد بينا فيما سبق أن الأصل الذي كان عليه الناس هو التوحيد، ودين الحقّ، وما زال الناس مستمرين على ذلك، حتى ظهر الشرك، وعبادة الأوثان في قوم نوح ﷺ فزيّن لهم الشيطان -لعنه الله- عبادة الأصنام، وكان أول ذلك أن زيّن لهم تعظيم القبور، والعكوف عليها، وذلك كما أخبر الله عنهم في كتابه

حيث قال: ﴿ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴾ [نوح: ٢٣، ٢٤].

قال ابن عباس ﷺ: "هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم -التي كانوا يجلسون- أنصابًا وسموها بأسمائهم ففعلوا، فلم تعبد، حتى إذا هلك أولئك ونسخ العلم عبدت" رواه البخاري.

فلو جاءهم الشيطان وأمرهم بعبادتهم لم يقبلوا ولم يطيعوه، بل أمر الأوّلين بنصب الصور؛ لتكون ذريعة للصلاة عندها ممن بعدهم، ثمّ تكون عبادة الله عندها ذريعة إلى عبادتها ممن يأتي بعدهم، ممن لم يعرف مقصد الأوّلين، وهذا شأن الشيطان في جميع ما يغوي به بني آدم، حيث يستدرجهم بما يألفون، ولا يتفطنون إلى مآله من الشرّ والفساد.

قوله: "أن انصِبوا أنصابًا" جمع نصب، وأصله ما نصب كغرض ونحوه، والمراد به هنا الأصنام المصورة على صورهم المنصوبة في مجالسهم. قوله: "حتّى إذا هلك أولئك" أي: الذين نصبوها ليكون أشوق إليهم إلى العبادة، وليتذكروا برؤيتها أفعال أصحابها.

قوله: "ونسي العلم" أي: زالت المعرفة بحالها، وما قصد من صورها، وغلب الجهال الذين لا يميزون بين التوحيد والشرك، وذهب العلماء الذين يعرفون ذلك.

قوله: "عبدت" وذلك أنهم كانوا يتبركون بهم، ويتمسحون بهم، ويسقون المطر، ويرجون شفاعتهم، فعبدوهم. وبهذا يتبين أن مبدأ الشرك سببه الغلو في الصالحين، واتخاذ الصور والتماثيل، وتعظيم القبور، فهي مآل كلّ شرّ، وذريعة كلّ شرك والكفر.

ثم مِن قوم نوح ﷺ انتقلت هذه الأصنام إلى قريش فعكفوا عليها، وعبدوها من دون الله، وطلبوا منها حاجاتهم، والتمسوا فيها النفع والضر، كما جاء عن عبد الله بن عباس } : "صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد، أمّا ودّ فكان لكلب بدومة الجندل، وأمّا سواع فكانت لهذيل، وأمّا يغوث فكانت لمراد، ثمّ لبني غطيف بالجُرف عند سبأ، وأمّا يعوق فكانت لهمْدان، وأمّا نسر فكانت لحمير، لآل ذي الكلاع. أسماء رجال صالحين من قوم نوح. فلمّا هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابًا وسمّوها بأسمائهم ففعلوا، فلم تعبد، حتى إذا هلك أولئك وتنسّخ العلم عبدت" كما ذكرنا من قبل.

وكان أوّل من غَيَّر دين إسماعيل عمرو بن لحيّ الخزاعي، وهو الذي جلب الأصنام، وحمل النّاس على عبادتها. فعن أبي صالح السمّان أنه سمع أبا هريرة يقول: "سمعت رسول الله ﷺ يقول لأكثم بن الجَون الخزاعي: ((يا أكثم، رأيت عمرو بن لحيّ بن قَمعة بن خِندف يجرّ قُصْبَه في النّار، فما رأيت رجلًا أشبه برجل منك به، ولا بك منه. فقال أكثم: عسى أن يضرني شبهه يا رسول الله؟ قال: لا، إنّك مؤمن وهو كافر، إنّه كان أوّل من غيّر دين إسماعيل؛ فنصب الأوثان، وبحر البحيرة، وسيّب السائبة، ووصل الوصيلة، وحمى الحامي)) رواه ابن هشام في (السيرة) وإسناده صحيح.

وقوله: ((قصبه)) أي: أمعاءه. وهذا الذي جاء في الحديث هو الذي ورد في قول الله ﷻ: ﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴾ [المائدة: ١٠٣]. قال: وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: ((رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجرّ قصبه في النّار، كان أوّل من سيّب السوائب)) رواه البخاري ومسلم.

(تعريف توحيد الربوبية في اللغة والاصطلاح)

عناصر الدرس

معنـــى الربوبيـــة في في اللغـــة

١. تمهيد في تعريف التّوحيد:

المعنى اللغوي للفظ التوحيد: هو مصدر: وحّد يوحّد توحيدًا، فهو على وزن تفعيل، ومعناه: الحكم والعلم بأنّ الشيء واحد، وهو أوّل العدد. والوحدة: الانفراد، تقول: رأيته وحده. ورجل واحد أي: متقدم في بأس أو علم أو غير ذلك، كأنه لا مثل له، فهو وحده لذلك.

قال الزجاج في تفسير الواحد: "وضع الكلمة في اللغة إنما هو للشيء الذي ليس باثنين، ولا أكثر منهما".

وقال في تفسير الأحد: "أصله وحَد، ثم قلبت الواو همزة، وهذا الكلام عزيز جدًّا أن تقلب الواو المفتوحة همزة، ولم نعرف له نظيرًا إلا أحرفًا يسيرة. ثم قال: وقال بعض أهل المعاني: الفرق بين الواحد والأحد: أن الواحد يفيد وحدة الذات فقط، والأحد يفيده بالذات والمعاني".

المعنى الشرعي للفظ التوحيد:

تقدم بيان معنى التوحيد في اللغة، وهو لا شك له ارتباط ما وتعلق ما بالمعنى الشرعي، والمراد بالمعنى الشرعي أي ما يتعلق بالله تعالى من مدلول هذه اللفظة. فالمقصود من التفعيل: النسبة كالتصديق، لا الجعل، فمعنى وحّدت الله: نَسَبْتُه إلى الوحدانية، لا جَعَلْتُه واحدًا؛ لأن وحدانيَّته ﷻ صفته، وليست بجعل جاعل. فالتوحيد هو فعل الموَحِّد.

والتعريف الجامع للتوحيد هو: إفراد المعبود بالعبادة، مع اعتقاد وحدته ذاتًا وصفاتٍ، وأفعالًا. هكذا عرفه السفاريني -رحمه الله- في (لوامع الأنوار).

فقوله: "إفراد المعبود بالعبادة" المقصود به: توحيد القصد والطلب، وهو التوحيد في القصد والإرادة والعمل، وهو توحيد الله ﷻ في عبادته وحده. وقوله: "مع اعتقاد وحدته ذاتًا، وصفاتٍ، وأفعالًا" المقصود به: توحيد المعرفة والإثبات. فالله ﷻ هو الواحد، لا يشبهه شيء في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، وهو المتفرد بالخلق، والربوبية فلا يشركه أحد في ذلك.

وعرف التوحيد الشيخ محمد بن صالح العثيمين -رحمه الله- بقوله: "إفراد الله تعالى بما يختص به من الربوبية والألوهية والأسماء والصفات". وهو قريب من التعريف الأوّل.

إذًا فمعنى واحد وأحد، وما اشتق من لفظ التوحيد بالنسبة لله تعالى، هو كما قال ابن جرير الطبري عند قول الله تعالى: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ [البقرة: ١٦٣]، قال: "قد بينا فيما مضى معنى الألوهية، وأنها اعتباد الخلق، فمعنى قوله: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ١٦٣]، والذي يستحق عليكم أيها الناس الطاعة له، ويستوجب منكم العبادة، معبود واحد ورب واحد، فلا تعبدوا غيره، ولا تشركوا معه سواه، فإن من تشركونه معه في عبادتكم إياه هو خلق من خلق إلهكم مثلكم، وإلهكم إله واحد لا مثل له ولا نظير".

فهو سبحانه لا إله إلا هو الواحد الأحد، الذي لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد، لا شريك له في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، كما قال ﷻ:

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١]. وقال: ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾ [مريم: ٦٥]. وقال ﷻ: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ [الإخلاص: ٤]. فلا يجوز أن يشبه ربنا -تبارك وتعالى- بشيء من مخلوقاته، ولا أن يشبَّه به شيءٌ من مخلوقاته، كما أخبرنا بذلك عن نفسه، فكلّ ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك، فهو الواحد الذي ليس له ندّ ولا نظير، ولا شبه ولا مثيل. وهذا بخلاف ما يتوهمه طوائف المتكلمين من الجهمية والمعتزلة وغيرهم من المعاني الباطلة للفظ التوحيد، المستلزمة للتعطيل.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه الجليل العظيم (درء تعارض العقل والنقل): "فهم يريدون بلفظ التوحيد في اصطلاحهم: لا صفة له، ولا يعلم منه شيء دون شيء، ولا يُرى. والتوحيد الذي جاء به الرسول ﷺ لم يتضمن شيئًا من هذا النفي، وإنما تضمن إثبات الإلهية لله وحده، بأن يشهد بأن لا إله إلا هو، ولا يعبد إلا إياه، ولا يتوكل إلا عليه، ولا يوالى إلا له، ولا يعادى إلا فيه، ولا يعمل إلا لأجله، وذلك يتضمن إثبات ما أثبته لنفسه من الأسماء والصفات. قال جابر بن عبد الله في حديثه الصحيح في سياق حجة الوداع: ((فأهلّ رسول الله ﷺ بالتوحيد: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إنّ الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك)) وكانوا في الجاهلية يقولون: لبيك لا شريك لك، إلا شريكًا هو لك، تملكه وما ملك، فأهل النبي ﷺ بالتوحيد كما تقدم".

وبعد معرفة معنى التوحيد، نبدأ في تعريف الربوبية، ويتم ذلك من خلال بيان ثلاثة عناصر.

٢. معنى الربوبية في اللغة:

فالرب مصدر بمعنى اسم الفاعل، على وزن راب. قال الراغب الأصفهاني: "الرّبّ مصدر مستعار للفاعل". وقال الزجاجي: "الرب: المصلح للشيء، يقال:

ربيت الشيء أَرُبُّه ربًا وربابة، إذا أصلحتَه وقمتَ عليه، وربّ الشيء مالكه. ومصدر الرب: الربوبية، وكلّ من ملك شيئًا فهو ربّه، يقال: هذا ربّ الدار، وربّ الضيعة، ولا يقال: الرّبّ معرفًا بالألف واللام مطلقًا، إلا لله ﷻ؛ لأنه مالك كلّ شيء". قال الجوهري: "والرباني: المتأله، العارف بالله تعالى، وقال سبحانه: ﴿كُونُواْ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ﴾ [آل عمران: ٧٩]. ورَبَبْت القوم: سُسْتهم، أي: كنت فوقهم، قال أبو نصر: وهو من الربوبية، ومنه قول صفوان: لئن يَرُبّني رجل من قريش أحبّ إليّ من أن يربني رجل من هوازن. وربَّ الضيعة، أي: أصلحها وأتمها، وربَّ فلان ولده يربُّه ربًّا، وربَّبْته وتربَّبْته بمعنى، أي: رباه. والمربوب: المربّى".

ولفظ الرّبّ يرجع إلى ثلاثة أصول: المالك، والسيد، والمصلح. قال ابن الأنباري: "الرب ينقسم على ثلاثة أقسام: يكون الرّبّ المالك، ويكون الرّبّ السيد المطاع، قال الله تعالى: ﴿فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا﴾ [يوسف: ٤١] أي: سيّده، ويكون الرّبّ المصلح، ربّ الشيء إذا أصلحه".

فالأصل الأول: وهو الذي بمعنى المالك والصاحب، فيدل عليه قول النبي ﷺ في ضالة الإبل: ((فذرها حتّى يلقاها ربها)) رواه البخاري ومسلم.

والأصل الثاني: بمعنى السيد المطاع، وعليه يدل قول النبي ﷺ في حديث جبريل ﷺ عند الكلام على أشراط الساعة: ((أن تلد الأمة ربّها)) أي: سيّدها.

والأصل الثالث: فهو بمعنى المصلح للشيء المدبر له، كما قال الراغب: "الرّبّ في الأصل التربية، وهو إنشاء الشيء حالًا فحالًا إلى حدّ التمام".

قال ابن جرير الطبري -بعد ذكر المعاني الثلاثة السابقة لكلمة الرب-: "وقد يتصرف معنى الرّبّ في وجوه غير ذلك، غير أنها تعود إلى بعض هذه المعاني".

معنى كلمة الرب بالنسبة لله تعالى

إن الله سبحانه هو الرّبّ، أي: السّيّد الذي له الكمال المطلق في سؤدده، والمصلحُ أمرَ خلقه بأنواع الفضائل والإنعام، والمالك الذي له ملك كلّ شيء.

قال ابن جرير الطبري في سياق كلامه السابق: "فربنا -جلّ ثناؤه-: السيّد الذي لا شبه له، ولا مثل في سؤدده، والمصلح أمر خلقه بما أسبغ عليهم من نعمه، والمالك الذي له الخلق والأمر". وقال عبد الرحمن السعدي: "الرّبّ: هو المربي جميع عباده بالتدبير وأصناف النعم، وأخصُّ من هذا تربيتُه لأصفيائه بإصلاح قلوبهم وأرواحهم وأخلاقهم، ولهذا كثر دعاؤهم له بهذا الاسم الجليل".

فالرّبّ: هو الذي يربي عبده فيعطيه خلقه، ثمّ يهديه إلى جميع أحواله من العبادة وغيرها. والرّبّ: هو المربي الخالق الرازق الناصر الهادي، وهو الذي يرُبُّ عبده فيدبره، والربوبية تتضمن خلق الخلق وإنشاءهم، وهذا الاسم أحق بالاستعانة والمسألة، ولهذا كثيرًا ما يجيء السؤال في القرآن الكريم كما تقدم باسم الرب، كقول آدم وحواء: ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٣]، وفي دعوات سائر الأنبياء، ودعاء المؤمنين.

والرّبّ: المبلغُ كلَّ ما أبدع حدّ كماله الذي قدره له، فهو يَسُلُّ النطفة من الصلب، ثم يجعلها علقة، ثم مضغة، ثم يخلق المضغة عظامًا، ثم يكسو العَظْمَ لحمًا، ثم يخلق في البدن الروح، ويخرجه خلقًا آخر وهو صغير ضعيف، فلا يزال يُنَمِّيه ويُنْشِيه حتّى يجعَلَه رجلًا، ويكون في بدء أمره شابًا ثم كهلًا ثم شيخًا، وهكذا كلّ شيء خلقه فهو القائم عليه، والمبلغ إياه الحدّ الذي وضعه له، وجعله نهاية ومقدارًا له.

ولا تستعمل كلمة الرّبّ في حقّ المخلوق إلا مضافة، فيقال: ربّ الدار، وربّ المال. قال ابن قتيبة: "ولا يقال للمخلوق: هذا الرب، معرَّفًا بالألف واللام، كما يقال لله، إنما يقال: رب كذا، فيُعَرَّفُ بالإضافة؛ لأن الله مالك كلّ شيء، فإذا قيل: الرب، دلت الألف واللام على معنى العموم، وإذا قيل لمخلوق: رب كذا، ورب كذا، نُسِبَ إلى شيء خاص؛ لأنه لا يملك شيئًا غيره".

وقال ابن الأثير في كتابه (نهاية غريب الحديث): "الرب يطلق في اللغة على المالك والسيد والمدبر والمربي والقيم والمنعم، ولا يطلق غيرَ مضاف إلا على الله تعالى، وإذا أطلق على غيره أضيف، فيقال: ربّ كذا". وقال الراغب الأصفهاني في تفسيره (غريب القرآن): "ولا يقال مطلقًا إلا لله تعالى، المتكفل بمصلحة الموجودات، نحو قوله تعالى: ﴿ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾ [سبأ: ١٥]". فجعل قيدَ الاستعمال لغير الله تعالى الإضافةَ، وعدمَ التعريف.

وقال ابن كثير: "والرب هو المالك المتصرف، ويطلق في اللغة على السيد، وعلى المتصرفِ للإصلاح، وكلّ ذلك صحيح في حقّ الله تعالى، ولا يستعمل الرب لغير الله، بل بالإضافة، تقول: رب الدار، ورب كذا، وأما الرب فلا يقال إلا لله ﷻ".

معنى توحيد الربوبية في الشرع

تعريفه: هو توحيد الله بأفعاله، وذلك باعتقاد أن الله تعالى هو الرّبّ المتفرد بالخلق والرزق والملك والتدبير والإحياء والإماتة، ونحوها.

وعرّفه السهسواني بقوله: "اعتقادُ أنَّ اللهَ وحده ربُّنا، ليس لنا ربٌّ سواه".

وعرفه السفاريني في (لوامع الأنوار) بقوله: "توحيد الربوبية أن لا خالق ولا رازق ولا محيي ولا مميت ولا موجد ولا معدم إلا الله".

قال سليمان بن عبد الله في (تيسير العزيز الحميد): "توحيد الربوبية والملك، وهو الإقرار بأن الله تعالى ربّ كلّ شيء ومالكه وخالقه ورازقه، وأنه المحيي المميت، النافع الضار، المتفرد بإجابة الدعاء عند الاضطرار، الذي له الأمر كلّه، وبيده الخير كلّه، القادر على ما يشاء، ليس له في ذلك شريك، ويدخل في ذلك الإيمان بالقدر".

ويجمع هذه المعانيَ التي يتضمنها توحيدُ الربوبية قول الله ﷻ: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [يونس: ٣١].

فإفراده بالخلق: أن يعتقد الإنسان أنه لا خالق إلا الله، فلا خالق سواه، وهو الذي برأ الخلق فأوجدهم بقدرته، المصور خلقه كيف شاء، وكيف يشاء.

قال الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ﴾ [الحشر: ٢٤]. وقال سبحانه: ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾ [الأعراف: ٥٤]. وقال: ﴿ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [فاطر: ٣] فهذه الآية تفيد اختصاص الخلق بالله؛ لأن الاستفهام فيها مشْرَبٌ معنى التحدّي.

أما ما ورد من إثبات خالق غير الله، كقوله تعالى: ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٤] وكقوله في المصورين، يقال لهم: ((أحيوا ما خلقتم)).

فهذا ليس خلقًا حقيقة، بل هو داخل تحت خلق الله تعالى، وليس إيجادًا بعد عدم، بل هو تحويل للشيء من حال إلى حال، وأيضًا ليس شاملًا، بل محصور بما يتمكن الإنسان منه، ومحصور بدائرة ضيقة؛ فلا ينافي قولنا: إفراد الله بالخلق.

وأما إفراد الله بالملك: فأن يعتقد أنه لا يملك الخلق إلا خالقهم، كما قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الجاثية: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ [المؤمنون: ٨٨].

وأما ما ورد من إثبات الملكية لغير الله، كقوله تعالى: ﴿ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ﴾ [المؤمنون: ٦]، وقوله: ﴿ أَوۡ مَا مَلَكۡتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ ﴾ [النور: ٦١] فهو ملك محدود، داخل في ملك الله تعالى، ولا يشمل إلا شيئًا يسيرًا من هذه المخلوقات، فالإنسان يملك ما تحت يده، ولا يملك ما تحت يد غيره، وكذا هو ملك قاصر من حيث الوصف، فالإنسان لا يملك ما عنده تمام الملك، ولهذا لا يتصرف فيه إلا على حسب ما أذن له فيه شرعًا.

وبالجملة فإن الإنسان نفسه مملوك لله ﷻ.

وأما إفراد الله بالتدبير: فهو أن يعتقد الإنسان أنه لا مدبر إلا الله وحده. وكذلك كما في الآية السابقة، وهو قول الله ﷻ: ﴿ قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ﴾ [يونس: ٣١، ٣٢].

وقال -عز من قائل-: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۖ ﴾ [يونس: ٣].

وقال: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ ﴾ [الرعد: ٢].

وأما تدبير الإنسان، فهو محصور بما تحت يده، ومحصور أيضًا بما أذن له فيه شرعًا.

وأما إفراده بالرزق: فهو أن يعتقد الإنسان أن لا رازق إلا الله. قال الله تعالى: ﴿ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ [فاطر: ٣]، وقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ﴾ [الذاريات: ٥٨].

وأما إفراده بالإبداء والإعادة: فهو الذي ابتدأ الأشياء كلّها فأوجدها، ثمّ يعيدها سبحانه؛ إذ هو الأول الذي ليس قبله شيء، وهو الآخر الذي ليس بعده شيء. قال الله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم: ٢٧]، وقال: ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ [يونس: ٣٤].

وأما إفراده بالإحياء والإماتة: فهو الذي أحيا الخلق فجعل فيهم الحياة، وهو الذي أماتهم فنزع منهم الحياة، كما خلق الحياة أولًا. قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾ [الملك: ٢]، وقال: ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [الدخان: ٨].

وبذلك تحدى إبراهيمُ # نمروذ بن كنعان، الذي زعم عنادًا ومكابرة أنه يحيي ويميت، فألزمه إبراهيمُ # بحركة الشمس، وطالبه بالإتيان بها من المغرب بدلًا من المشرق، فانقطعت حجته وبُهِتَ، وألجم بالبرهان القاطع، والحجة الساطعة. قال الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

وأما إفراده ﷻ بالنفع والضر: فإنه لا يملك النفع والضر إلا الله تعالى. قال الله ﷻ: ﴿ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ﴾ [الفتح: ١١]. وقال: ﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ [المائدة: ٧٦]. وقال: ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

وقال: ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأنعام: ١٧].

قال ابن القيم في (مدارج السالكين): "فاسم الرب له الجمعُ الجامعُ لجميع المخلوقات، فهو ربّ كلّ شيء وخالقُه والقادرُ عليه، لا يخرج شيء عن ربوبيته، وكلّ من في السموات والأرض عبدٌ له في قبضته، وتحت قهره، فاجتمعوا بصفة الربوبية، وافترقوا بصفة الإلهية، فأَلَهَه وحده السعداء، وأقروا له طوعًا بأنه الله الذي لا إله إلا هو، الذي لا تنبغي العبادة والتوكل، والرجاء والخوف والحب، والإنابة والإخبات، والخشية والتذلل والخضوع إلا له. وها هنا افترق الناس، وصاروا فريقين، فريقًا مشركين في السعير، وفريقًا موحدين في الجنة، فالإلهية هي التي فرقتهم، كما أن الربوبية هي التي جمعتهم" انتهى كلامه.

ويمكن تعريف توحيد الربوبية بأخصر مما سبق فيقال: هو إفراد الله تعالى بالخلق والأمر. وقد أشار إلى شيء من هذا الإمام الطبري في شيء من كلامه سابقًا. فالخلق أصله التقدير المستقيم، ويستعمل في إبداع الشيء من غير أصل ولا احتذاء، وفي إيجاد الشيء من الشيء. فمن الأول قول الله تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ [الأحقاف: ٣٣]. ومن الثاني قوله سبحانه: ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ [النساء: ١]. وهذا يتضمن أنّه قد برأها وصورها. قال الزجاجي: "والخلق: الفعل، وأفعال الله ﷻ مقدرة على مقدار ما قدرها عليه".

وأما الأمر فمعناه: الحكم والقضاء، ومنه قول الله تعالى عن يعقوب ﷺ: ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [يوسف: ٦٧]. قال ابن جرير

عند هذه الآية: "يقول: ما القضاء والحكم إلا لله دون ما سواه من الأشياء، فإنه يحكم في خلقه بما يشاء، فينفذ فيهم حكمه، ويقضي فيه، ولا يردّ قضاؤه".

وعليه أيضًا جاء قول الله تعالى عن يوسف # : ﴿ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ﴾ [يوسف: ٤٠].

فقولنا: إفراد الله بالخلق، يشمل الخلق الأول: وهو ابتداء خلق الناس وغيرِهم، والخلق الثاني: وهو البعث، كما قال تعالى: ﴿ بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ ﴾ [ق: ١٥].

وهذا يتضمن كون الله ﷻ هو المبدئ، وهو المعيد، وهو المحيي، وهو المميت. وكذلك قد تقدم أن خلقه الأشياء، وإبداعه إياها يتضمن إبراءها وتصويرها، فهو سبحانه البارئ المصور، وهذا كله من خصائص ربوبيته.

وأما قولنا: إفراده بالأمر، فهو سبحانه الذي يأمر بما يشاء، ويحكم بما يشاء في خلقه، وقد تضمن أمرُه وحكمُه: نفعَهم وضرَهم، وتدبيرَ أمورهم، ورزقَهم.

فالله -تبارك وتعالى- هو النافع الضار، وهو المدبر للأمر والقاضي به، وهو الرزاق، وهذا كله أيضًا من خصائص ربوبيته سبحانه. وكل من الأمرين: الخلقُ والأمرُ دال على ملك الله لكل شيء، وأنه السيد، وذلك أيضًا من خصائص الربوبية. ومجموع الأمرين -أي: إفراد الله بالخلق والأمر- دال على دخول الإيمان بالقضاء والقدر في توحيد الربوبية.

ولا بد من العلم بأن أمر الله تعالى نوعان: كوني وشرعي. أما الكوني: فهو الذي تقدم الكلام عليه، والاستدلال له، وحاصله: ما يقضي الله به تقديرًا وخلقًا. وأما الأمر الشرعي: فهو الذي يقضي به الله شرعًا، ومن ذلك قول الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]. وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ [النساء: ٥٨].

عموم وخصوص ربوبية الله على خلقه

تقدم أن ذكرنا حقيقة الربوبية، وأن الرب هو الخالق المربي، الذي يربي عبده فيعطيه خلقه، ثم يهديه إلى جميع أحواله من العبادة وغيرها. والهداية هي الدلالة، وقد تكون عامة لكل الخلق، وقد تكون خاصة.

أما العامة: فالرب سبحانه هو الخالق، وهو الذي هدى الخلق لما يصلحهم في حياتهم الدنيا، من المطعم والمشرب والمنكح والمسكن، وذلك كما قال الله تعالى حكاية عن موسى # لما سأله فرعون المتظاهر بجحد الربوبية عن ربه ورب هارون، فقال: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]. وعلى المعنى نفسه جاء قول الله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ١- ٣].

والمراد: قدر خلقه فهدى، والهداية هنا عامة، كما ذكر ذلك ابن جرير الطبري في تفسيره، فدخل في ذلك هداية الله ﷻ المكلفين لسبيل الخير والشر.

فهذه هي الربوبية العامة المتعلقة بعموم الخلق، فكل من في السموات والأرض عبيد لله تعالى بهذا الاعتبار، كما قال سبحانه: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا﴾ [مريم: ٩٣]. فكلهم يأوي إلى الرب سبحانه، والآية على عمومها سواء أكان ذلك في الدنيا أو في الآخرة، ولا وجه لتخصيص إتيانهم

ربهم بيوم القيامة لعدم وجود المخصص. والآية على عمومها سواء أكان ذلك في الدنيا أو في الآخرة، ولا وجه لتخصيص إتيانهم ربهم بيوم القيامة لعدم وجود المخصص.

ويؤيد عدم التخصيص قول الله تعالى بعدها: ﴿ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا ﴾ [مريم: ٩٤، ٩٥]، وبأن الله تعالى ذكر ذلك في سياق الرد على من ادعى لله ولدًا، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا، فبين أن الجميع عبيده، فلا وجه لتخصيصه ذلك بيوم القيامة، ودخل في هذه الآية المؤمن والكافر، فكلهم عبيد مربوبون مقهورون تحت عزته وقدرته وقهره، وقد هداهم جميعًا الهداية العامة.

ومما ورد في شأن العبودية العامة -أي: عبودية القهر والملك- قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَـٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴾ [الفرقان: ١٧]، فسماهم الله عباده مع ضلالهم.

وقد وردت بعض الآيات متناولة العبودية العامة والخاصة، كقوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَـٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [الزمر: ٤٦]، وقوله: ﴿ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴾ [غافر: ٣١]، وقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴾ [غافر: ٤٨]، فالمراد بالعباد هنا الذين دخلوا في عبوديته طوعًا أو كرهًا، فشمل ذلك مؤمنهم وكافرهم.

والهداية الأخرى هي هداية التوفيق التي اختص الله بها بعض المكلفين، فوفقهم للإيمان والعمل الصالح، كما قال تعالى: ﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَـٰلَةُ ﴾ [الأعراف: ٣٠]. وكقوله ﷻ: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴾ [محمد: ١٧].

فهؤلاء هم أهل العبودية الخاصة الذين رباهم الله بالإيمان ووفقهم إليه. ويتبع هذه الهداية الخاصة -أعني: هداية التوفيق- الهداية في الآخرة إلى الجنة، كما قال الله تعالى عن المؤمنين عند دخولهم الجنة: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ٤٣].

فالله ﷻ هو المتفرد بالخلق والرزق والهداية الخاصة والعامة، ومما تفرد به سبحانه تربيةُ أصفيائه من الرسل والأنبياء والصالحين التربية الخاصة بالوحي، فوفقهم للعمل الصالح على أنه هو الذي خلقهم وهداهم إلى ما فيه صلاحهم مدة بقائهم في الدنيا، ولذلك كانت أدعية عباد الله تعالى أكثرُها جاءت بلفظ "رب"، كما تقدم ذلك سابقًا، وذلك مثل قول الله تعالى عن نوح # : ﴿ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [هود: ٤٧].

وكدعاء إبراهيم # : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾ [إبراهيم: ٣٥ - ٤١].

وقال الله ﷻ عن عباد الرحمن: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ [الفرقان: ٧٤]. والآيات في هذا المعنى كثيرة وكان المقصود بما ذكر التمثيل.

فعلم مما تقدم أن الربوبية الخاصة تتعلق ببعض المكلفين فقط، فيربيهم الله ﷻ بوحيه، ويوفقهم للعمل الصالح، ويهديهم إلى الجنة.

أما الربوبية العامة فهي متعلقة بكل الخلق مؤمنهم وكافرهم، فهو الذي خلقهم، وهو مالكهم، وهم تحت قهره، وهو الذي هداهم لما فيه صلاحهم في المعاش، وقد تقدم أن الله ﷻ قد هدى الإنسان إلى السبيل، كما قال: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان: ٣]، فهذا من أنواع الهداية، وهي دلالة الخلق إلى الهدى والدين الحق، وهذا يستلزم إرسال الرسل التي تجيء بالحق من عند الله ﷻ.

لذلك كان من أنكر النبوة الصادقة والإرسال قد طعن في ربوبية الله تعالى، وفي ذلك يقول ﷻ: ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: ٩١].

وبيان ذلك: أن مدعي النبوة إذا لم يكن صادقًا لا يمكن أن يتركه الله ﷻ ليتقول عليه بما شاء، بل والأعجب من ذلك أن يعينه وينصره ويظهره على أعدائه، ويقيد الدلائل الواضحة على صدقه، وهو مع ذلك كاذب على الله فيما ادعاه من النبوة، فإن في ذلك طعنًا في الرب، ونسبة له إلى الظلم والسفه، وهو ﷻ لا يُمكِّن لأمثال هؤلاء، ولذلك يقول الله جلّ وعلا: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [الشورى: ٢٤].

ولذلك فالله يُظهر على المدعي النبوة كذبًا في الأقوال والأعمال والأحوال ما يتبين به كذبهم. وإنكار النبوة هو أيضًا جحد وإنكار للربوبية، ومن وجوه بيان أن إنكار النبوات طعن في الرب تعالى، هو أن النبوات يتوقف عليها الجزاء في الآخرة، والمترتب على القيام بما أوجب الله ﷻ فالقول بإنكار النبوات قول بعدم الجزاء، وقولٌ بأن الخلق إنما خلقوا عبثًا.

قال الإمام ابن أبي العزّ في (شرح العقيدة الطحاوية): "بل إنكار رسالته ﷺ طعن في الرّبّ -تبارك وتعالى- ونسبة له إلى الظلم والسفه، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا، بل جحد للرب بالكلية وإنكار" انتهى كلامه.

(الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة على توحيد الربوبية)

عناصر الدرس

إثبات ربوبية الله تعالى، وأنواع الوجود

هذه الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة على توحيد الربوبية، مع ذكر بعض الآيات الكونية.

إن توحيد الربوبية يعد من أعظم مطالب التوحيد ومن أعظم المقاصد الشرعية والمقاصد المرعية، فهو أحد أركان التوحيد ودعائمه، فأهميته تتجلى في متعلقه وهو الله تعالى، ومقتضاه وهو ما يثمره في الإنسان من آثار إيمانية، وما يستلزمه من أركان التوحيد الأخرى كتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات.

وجود الله -تبارك وتعالى- مقرر بإجماع المسلمين، بل بإجماع الخلق أجمعين إلا من كابر وعاند وجحد، كفرعون ونمروذ ونحوهما، وإلا فإنه أمر مركوز في فطرة بني آدم، وكلّ ما في الوجود فهو دليل على ربوبية الله تبارك وتعالى على خلقه.

واعلم بأن الوجود نوعان:

النوع الأول: وجود ذاتي، وهو ما كان وجوده قائمًا بذاته، وهو وجود الله تعالى، وهو ما يعبر عنه بواجب الوجود. ووجوده ﷻ لم يسبقه عدم، ولا يلحقه عدم، كما قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الحديد: ٣].

النوع الثاني: وجود محدَثٌ، وهو ما يفتقر وجوده إلى غيره، وهو ما حدث بعد عدم، وهو الذي يعبر عنه بالوجود الممكن. وهذا الذي لا بد له من موجِدٍ يوجِده، وخالق حدثه، وهو الله تبارك وتعالى. قال الله ﷻ: ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ

﴿ شَيْءٍۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [الزمر: ٦٢]. ولا حرج في الإخبار عن الله ﷻ بأنه موجود؛ فإن باب الإخبار أوسع من باب الأسماء والصفات.

والأدلة على توحيد الله -تبارك وتعالى- لا تكاد تحصى؛ والقرآن الكريم لمن تدبره كلّه في تقرير التوحيد، بمختلف الأدّلة المتضمنة الدلائل العقلية، ودلائل الآفاق والأنفس ونحوهما التي قد أجملت في قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٣ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٤ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٥ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الجاثية: ٣- ٦]، وقوله سبحانه: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْءَافَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت: ٥٣].

فأرشدهم الله تعالى إلى الاعتبار بما في الآفاق من الآيات المشاهدة؛ من خلق الله الأشياء: السموات وما فيها من الكواكب النيرة، الثوابت والسيارات، والأراضين وما فيها من مهاد وجبال وأودية وبراري وقفار وأشجار وأنهار وثمار وبحار، وما اشتملت عليه أبدانهم من بديع آيات الله، وعجيب صنعته، وباهر قدرته، كل ذلك دال على حدوثها في أنفسها وعلى وجود صانعها الفاعل المختار الذي يقول للشيء كن فيكون.

الآيات القرآنية الدالة على ربوبية الله تعالى على وجه التفصيل، مع ذكر بعض الآيات الكونية

هذه بعض الدلائل القرآنية على ربوبية الله تعالى على وجه التفصيل، فمن ذلك:

أ. خلق السموات والأرض:

قال الله ﷻ: ﴿ أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ۝٢٧ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ۝٢٨ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ۝٢٩ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا ۝٣٠ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ۝٣١ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ۝٣٢ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴾ [النازعات: ٢٧- ٣٣]، وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [آل عمران: ١٩٠]، وقال: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ﴾ [الروم: ٢٥]، وقال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ ﴾ [فاطر: ٤١]، وقال: ﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٢]، وقال: ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴾ [النبأ: ١٢].

فانظر إلى هذه الآيات الباهرة، وهذه الحجة الظاهرة حيث أجمع الناس من المسلمين وغيرهم على أن العالم في الفضاء أرضه وسماؤه وما فيه من البحار والجبال وجميع الأثقال، وقد ثبت بضرورة العقل أن الثقيل لا يستمسك في الهواء إلا بممسك، وأن هذا الإمساك الدائم المتقن لا يكون بما يعقل من الرياح كما زعمت الفلاسفة، ثم هذه الرياح تحتاج إلى خالق يخلقها، ثم إلى مدبر يقدرها مستوية الأنفاس، موزونة القوة، لا يزيد منها شيء على شيء حتى تعتدل اعتدالًا أتم من اعتدال الفاعل المختار؛ فإن الفاعل المختار لو قصد الاعتدال التام حتى يستوي على رأسه جفنة مملوءة ماء، لم يستطع تمام الاعتدال إلا برياضة شديدة، فكيف تعتدل عواصف الرياح، وتقع موزونة وزن القراريط في الصنجات المعدلة حتى يستوي عليها ثقل الأرض والجبال من غير ربّ عظيم قدير حكيم مدبر، إن هذا لبهتان عظيم!.

وإذا نظرت إلى الأرض أيضًا وكيف خلقت رأيتها من أعظم آيات فاطرها وبديعها، خلقها سبحانه فراشًا ومهادًا، وذللها لعباده، وجعل فيها أرزاقهم، وأقواتهم ومعايشهم، وجعل فيها السبل لينتقلوا فيها، في حوائجهم وتصرفاتهم، وأرساها بالجبال فجعلها أوتادًا، وتحفظها لئلا تميد بهم، ووسع أكنافها ودحاها فمدها وبسطها، وطحاها فوسعها من جوانبها، وجعلها كفاتًا للأحياء، تضمهم على ظهرها ما داموا أحياء، وكفاتًا للأموات تضمهم في بطنها إذا ماتوا، فظهرها وطن للأحياء، وبطنها وطن للأموات.

وقد أكثر الله من ذكر الأرض في كتابه، ودعا عباده إلى النظر إليها والتفكر في خلقها، فقال عز من قائل: ﴿ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَـٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَـٰهِدُونَ ﴾ [الذاريات: ٤٨]، وقال: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا ﴾ [غافر: ٦٤]، وقال: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا ﴾ [البقرة: ٢٢]، وقال سبحانه: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ [الغاشية: ١٧- ٢٠]، وقال عز من قائل: ﴿ إِنَّ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الجاثية: ٣]. وهذا كثير في القرآن.

ب. إنزال المطر وإنبات النبات:

قال الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَـٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَـٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ [الزمر: ٢١].

ففي هذه الآية أشار الله تعالى إلى دليل ظاهر ملموس ومشاهد ومتكرر على قدرته ولطفه، وعلى أنه الرب الذي يشمل إحسانه وإنعامه ورحمته جميع مخلوقاته، حيث ينزل لهم المطر من السماء، فيدخله جلّ وعلا في ينابيع في الأرض، ثمّ يخرج به من الأرض الزروع المختلفة في ألوانها، من الخضرة والصفرة والحمرة والبياض، والمتنوعة في أجناسها، من البر والشعير والتمر والعنب، ثم لفت الأنظار إلى ما يصيب ذلك الزرع من الاصفرار، بعد نضرته وبهجته، حيث تتغير وتذهب بهجته وخضرته، فيصير حطامًا متفتتًا متكسرًا.

ثم بين بأن في هذه الأحوال المتقدمة العبرة والاتعاظ والتذكير لأهل العقول السليمة، الذين يتذكرون بذلك فيوقنون بأن من فعل كل ذلك لا يتعذر عليه إحداث ما شاء من الأشياء، وإنشاء ما أراد من المخلوقات، وإحياء من هلك من خلقه بعد مماتهم، وإعادته من بعد فنائه كهيئته التي كان عليها قبل فنائه، كما فعل بالأرض الميتة التي أنزل عليها الماء فأنبتت الزرع المختلف الألوان بقدرته.

فإنزال المطر من السماء ومشاهدة الأرض مخضرة بألوان من النباتات المختلفة لونًا وجنسًا بين عشية وضحاها آية متكررة بين العباد، تدل دلالة واضحة على أنه لا بد من صانع حكيم، وأن ذلك كائن عن تقدير وتدبير لا عن إهمال وتعطيل، ولا دخل للطبيعة والصدفة التي يلهب بها الجاحدون للصانع الحكيم الذي دلت جميع المخلوقات على وحدانيته، وألوهيته الحقة.

قال ابن القيم في (مفتاح دار السعادة): "فانظر إليها -أي: الأرض- وهي ميتة هامدة خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت فتحركت، وربت فارتفعت واخضرت، وأنبتت من كل زوج بهيج، فأخرجت عجائب النبات في المنظر

والمخبر، بهيج للناظرين، كريم للمتناولين، فأخرجت الأقوات على اختلافها، وتباين مقاديرها، وأشكالها وألوانها ومنافعها، والفواكه والثمار وأنواع الأدوية، ومراعي الدواب والطير. ثم انظر قِطعها المتجاورات، وكيف ينزل عليها ماء واحدًا فتنبت الأزواج المختلفة المتباينة في اللون والشكل والرائحة والطعم والمنفعة، واللقاح واحد، والأم واحدة كما قال تعالى: ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾

[الرعد: ٤].

فكيف كانت هذه الأجنة المختلفة مودعة في بطن هذه الأم، وكيف كان حملها من لقاح واحد!! صنع الله الذي أتقن كل شيء لا إله إلا هو، ولولا أن هذا من أعظم آياته لما نبه عليه عباده، وهداهم إلى التفكير فيه، قال الله ﷻ: ﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ ﴾ [الحج: ٥- ٧]، فجعل النظر في هذه الآية وما قبلها من خلق الجنين دليلًا على هذه النتائج الخمس، مستلزمًا للعلم بها" انتهى كلامه.

ج- الريح:

قال الله ﷻ: ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴾ [الحجر: ٢٢]، وقال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا

كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ [يونس: ٢٢]، وقال: ﴿ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ ﴾ [الشورى: ٣٣]، وقال: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ٥٧]، وقال: ﴿ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٦٤]، وقال: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [الروم: ٤٦].

فمن آيات الله تعالى الباهرة هذا الهواء اللطيف المحبوس بين السماء والأرض، يدرك بحس اللمس عند هبوبه، يدرك جسمه، ولا يرى شخصه، فهو يجري بين السماء والأرض والطير محتلقة فيه، سابحة بأجنحتها في أمواجه كما تسبح حيوانات البحر في الماء، وتضطرب جوانبه وأمواجه عند هيجانه، كما تضطرب أمواج البحر، فإذا شاء ﷻ حركه بحركة الرحمة، فجعله رخاء ورحمة وبشرى بين يدي رحمته، ولاقحًا للسحاب يلقحه بحمل الماء كما يلقح الذكر الأنثى بالحمل، وتسمى رياح الرحمة: المبشرات والنشر والذاريات والمرسلات والرخاء واللواقح.

وتسمى رياح العذاب: العاصفة والقاصف، وهما في البحر، والعقيم والصرصر، وهما في البر، وإن شاء حركه بحركة العذاب فجعله عقيمًا، وأودعه عذابًا أليمًا، وجعله نقمة على من يشاء من عباده، فيجعله صرصرًا ونحسًا،

وعاتيًا ومفسدًا لما يمر عليه، وهي مختلفة في مهابها وطبائعها، ولهذا جعل لكل منها ريحًا مقابلتها تكسر سورتها وحدّتها، ويبقى لينها ورحمتها.

ثم إنه سبحانه أعطى هذا الجسم اللطيف الذي يحركه أضعف المخلوقات، ويخرقه من الشدة والقوة والبأس ما يقلق به الأجسام الصلبة القوية الممتنعة، ويزعجها عن أماكنها، ويفتتها ويحملها على متنه.

د- تعاقب الليل والنهار:

وهي من أعجب آياته، وبديع مصنوعاته، ولهذا يعيد ذكرهما في القرآن ويبديه، كقوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ ﴾ [فصلت: ٣٧]، وقوله: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴾ [الفرقان: ٤٧]، وقوله: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٣]، وقوله ﷻ: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾، (غافر: ٦١] وهذا كثير في القرآن.

فانظر إلى هاتين الآيتين، وما تضمناه من العبر والدلالات على ربوبية الله ﷻ وحكمته، كيف جعل الليل سكنًا ولباسًا، يغشي العالم فتسكن فيه الحركات، وتأوي الحيوانات إلى بيوتها، والطير إلى أوكارها، وتستجم فيه النفوس، وتستريح من كدّ السعي والتعب، حتى إذا أخذت منه النفوس راحتها وسباتها، وتطلعت إلى معايشها وتصرفها، جاء فالق الإصباح ﷻ بالنهار، يقدم جيشه بشير الصباح، فيهزم تلك الظلمة، ويمزقها كلّ ممزق، ويكشفها عن العالم فإذا هم مبصرون.

فانتشر الحيوان، وتصرف في معاشه ومصالحه، وخرجت الطيور من أوكارها، فيا له من معاد ونشأة دال على قدرة الله سبحانه على المعاد الأكبر، وتكرره ودوام مشاهدة النفوس له، بحيث صار عادة ومألفًا منعها من الاعتبار به، والاستدلال به على النشأة الثانية، وإحياء الخلق بعد موتهم، ولا ضعف في قدرة القادر التام القدرة، ولا قصور في حكمته، وفي علمه يوجب تخلف ذلك، ولكن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء، وهذا أيضًا من آياته الباهرة، أن يعمى عن هذه الآيات الواضحة البينة من شاء من خلقه، فلا يهتدي بها ولا يبصرها، كمن هو واقف في الماء إلى حلقه، وهو يستغيث من العطش، وينكر وجود الماء. وبهذا وأمثاله يُعرَف الله ﷻ، ويشكر ويحمد، ويتضرع إليه ويسأل.

قال الله ﷻ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [القصص: ٧١، ٧٢]، وقال ﷻ: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [الإسراء: ١٢].

هـ- تسخير الشمس والقمر والنجوم:

قال الله ﷻ: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ [الزمر: ٥]، وقال: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾

﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس: ٣٧- ٤٠]، وقال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [يونس: ٥]، وقال: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ [الفرقان: ٦١، ٦٢].

فتأمل أحوال الشمس وانخفاضها وارتفاعها؛ لإقامة هذه الأزمنة والفصول، وما فيها من المصالح والحكم؛ إذ لو كان الزمان كله فصلًا واحدًا لفاتت مصالح الفصول الباقية فيه، وجعل الله بحكمته الخريف برزخًا بين سموم الصيف وبرد الشتاء؛ لئلا ينتقل الحيوان وهلة واحدة من الحر الشديد إلى البرد الشديد، فيجد أذاه ويعظم ضرره، فإذا انتقل إليه بتدرج وترتيب لم يصعب عليه؛ فإنه عند كلّ جزء يستعد لقبول ما هو أشد منه حتى تأتي جمرة البرد بعد استعداد وقبول، حكمة بالغة، وآية باهرة، وكذلك الربيع برزخ بين الشتاء والصيف، ينتقل فيه الحيوان من برد هذا إلى حرّ هذا بتدريج وترتيب، فتبارك الله ربّ العالمين، وأحسن الخالقين.

ثم تأمل حال الشمس والقمر وما أودعاه من النور والإضاءة، وكيف جعل لهما بروجًا، ومنازل ينزلانها مرحلة بعد مرحلة؛ لإقامة دورة السنة، وتمام مصالح حساب العالم، الذي لا غناء لهم في مصالحهم عنه، فبذلك يعلم حساب الأعمار، والآجال المؤجلة للديون والإيجارات والمعاملات والعِدد وغير ذلك،

فلولا حلول الشمس والقمر في تلك المنازل وتنقلهما فيها منزلة بعد منزلة لم يعلم شيء من ذلك.

ثم تأمل الحكمة في طلوع الشمس على العالم كيف قدره العزيز العليم سبحانه؛ فإنها لو كانت تطلع في موضع من السماء فتقف فيه، ولا تعدوه لما وصل شعاعها إلى كثير من الجهات، فاقتضت الحكمة الإلهية، والعناية الربانية أن قدر طلوعها من أول النهار من المشرق، فتشرق على ما قابلها من الأفق الغربي، ثم لا تزال تدور، وتغشى جهة بعد جهة حتى تنتهي إلى المغرب، فتشرق على ما استتر عنها في أول النهار، فيخلف عندهم الليل والنهار، فتنتظم مصالحهم.

ثم تأمل إنارة القمر والكواكب في ظلمة الليل، والحكمة في ذلك؛ فإن الله تعالى اقتضت حكمته خلق الظلمة لهدو الحيوان، وبرد الهواء على الأبدان والنبات، فتعادل حرارة الشمس، فيقوم النبات والحيوان، فلما كان ذلك مقتضى حكمته شاب الليل بشيء من الأنوار ولم يجعله ظلمة داجية حندسًا لا ضوء فيه أصلًا، فكان لا يتمكن الحيوان فيه من شيء من الحركة ولا الأعمال، فتأمل الحكمة البالغة، والتقدير العجيب الذي اقتضى أن أعان الحيوان في وقت الظلام بنور الكواكب يستعين به على هذه الظلمة، ولم يجعل الوقت كله ظلمة صرفًا، بل ظلمة مشوبة بنور، رحمة منه وإحسانًا، فسبحان من أتقن ما صنع، وأحسن كل شيء خلقه.

ثم تأمل حكمته في هذه النجوم وكثرتها وعجيب خلقها، وأنها زينة للسماء، وأدلة يهتدى بها في ظلمات البر والبحر، وما جعل فيها من الضوء والنور، بحيث يمكننا رؤيتها مع البعد المفرط، ولولا ذلك لم يحصل لنا الاهتداء، والدلالة ومعرفة المواقيت.

قال الله -تبارك وتعالى- : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٤].

و- تسخير البحار:

قال الله تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٣٢﴾ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [الشورى: ٣٢، ٣٣]، وقال: ﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: ١٤]، وقال: ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾ [الحاقة: ١١، ١٢].

فمن آياته وعجيب مصنوعاته البحار المكتنفة لأقطار الأرض، التي هي خلجان من البحر المحيط الأعظم بجميع الأرض، حتى إن المكشوف من الأرض والجبال والمدن بالنسبة إلى الماء كجزيرة صغيرة في بحر عظيم، وبقية الأرض مغمورة بالماء، ولولا إمساك الرب -تبارك وتعالى- له بقدرته ومشيئته، وحبسه الماء لطفح على الأرض وعلاها كلها، هذا طبع الماء، ولهذا حار عقلاء الطبيعيين في سبب بروز هذا الجزء من الأرض مع اقتضاء طبيعة الماء للعلو عليه، وأن يغمره، ولم يجدوا ما يحيلون عليه ذلك إلا الاعتراف بالعناية الأزلية، والحكمة الربانية التي اقتضت ذلك وفق سنن محكمة، ليتمكن الإنسان والحيوان الأرضي من

العيش في الأرض، وهذا يوجب الاعتراف بقدرة الله وإرادته ومشيئته وعلمه وحكمته وصفات كماله. فما أعظمها من آية، وأبينها من دلالة.

ز- خلق الإنسان، وتسوية نفسه:

قال الله ﷻ: ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾ [الذاريات: ٢١]، وقال: ﴿ يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ﴾ [الزمر: ٦]، وقال: ﴿ قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ ١٧ مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ ١٨ مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ١٩ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ٢٠ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ ٢١ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴾ [عبس: ١٧- ٢٢]، وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾ [النساء: ١]، وقال: ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا ﴾ [الزمر: ٦].

وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗا ﴾ [الحج: ٥]، وقال: ﴿ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ٥ خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ٦ يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ٧ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ ﴾ [الطارق: ٥- ٨]، وقال: ﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ١٢ ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ ١٣ ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ

﴿ فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٢- ١٤].

وهذا كثير في القرآن يدعو الإنسان إلى النظر والفكر في مبدأ خلقه ووسطه وآخره ؛ إذ نفسه وخلقه من أعظم الدلائل على خالقه وفاطره، وأقرب شيء إلى الإنسان نفسه، وفيه من العجائب الدالة على عظمة الله ما تنقضي الأعمار في الوقوف على بعضه، وهو غافل عنه معرض عن التفكر فيه، ولو فكر في نفسه لزجره ما يعلم من عجائب خلقها عن كفره. وقد قيل: فكرك فيك، يكفيك.

وانظر إلى إنشاء البشر على كثرتهم الهائلة من نفس واحدة آية بينة على قدرة الله ﷻ وعلمه وحكمته ووحدانيته، وذلك من نعم الله على عباده.

وتأمل إلى ما نعلمه بالضرورة من وجودنا أحياء قادرين عالمين ناطقين سامعين مبصرين مدركين، بعد أن لم نكن شيئًا، وأن أول وجودنا كان نطفة قذرة مستوية الأجزاء والطبيعة غاية الاستواء بحيث يمتنع في عقل كل عاقل أن يكون منها بغير صانع حكيم ما يختلف أجناسًا وأنواعًا وأشخاصًا.

فقد خلق من نطفة فقدرها مستوية الطبيعة فكيف يكون منها ما يبصر، ومنها ما يسمع، ومنها ما يطعم، ومنها ما يشم، ومنها الصلب، ومنها الرخو، ومنهم من يمشي على بطنه، ومنهم من يمشي رجلين، ومنهم من يمشي على أربع، كما نبه الله عليه في كتابه الكريم، ونعلم أنها قد تغيرت بنا الأحوال، وتنقلت بنا الأطوار تنقلًا عجيبًا، فكنا نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم لحمًا ودمًا، ثم عظامًا صلبة متفرقة في ذلك اللحم والدم تقويهما، وعصبًا رابطة بين تلك العظام صالحة لذلك الربط، مما فيها من القوة والمتانة، ثم تركب من ذلك آلات وحواس

حية موفقة للمصالح مع ضيق ذلك المكان، وشدة ظلمته. فلا بد لهذه التغيرات من مغير قادر عالم مدبر حكيم.

فإذا عرفت هذا فانظر كيف يمكن أن يتغير المنيّ المستوي على تلك الأمور المختلفة المحكمة البديعة الإحكام، العجيبة الصنعة، فلو جاز أن يكون مثل هذا بغير صانع، لجاز أن تصنع لنا دور معمورة، ومصاحف مكتوبة، أو ثياب منسوجة، أو حليّ مصوغة بغير بانٍ، ولا كاتب، ولا حائك، ولا صائغ، فما خص خير الخالقين بأن يكفر، ولا يدل عليه أثر صنعته العجيبة، وخلقته البديعة.

ولو كان هذا أثرًا للطبع -كما قال بعض الفلاسفة- لكان أثرًا واحدًا، كما لو جمدت النطفة بطبع البرد أو ذابت أو أنتنت.

والمقصود هنا التنبيه على أقل القليل من وجوه الحكمة التي في خلق الإنسان، والأمر أضعاف أضعاف ما يخطر بالبال، أو يجري فيه المقال، وإنما فائدة ذكر هذه الشذرة التي هي كل شيء بالنسبة إلى ما وراءها التنبيه.

ر- بسط الله سبحانه وتعالى الرزق لمن يشاء، وتضييقه على من يشاء:

قال الله عز وجل: ﴿ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾ [الرعد: ٢٦]، وقال: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾ [الروم: ٣٧]، وقال: ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الزمر: ٥٢]، وقال: ﴿ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الشورى: ١٢].

وقد أكثر الله تعالى من ذكر رزقه للعباد، وبسطه وتضييقه، فمن رحمته بعباده تيسيره على عباده، ما هم أحوج إليه، وتوسيعه بذله، فكلما كانوا أحوج إليه كان أكثر وأوسع، وكلما استغنوا عنه، كان أقل، وفيه بيان عظيم قدرته، وسعة رحمته.

قال ابن جرير عند قول الله ﷻ: ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾ قال: "يقول الله -تعالى ذكره-: أولم يعلم يا محمد هؤلاء الذين كشفنا عنهم ضرهم فقالوا: إنما أوتيناه على علم منا أن الشدة والرخاء، والسعة والضيق، والبلاء بيد الله دون كل ما سواه، يبسط الرزق لمن يشاء فيوسعه عليه، ويقدر ذلك على من يشاء من عباده فيضيقه، وأن ذلك من حجج الله على عباده؛ ليعتبروا به، ويتذكروا، ويعلموا أن الرغبة إليه، والرهبة دون الآلهة والأنداد. ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ ﴾ يقول: إن في بسط الله الرزق لمن يشاء، وتقتيره على من أراد لآيات، يعني: دلالات، وعلامات ﴿ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ يعني: يصدقون بالحق، فيوقنون إذا تبينوه وعلموا حقيقته أن الذي يفعل ذلك هو الله دون ما سواه".

وقد أطنب واستفاض الإمام أبو الشيخ بن حيان الأصبهاني في ذكر النصوص المتنوعة من القرآن، والسنة، وآثار السلف الدالة على توحيد الربوبية، وقال في ثناياه: "ذكر نوع من التفكر في عظمة الله ﷻ ووحدانيته وحكمته وتدبيره وسلطانه، قال الله تعالى: ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات: ٢١]، فإذا تفكر العبد في ذلك استنارت له آيات الربوبية، وسطعت له أنوار اليقين، واضمحلت عنه غمرات الشك، وظلمة الريب".

وقال البيهقي في كتابه (الاعتقاد): "ذكر الله ﷻ خلق السموات والأرض بما فيها من البحار، والأنهار، والجبال، والمعادن، وذكر اختلاف الليل والنهار، وأخذ أحدهما من الآخر، وذكر الفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس، وذكر ما أنزل من السماء من المطر رزقًا للعباد والبهائم والدواب، وذكر ما بثّ في الأرض من كل دابة مختلفة الصور والأجسام، مختلفة الألسن والألوان، وذكر تصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض، وما فيهما من منافع الحيوان، وما في جميع ذلك من الآيات البينات لقوم يعقلون" انتهى.

الأدلة العقلية على توحيد الربوبية

عناصر الدرس

الفرق بين دليل الآيات، والقياس العقلي

اعلم أن الفرق بين دليل الآيات الذي تقدم بعض منه، والقياس العقلي: أن الآية تدل على عين المطلوب، ولا تدل على أمر كليّ مشترك بين المطلوب وغيره، ككون الشمس آية للنهار، أما القياس العقلي فيدل على أمر كليّ، ولا يدل على مطلوب بعينه.

والقياس ثلاثة أنواع: قياس شمول: وهو الذي يبنى على مقدمتين، ونتيجة. وقياس تمثيل: وهو الذي يعبر عنه بقياس العلة، وهو الذي يبنى على وصف جامع بين أصل وفرع، أو بين مشبه ومشبه به. وهذان القياسان هما عمدة نظر المتكلمين، وقياسهم العقلي. وهو محظور في حقّ الله تعالى؛ لأنه يتضمن تمثيل الله تعالى بخلقه، والمقصود بالقياس هو الاستدلال بالشاهد على الغائب. والذي يصح من القياس في حق الله ﷻ إنما هو قياس الأولى.

وهو الذي يدل عليه قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [النحل: ٦٠]؛ إذ لا يدخل الخالق والمخلوق تحت قضية كلية تستوي أفرادها، ولا يتماثلان في شيء من الأشياء، بل يعلم أن كل كمال لا نقص فيه بوجه، ثبت للمخلوق، فالخالق أولى به، وكل نقص وجب نفيه عن المخلوق، فالخالق أولى بنفيه عنه. وأمثال هذه الأقيسة العقلية، التي من نوع الأمثال المضروبة في القرآن، ولله المثل الأعلى.

وذلك كما قاس الله النشأة الثانية على النشأة الأولى في الإمكان، فهذا من أمثلة القياس الأولى، وجعل النشأة الأولى أصلًا، والثانية فرعًا عليها، وقاس حياة الأموات على حياة الأرض بعد موتها بالنبات، وقاس الخلق الجديد الذي أنكره

أعداؤه على خلق السموات والأرض، وجعله من قياس الأولى، كما جعل قياس النشأة الثانية على الأولى من قياس الأولى، وقاس الحياة بعد الموت على اليقظة بعد النوم.

ولقد كرم الله بني آدم، وخلقهم في أحسن تقويم. ومن أعظم ما كرمهم به العقل الذي ميزهم به عن سائر مخلوقاته التي لا تعقل. وجاءت مقاصد الشريعة متضمنة المحافظة على العقل، وجعله الله مناط التكليف. ومن أجل تلك المنزلة التي للعقل ترى الخطاب الشرعي في كثير من الأحوال يرد مقترنًا بالحثّ على العقل والتفكر والتذكر.

والله تعالى قد جمع في كتابه بين دلالة السمع، ودلالة العقل، فالأدلة الشرعية ليست متوقفة على مجرد دلالة الخبر كما يظنه من يظنه من الناس، بل جمعت بين الأدلة الخبرية والأدلة العقلية، كما دلّ على ذلك كتاب الله ﷻ إجمالًا وتفصيلًا، فممّا دلّ على ذلك من جهة الإجمال قول الله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦]، وقوله سبحانه: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٧٨]، وقوله: ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّـٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَـٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [الأحقاف: ٢٦]، وقوله ﷻ: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الملك: ١٠].

فجمعت هذه النصوص بين اعتبار الأدلة السمعية والأدلة العقلية، والأدلة الشرعية النقلية متضمنة للأدلة العقلية ومستلزمة لها، والأدلة العقلية مستلزمة للأدلة الشرعية النقلية.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية عند قوله ﷻ: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ قال: "وهذه الآية وأمثالها تدل على أن السمع والأبصار والأفئدة لا تنفع صاحبها مع جحده لآيات الله، فتبين أن العقل الذي هو مناط التكليف لا يحصل بمجرده الإيمان النافع، والمعرفة المنجية من عذاب الله. وهذا العقل شرط في العلم والتكليف، لا موجب له. إلى أن قال: ومَن يقول: إن المعرفة تحصل بالعقل، يقول: إنما تحصل بعلوم عقلية، أي: يمكن معرفة صحتها بنظر العقل، لا يقول: إنّ نفس العقل الذي هو الغريزة ولوازمها يوجب حصول المعرفة والعبادة" انتهى كلامه.

والسمع والعقل هما أصل العلم النافع والعمل الصالح، وبهما يبتغى وينال، والعلم ثابت في ذاته، وثبوته ليس موقوفًا على إقرار عقولنا به، بل هو ثابت في نفس الأمر سواء علمناه بعقولنا أو لم نعلمه، وعقولنا إنما هي وسيلة لإدراكه وتحصيله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "فتبين بذلك أن العقل ليس أصلًا لثبوت الشرع في نفسه، ولا معطيًا له صفة لم تكن له، ولا مفيدًا له صفة كمال؛ إذ العلم مطابق للمعلوم المستغني عن العلم، تابع له ليس مؤثرًا فيه؛ فإن العلم نوعان:

أحدهما: العملي، وهو ما كان شرطًا في حصول المعلوم، كتصور أحدنا لما يريد أن يفعله، فالمعلوم هنا متوقف على العلم به، محتاج إليه.

الثاني: العلم الخبري النظري، وهو ما كان المعلوم غير مفتقر في وجوده إلى العلم به، كعلمنا بوحدانية الله ﷻ وأسمائه وصفاته، وصدق رسله، وبملائكته، وكتبه، وغير ذلك.

فإن هذه المعلومات ثابتة سواء علمناها أو لم نعلمها، فهي مستغنية عن علمنا بها، والشرع والعقل هو من هذا الباب؛ فإن الشرع المنزل من عند الله ثابت في نفسه، سواء علمناه بعقولنا أو لم نعلمه، فهو مستغنٍ في نفسه على علمنا وعقلنا، ولكن نحن محتاجون إليه وإلى أن نعلمه بعقولنا؛ فإن العقل إذا علم ما هو عليه الشرع في نفسه صار عالمًا به، وبما تضمنه من الأمور التي يحتاج إليها في دنياه وآخرته، وانتفع بعلمه به، وأعطاه ذلك صفة لم تكن له قبل ذلك، ولو لم يعلمه لكان جاهلًا ناقصًا" انتهى كلامه.

والسمع والعقل متفقان لا يمكن أن يتعارضا، فالعقل مستلزم للسمع، والسمع متضمن للعقل، وما حصل من المعارضات فليست من العقليات الصحيحة، بل هي من الخيالات الفاسدة، والظنون الباطلة، فلا يقال حينئذ: يتعارض العقل والسمع؛ إذ هذا مستحيل، وبالتالي لا يتصور تقديم العقل على النقل أبدًا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "ليس فيما يعارض السمع شيء من المعقولات التي يتوقف السمع عليها، فإذًا كلّ ما عارض السمع مما يسمى معقولًا ليس أصلًا للسمع يتوقف العلم بصحة السمع عليه، فلا يكون القدح في شيء من المعقولات قدحًا في أصل السمع" انتهى كلامه.

والعقل وحده دون اقترانه بالسمع لا يبلغ به العبد مقاصد الشرع، وغايات الهدى، وبسبب الاغترار بالعقل وتجريده عن السمع ضل كثير من الخلق، قال

الله ﷻ: ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان: ٤٤].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وإذا كان الله معروفًا من طريق التوحيد بالعقل، فما بال قريش -مع كونها ذوي عقول- يقول الله عنها إخبارًا: ﴿ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص: ٥] فإن كان لا عقل لها فلا حجة عليها، وإن كانت ذوي عقول فما أغنت عنهم عقولهم. وقال الله سبحانه: ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ ﴾ الآية، لا خلاف أنهم كانوا ذوي أسماع لا يسمعون بها، وكذلك عقول لا تغني عنهم ولا يستعملونها، فلم تكن مغنية لهم مع تكذيبهم الرسل، فبوجود الرسل صحّ التكليف، وبالعقل تمثيل ذلك بعد التوفيق، وليس للعقل مدخل فيما تقدم من المعارف، وإن كان له ها هنا مدخل، فالأصل الرسل والعقل اتّبع ذلك.

وأما العقل فله مدخل بالغ في معرفة المزيد، وكذلك العلم، فالعلم بيان الله، والعقل حجة الله، والرسل هم الحجة الظاهرة المبلغة عن الله مراده، والمخبرة بأمره، والداعية إلى سبيله. ولما كان سبحانه لا سبيل إليه، ولا عقول تشرف عليه، ولا لنا طاقة على استماع كلامه، لم يكن بد من بعث الرسل لنعلم بها مراد الربوبية منا" انتهى كلامه.

وعند فساد مدارك العلم وأسباب حصوله يمتنع وصول الهدى إلى القلب، ويقع عليه الفساد والهلكة، والعقل وسيلة لإدراك وفهم الأحكام، وليس غاية ومقصدًا تثبت به الأحكام، وإنما هذا للشرع فقط، ولهذا لم يوكل الله الناس إلى عقولهم، بل أرسل إليهم رسلًا، وأنزل إليهم كتبًا، وذلك لقصر العقول عن تحصيل الحق بمفردها، إذا لم تستند في ذلك إلى الشرع.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "أصول الدين إما أن تكون مسائل يجب اعتقادها، ويجب أن تذكر قولًا، أو تعمل عملًا، كمسائل التوحيد والصفات، والقدر، والنبوة، والمعاد، أو دلائل هذه المسائل. أما القسم الأول فكل ما يحتاج الناس إلى معرفته واعتقاده والتصديق به من هذه المسائل وقد بينه الله ورسوله بيانًا شافيًا قاطعًا للعذر. إلى أن قال -رحمه الله تعالى-: وإنما يظن عدم اشتمال الكتاب والحكمة على بيان ذلك من كان ناقصًا في عقله وسمعه، ومن له نصيب من قول أهل النار الذين قالوا: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾، وإن كان ذلك كثيرًا في كثير من المتفلسفة والمتكلمة، وجهال أهل الحديث والمتفقهة والصوفية.

الأدلة العقلية من القرآن الكريم في تقرير توحيد رب العالمين

وأما القسم الثاني -وهو دلائل هذه المسائل الأصولية- فإنه وإن كان يظن طوائف من المتكلمين أو المتفلسفة أن الشرع إنما يدل بطريق الخبر الصادق، فدلالته موقوفة على العلم بصدق المخبر، ويجعلون ما يبنى عليه صدق المخبر معقولات محضة، فقد غلطوا في ذلك غلطًا عظيمًا، بل ضلوا ضلالًا مبينًّا في ظنهم أن دلالة الكتاب والسنة إنما هي بطريق الخبر المجرد، بل الأمر ما عليه سلف الأمة، أهل العلم والإيمان من أن الله ﷻ بين من الأدلة العقلية التي يحتاج إليها في العلم بذلك ما لا يقدر أحد من هؤلاء قدره، ونهاية ما يذكرونه جاء القرآن بخلاصته على أحسن وجه".

ومما ورد في القرآن من الأدلة العقلية ما تضمنه قول الله ﷻ: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَـٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [المؤمنون: ٩١].

فقد جاءت الآية بالبرهان القاطع، والحجة الباهرة المنيرة في بيان تقرير التوحيد، حيث قطع الله عن المشركين كل السبل التي تسللوا من خلالها إلى الشرك، فنزه نفسه عن أن يكون له ولد أو شريك في الملك والتصرف والعبادة، فبين أنه لو قدِّر تعدد الآلهة لما خرج الأمر عن ثلاثة أحوال؛ إما أن يتفرد كل إله بخلقه وملكه، فلم يرض أن يضاف خلقه وإنعامه إلى غيره، ومنع الإله الآخر عن الاستيلاء بما خلق، وإما يقصد بعضهم مغالبة بعض فيعلو بعضهم على بعض، وإما أن يكونوا كلهم تحت قهر إله واحد، فيكون وحده هو الإله، وما سواه معبود مربوب مقهور.

فهذا دليل عقلي انتظم تحقيق التوحيد بأوجز عبارة، وأقرب طريق.

قال ابن أبي العزّ: "فتأمل هذا البرهان الباهر بهذا اللفظ الوجيز الظاهر؛ فإن الإله الحقّ لا بد أن يكون خالقًا فاعلًا، يوصل إلى عباده النفع ويدفع عنهم الضر، فلو كان معه سبحانه إله آخر يشركه في ملكه لكان له خلق وفعل، وحينئذ لا يرضى تلك الشركة، بل إن قدر على قهر ذلك الشريك وتفرده بالملك والإلهية دونه فَعَل، وإن لم يقدر على ذلك انفرد بخلقه وذهب بذلك الخلق، كما ينفرد ملوك الدنيا بعضهم على بعض بملكه، إذا لم يقدر المنفرد منهم على قهر الآخر والعلو عليه.

فلا بد من أحد ثلاثة أمور: إما أن يذهب كل إله بخلقه وسلطانه، وإما أن يعلو بعضهم على بعض، وإما أن يكونوا تحت قهر مالك واحد يتصرف فيهم كيف يشاء، ولا يتصرفون فيه، بل يكون وحده هو الإله، وهم العبيد المربوبون المقهورون من كلّ وجه. وانتظام أمر العالم كله وإحكام أمره، من أدل دليل على أن مدبره إله واحد، وملك واحد، ورب واحد، لا إله للخلق سواه، ولا رب

لهم سواه. كما قد دلّ دليل التمانع على أن خالق العالم واحد، لا ربّ غيره ولا إله سواه، فذلك تمانع في الفعل والإيجاد، وهذا تمانع في العبادة والإلهية، فكما يستحيل أن يكون للعالم ربان خالقان متكافئان، كذلك يستحيل أن يكون لهم إلهان معبودان. فالعلم بأن وجود العالم عن صانعين متماثلين ممتنع لذاته، مستقر في الفطر معلوم بصريح العقل بطلانه، فكذا تبطل إلهية اثنين.

فالآية الكريمة موافقة لما ثبت واستقر في الفطر من توحيد الربوبية، دالة مثبتة مستلزمة لتوحيد الإلهية. وقريب من معنى الآية قوله ﷻ: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء: ٢٢]، وقد ظن طوائف أن هذا دليل التمانع الذي تقدم ذكره، وهو أنه لو كان للعالم صانعان... إلخ، وغفلوا عن مضمون الآية؛ فإنه سبحانه أخبر أنه لو كان فيهما آلهة غيره، ولم يقل أرباب..." انتهى كلامه.

ومن الأدلة القرآنية المتضمنة الدليل العقلي من القرآن الكريم أيضًا قول الله ﷻ: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ [الطور: ٣٥].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وهذا التقسيم في الآية تقسيم حاصر، ذكره الله بصيغة الاستفهام؛ ليبين أن هذه المقدمات، معلومة بالضرورة، لا يمكن جحدها، يقول: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾؟ أي: من غير خالق خلقهم، أم هم خلقوا أنفسهم؟ وهم يعلمون أن كلا النقيضين باطل، فتعين أن لهم خالقًا خلقهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ".

وقال عبد الرحمن السعدي في (الرياض الناضرة): "اعلم -رحمك الله- أنه إذا نظرت إلى العالم العلوي والسفلي، وما أودع فيه من المخلوقات المتنوعة، والحوادث المتجددة، فتأملته تأملًا صحيحًا، وجدت أن الأمور الممكن تقسيمها في العقل ثلاثة:

الأول: إما أن توجد هذه المخلوقات بنفسها، من غير محدِث ولا خالق، فهذا محال ممتنع، يجزم العقل ببطلانه ضرورة، ويعلم يقينًا أن من ظن ذلك فهو إلى الجنون أقرب منه إلى العقل؛ لأن كل من له عقل يعرف أنه لا يمكن أن يوجد شيء من غير موجد، ولا محدث.

الثاني: وإما أن تكون هي المحدثة لنفسها، الخالقةَ لها، فهذا أيضًا محال ممتنع بضرورة العقل، كل عاقل يجزم أن الشيء لا يُحدث نفسه.

وإذا بطل هذان القسمان عقلًا وفطرة، تعين القسم الثالث.

الثالث: أن هذه المخلوقات، والحوادثَ، لها خالق خلقها، ومحدِث أحدثها، وهو الرب العظيم الخالق لكل شيء، المتصرف في كل شيء المدبر للأمور كلها، ولهذا نبه الله ﷻ على هذا التقسيم العقلي، الواضح لكل عاقل" انتهى كلامه.

هذا هو السمع الواضح الصريح، وما تضمنه هو العقل السليم الصحيح، وما سوى ذلك من العقليات المنكوسة، والخيالات الموهومة التي يزعم المخالفون للشرع أنها أصل السمع، وأنها مقدمة عليه عند التعارض فهذا سبيل الضلال، ومورد الهلاك، ومعاملة من ضل عن الهدى، وسلك طريق الرّدى، فإنما هو في التفريط في اتباع الحق الذي جاء به أفضل الخلق ﷺ والإعراض عن الكتاب والسنة، كما قال الله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ [طه: ١٢٤]، وقال سبحانه: ﴿ كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ۝ اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢، ٣].

وقـــال ﷻ: ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٥- ١٥٧].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "فذكر سبحانه أنه يجزي الصادف عن آياته مطلقًا - سواء أكان مكذبًا أو لم يكن- سوءَ العذاب بما كانوا يصدفون. إلى أن قال - رحمه الله-: ولهذا أخبر الله في غير موضع من كتابه بالضلال والعذاب لمن ترك اتباع ما أنزله، وإن كان له نظر وجدل واجتهاد في عقليات وأمور غير ذلك، وجعل ذلك من نعوت الكفار والمنافقين. قال الله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾، وقال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [غافر: ٨٣- ٨٥]، وقال: ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ [غافر: ٣٥]، وفي الآية الأخرى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [غافر: ٥٦].

والسلطان: هو الحجة المنزلة من عند الله. إلى أن قال -رحمه الله-: وقد قال الله في نعت المنافقين: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ [النساء: ٦٠- ٦٣]. وفي هذه الآيات أنواع من العبر الدالة على ضلال من تحاكم إلى غير الكتاب والسنة، وعلى نفاقه، وإن زعم أنه يريد التوفيق بين الأدلة الشرعية، وبين ما يسميه هو عقليات من الأمور المأخوذة عن بعض الطواغيت من المشركين وأهل الكتاب، وغير ذلك من أنواع الاعتبار" انتهى كلامه.

إذا علم هذا تبين أن الواجب على كلّ مسلم اتباع ما جاء به الرسول ﷺ والاكتفاء في ذلك بما اكتفى به السلف الصالح من هذه الأمة، وأما المسالك العقلية، والطرق القياسية التي صارت بمثابة أصل الأصول، وأولى الأولويات عند المخالفين لمنهج السلف فما هي إلا أوهام وخيالات مشتملة على مقدمات باطلة لا يحصل بها المقصود، بل تناقضه في وسائله ومقاصده، وفي مسائله ودلائله، وإن حصل بها بعض المراد ففيها من التطويل والمشقة والتعقيد ما يمتنع في الحكمة الإلهية والرحمة الربانية أن يدل الله تعالى بها عباده عليها، مع ما فيها من الغرر والخطر، وهي كثيرة الممانعات والمعارضات، مواجهة بعقبات تمنع المقصود.

وهي في ذاتها مناقضة للطريقة الصحيحة التي دعا إليها القرآن ؛ حيث إن القرآن استعمل في الدلالة على التوحيد قياس الأولى ، بخلاف من خالف وأعرض عن هداه ، فإنه استعمل قياس التمثيل وقياس الشمول الذي مآله تمثيل الخالق بالمخلوق ، وهي أيضًا مشتملة على مقدمات باطلة ، مستلزمة لقضايا باطلة.

ومن منهج القرآن الكريم الدلالة بآياته على عين المطلوب ، بينما يقف المراد عند المخالف عند تحقيق بعض المقدمات لا يمكن الخروج منها إلا بمشقة ، إن حصل ذلك فنهاية مطلوبهم الاستدلال على الحوادث أنها حوادث.

وهم في هذا الاستدلال متناقضون غاية التناقض ، يضرب بعضهم أقوال بعض ، وليس لديهم أصل يرجعون إليه ويتحاكمون إليه يعصمهم من هذا التناقض والاختلاف إلا هذه العقول المطموسة المتناقضة.

وهي طريقة مبتدعة في الدين لم يدع إليها الرسول ﷺ وقد بلغ الرسالة ، وأدّى الأمانة ، وأوضح الحجّة وقطع المحجّة ، وبيّن للناس ما أنزل إليهم من ربهم ، لئلا يكون للناس على الله حجّة بعد الرسل ، فتركهم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك ، ثم الصحابة } بعده دعوا الناس إلى مثل ما دعاهم إليه رسول الله ﷺ وسلكوا سبيله ، فكانوا بذلك خير أمة أخرجت للناس ، ثمّ التابعون ومن بعدهم بإحسان مثلهم كذلك ، فكانوا بذلك أقوى إيمانًا ، وأحسن إسلامًا من غيرهم ، وأعلم بدين الله وأحكم ، فكانوا كما قال الله ﷻ : ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ [سبأ: ٦].

وقد وصفهم الله باليقين والهدى والبصيرة في غير موضع من كتابه، كقوله: ﴿ وَبِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ [البقرة: ٤]، وقوله: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ [البقرة: ٥]، وقوله: ﴿ قُلْ هَـٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾ [يوسف: ١٠٨].

ولم يعرف عن أحد من السلف الصالح أنه تكلم في شيء من الأعراض والجواهر والأجسام، ولا في شيء من الحدوث والإمكان، ولا في الأكوان الأربعة التي هي الحركة والسكون والاجتماع والافتراق، فلو كان هذا خيرًا وحقًّا لسبقونا إليه كما سبقونا لكل خير، بل هذا كله مما ورد على هذه الأمة مما ترجم من كتب الفلاسفة ابتداء من عهد المأمون.

بل قد تواتر عن سلف الأمة حماة العقيدة، الذّابّين عن حوزة الدين ذمُّ هذه الطريقة، وإنكار الخوض فيها، وألفت في التحذير منها الكتب، منها (أحاديث في ذم الكلام) لأبي الفضل المقرئ، و(ذم الكلام) لأبي إسماعيل الأنصاري".

قال أبو القاسم التيميّ عند قول النبي ﷺ: ((مَن أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردّ)) قال: "أنكر السلف الكلام في الجواهر والأعراض، وقالوا: لم يكن على عهد الصحابة والتابعين -رضي الله عن الصحابة، ورحم التابعين- ولا يخلو أن يكونوا سكتوا عن ذلك وهم عالمون به فيسعنا السكوت عما سكتوا عنه، أو يكونوا سكتوا عنه وهم غير عالمين به، فيسعنا أن لا نعلم ما لم يعلموه، والحديث الذي ذكرناه يقتضي أن ما تكلم فيه المتأخرون من ذلك ولم يتكلم فيه الأولون يكون مردودًا" انتهى كلامه.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وأما أكابر أهل العلم من السلف والخلف فعلموا أنها طريقة باطلة في نفسها، مخالفة لصريح المعقول، وصحيح المنقول، وأنه لا

يحصل بها العلم بالصانع ولا بغير ذلك، بل يوجب سلوكها اعتقادات باطلة توجب مخالفة كثير مما جاء به الرسول ﷺ مع صريح المعقول، كما أصاب من سلكها من الجهمية، والمعتزلة، والكلاّبية، والكرّامية، ومن تبعهم من الطوائف، وإن لم يعرفوا غورها وحقيقتها فإن هؤلاء الطوائف صار كل منهم يلتزم ما يراه لازمًا له ليطردها، فيلتزم لوازم مخالفة للشرع والعقل، فيجيء الآخر فيرد عليه ويبين فساد ما التزمه، ويلتزم هو لوازم أخر لطردها فيقع أيضًا في مخالفة الشرع والعقل" انتهى كلامه.

وهذا المسلك المخالف هدي السلف الصالح قد تضمن لوازم باطلة يعسر حصرها، والإحاطة بها، أعظمها ما يتعلق بذات الله تعالى، من نفي صفاته وأفعاله، والقول بخلق القرآن الكريم، ونفي صفة العلوّ والكلام، ونفي رؤية الله في الآخرة، ونفي القدر وغيره.

ومن لوازمها أيضًا: أن الله تعالى كان معطلًا عن الفعل في الأزل، بل الفعل عندهم ممتنع منه أزلًا وأبدًا؛ إذ يستحيل قيامه به على حدّ زعمهم لامتناع حلول الحوادث به.

ومن لوازمه أيضًا: القول بفناء الجنة والنار، وفناء أهلهما، أو القول بفناء حركاتهم دون ذواتهم.

ومن لوازمها أيضًا قولهم: إن الأعراض الثابتة كالأكوان الأربعة، وهي الحركة والسكون والاجتماع والافتراق، وكذا الأشكال والمقادير تتبدل في كلّ نفس ولحظة، ويخلفها غيرها حتى قال من قال: إن الروح عرض، وإن الإنسان

يستحدث في كلّ ساعة عدة أرواح، تذهب له روح وتجيء غيرها بناء على أن الأعراض لا تبقى زمانين.

ومن لوازمها قولهم: إن جسم النار مماثل لجسم الماء، وإن جسم أخبث ريح مماثل لجسم أطيب ريح في الحدّ والحقيقة بناء على قولهم بتماثل الأجسام. هذه هي عقيدة المتكلمين التي تفسد العقل، وتجعله مقدمًا على الكتاب والسنة. فكيف يكون مثل هذا القول وكيف تكون مثل هذه الأصول والقواعد الباطلة الفاسدة دليلًا على وجود الخالق؟!

ولقد وقفت على كثير من كتب المتأخرين ممن تصدى للرد على الملاحدة من العقلانيين والطباعيين، والماديين، والتجريبيين من الشيوعيين وغيرهم، ووجدت فيها مناظرات مفيدة، ومناقشات ممتعة مفحِمَة للمخالف، ولكن بعض هؤلاء المفكرين لجهله بالعقيدة، ومسالكِ المتكلمين فيها من الجهمية والمعتزلة والأشاعرة وغيرهم، وعدم معرفته بأصولهم يقع في بعض الأخطاء والمغالطات التي غالبًا ما تكون عائقًا عن إتمام الحجة على الملاحدة، أو يعلق سياقها ببعض الشبهات، والالتباسات في منطق الاعتراض عليهم. ولهذا استطردت في الكلام على أصول الدليل العقلي، وبيان طريقه السليم، ومنهجه الصحيح المستقيم.

(دليل الفطرة على توحيد الربوبية)

عناصر الدرس

من مؤرِّخي القرن الثالث الهجري: اليعقوبي وابن قتيبة

مما مَنّ الله -تبارك وتعالى- به على عباده أن جعل شريعته الظاهرة والباطنة ملائمة لفطرتهم، وركز في نفوسهم معرفته ومحبته والتوجه إليه، أرشدها إلى عبادته وحده لا شريك له، فالنفس إذا تركت وخليت مما يفسدها من الوساوس، وتزيين شياطين الجن والإنس تجردت لهذا الذي فطرت عليه. والله تعالى إنما بعث رسله لتقرير الفطرة وتكميلها، لا لتغيير الفطرة وتحويلها. هذا الذي دلت عليه نصوص الكتاب والسنة، وقرره سلف هذه الأمة.

قال النبي ﷺ: ((كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجّسانه، كمثل البهيمة تنتج البهيمة، هل ترى فيها جدعاء)) رواه البخاري ومسلم. ثم قال أبو هريرة: "واقرءوا إن شئتم: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الروم: ٣٠]". وقول أبي هريرة هذا مدرج في الحديث، وليس مرفوعًا إلى النبي ﷺ، كما تقدم بيانه سابقًا.

واختلفوا في المراد بالفطرة في هذا الحديث على أقوال، أشهرها وأظهرها أنها الإسلام. قال الخطابي في (معالم السنن): "وأشهر الأقوال أن المراد بالفطرة الإسلام". وقال ابن عبد البر في (التمهيد): "وهو المعروف عند عامة السلف".

والأدلة على أن المراد بالفطرة الإسلام كثيرة، منها: قول أبي هريرة إثر ذكر الحديث: "واقرءوا إن شئتم: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ﴾" ففسر الفطرة في الحديث بهذه الآية، وهي الإسلام، وهذا تفسير السلف كما ذكره عنهم ابن جرير الطبري. ثم قال: "وقوله: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ يقول: لا تغيير لدين الله، أي: لا يصلح ذلك، ولا ينبغي أن يفعل". وهو مروي

عن عبد الله بن عباس } ، وإبراهيم النخعي، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة، والضحاك، وابن زيد، كما ذكره عنهم ابن جرير في التفسير.

ولا منافاة بين هذا القول، ومن ذهب إلى أن المراد به الخصاء، وهو مِن خَصاه خِصاء، سل خصييه، فهو خصي ومخصي كما في (القاموس المحيط) وكلاهما داخل في عموم التبديل المذكور في الآية.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية بعد نقله القولين المذكورين في الآية: "قلت: مجاهد وعكرمة روي عنهما القولان؛ إذ لا منافاة بينهما، كما قال تعالى: ﴿ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ﴾ [النساء: ١١٩]، فتغيير ما خلق الله عليه عباده من الدين تغيير لخلقه، والخصاء وقطع الأذن أيضًا تغيير لخلقه، ولهذا شبه النبي ﷺ أحدهما بالآخر في قوله: ((كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء)). فأولئك يغيرون الدين، وهؤلاء يغيرون الصورة بالجدع والخصاء، هذا تغيير لما خلقت عليه نفسه، وهذا تغيير ما خلق عليه بدنه".

وقال في موضع آخر قبله: "وأيضًا فإن الحديث مطابق للقرآن، لقوله تعالى: ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾، وهذا يعم جميع الناس، فعلم أن الله فطر الناس كلهم على فطرته المذكورة. وفطرة الله أضافها إليه إضافة مدح لا إضافة ذم، فعلم أنها فطرة محمودة لا فطرة مذمومة. يبين ذلك أنه قال: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ﴾ [الروم: ٣٠]، وهذا نصب على المصدر الذي دلّ عليه الفعل الأول عند

سيبويه وأصحابه، فدل على أن إقامة الوجه للدين حنيفًا هو فطرة الله التي فطر الناس عليها، كما في نظائره، مثل قوله: ﴿ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ ﴾ [النساء: ٢٤].

وقوله: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴾ [الفتح: ٢٣]، فهذا عندهم مصدر منصوب بفعل مضمر لازم إضماره، دل عليه الفعل المتقدم، كأنه قال: كتب الله ذلك عليكم، وسن الله ذلك. وكذلك هنا فطر الله الناس على ذلك، أي: إقامة الدين لله حنيفًا، وكذلك فسره السلف كما تقدم النقل عنهم".

وقوله: ﴿ حَنِيفٗا ﴾ يدل على أن المراد بالفطرة الإسلام؛ لأن الحنيف هو المستقيم المخلص، وهذان الوصفان من أهم دعائم الإسلام، ومدار تفسير السلف على هذا المعنى، والله تعالى يقول: ﴿ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [آل عمران: ٦٧]، وقال سبحانه: ﴿ وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْۗ قُلۡ بَلۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِـۧمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [البقرة: ١٣٥]، وقال: ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ ﴾ [الحج: ٧٨]. فوصف الحنيفية بالإسلام وهو أمر واضح لا خفاء به ((خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم...)) الحديث.

فهذا كذلك يدل على أن الفطرة هي الإسلام والحنيفية التي فطر الله ﷻ الناس عليها.

ومما يدل أيضًا على أن المرادَ بالفطرةِ في هذا الحديثِ الإسلامُ وروده في بعض الروايات بلفظ: ((الملة)) بدل: ((الفطرة))، والدين في قوله تعالى: ﴿ لِلدِّينِ حَنِيفٗا ﴾ هو عين الملة، كما قال تعالى: ﴿ قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦١].

ومن الأدلة على ذلك أيضًا: أن الفطرة حيث جاءت مطلقة معرفة باللام لا يراد بها إلا فطرة التوحيد والإسلام، وهي الفطرة المحمودة. ويؤكد هذا اللفظ الآخر عند مسلم: ((ليس من مولود يولد إلا على هذه الفطرة حتى يعبر عنه لسانه)).

ومنها: قوله: ((فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه)) فيه بيان أنهم يغيرون الفطرة التي فطر الناس عليها، والأصل المغير غير ما آل إليه الأمر من التغيير إلى اليهودية والنصرانية والمجوسية.

ومن الأدلة أيضًا: تشبيه المولود في ولادته عليها بالبهيمة الجمعاء، وهي الكاملة الخلق، ثم تشبيهه إذا خرج عنها بالبهيمة التي جدعها أهلها فقطعوا أذنها، وفي ذلك دليل على أن الفطرة هي الفطرة المستقيمة السليمة، وما يطرأ على المولود من التهويد والتنصير بمنزلة الجدع والتغيير في ولد البهيمة.

والفطرة التي فطر الله تعالى الناس عليها هي مقتضى الميثاق الذي أخذه الله تعالى على بني آدم، حيث أخرجهم من ظهر أبيهم كما في قوله ﷻ: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

قال البغوي: "فإن قيل: فما معنى قوله: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ﴾ وإنما أخرجهم من ظهر آدم؟ قيل: إن الله أخرج ذرية آدم بعضهم من ظهور بعض، على نحو ما يتوالد الأبناء من الآباء في الترتيب، فاستغنى عن ذكر ظهر آدم لِمَا عُلم أنهم كلهم بنوه، وأخرجوا من ظهره".

وحاصل كلام السلف أن الله أخرج ذرية آدم من ظهره كيف شاء، وخاطبهم أنه ربهم، وأشهدهم على ذلك، فأقروا وشهدوا، ثم تابع ذلك بشهادة الفطرة وفق ذلك الميثاق، ثم بحجة العقل عند التمييز، وحجة الرسل عند البعث والإبلاغ.

قال البغوي: "فإن قيل: كيف تلزم الحجة على أحد لا يذكر الميثاق؟ قيل: قد أوضح الله الدلائل على وحدانيته، وصدق رسله فيما أَخبروا، فمن أنكره كان معاندًا ناقضًا للعهد، ولزمته الحجة، وبنسيانهم وعدم حفظهم لا يسقط الاحتجاج بعد إخبار المخبر الصادق صاحب المعجزة".

ومما يؤكد أيضًا دلالة الفطرة على التوحيد تجردها لله تعالى عند حلول الحوادث والمصائب، قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴾ (الإسراء: ٦٧]، وقال ﷻ: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾

[العنكبوت: ٦٥].

قال ابن عطية: "والمعنى في هذه الآية أن الكفار إنما يعتقدون في أصنامهم أنها شافعة، وأن لها فضلًا، وكل واحد منهم بالفطرة يعلم علمًا لا يقدر على مدافعته أن الأصنام لا فعل لها في الشدائد العظام. وقال في موضع آخر: ثم وقفهم الله تعالى على حالهم في البحر عند الخوف العظيم؛ فإن كل بشر ينسى كل صنم وغيره، ويتمسك بالدعاء والرغبة إلى الله ﷻ" انتهى كلامه.

ويشهد لهذا أيضًا خبر عكرمة بن أبي جهل مع أصحاب السفينة بعد فتح مكة، وهذه قصته، عن سعد قال: "لما كان يوم فتح مكة أمّن رسول الله ﷺ الناس إلا أربعة نفر وامرأتين، وقال: ((اقتلوهم وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة: عكرمة بن أبي جهل، وعبد الله بن خطل، ومَقِيس بن صُبابة، وعبد الله بن سعد بن أبي السَّرح)) فأما عبد الله بن خطل فأُدرك وهو متعلق بأستار الكعبة فاستبق إليه سعيد بن حريث، وعمار بن ياسر، فسبق سعيد عمارًا وكان أشبّ الرجلين فقتله.

وأما مَقِيس بن صُبابة فأدركه الناس في السوق فقتلوه، وأما عكرمة فركب البحر فأصابتهم عاصف فقال أصحاب السفينة: أخلصوا فإن آلهتكم لا تغني عنكم شيئًا ها هنا، فقال عكرمة: والله لئن لم ينجني من البحر إلا الإخلاص، لا ينجيني في البَرِّ غيرُه، اللهم إن لك عليّ عهدًا إن أنت عافيتني ممّا أنا فيه أن آتي محمدًا ﷺ حتى أضع يدي في يده فلأجدنّه عفوًا كريمًا، فجاء فأسلم.

وأما عبد الله بن سعد بن أبي السرح فإنه اختبأ عند عثمان بن عفان، فلما دعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة جاء به حتى أوقفه على النبي ﷺ قال: ((يا رسول الله، بايعْ عبدَ الله، قال: فرفع رأسه، فنظر إليه ثلاثًا، كلّ ذلك يأبى، فبايعه بعد ثلاث، ثمّ أقبل على أصحابه، فقال: أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حيث رآني كففتُ يدي عن بيعته، فيقتله؟ فقالوا: وما يدرينا يا رسولَ الله ما في نفسك، هلا أومأتَ إلينا بعينِك؟ قال: إنه لا ينبغي لنبي أن يكون له خائنة الأعين))" رواه النسائي والطحاوي في (مشكل الآثار) والبيهقي في (دلائل النبوة) وابن عساكر في (تاريخ دمشق) بتمامه، ورواه مختصرًا أبو داود والدارقطني والحاكم في (المستدرك) والبيهقي في (السنن الكبرى) وقال الحاكم: "صحيح على شرط مسلم" ووافقه الذهبي، ووافقهما الألباني كما في (السلسلة الصحيحة) وله شواهد عند البيهقي في (دلائل النبوة) وابن عساكر في (تاريخ دمشق).

وكون النفس فُطرت على الإقرار بالحق ومحبته، لا يعني مجرد القبول لذلك -كما سيأتي نقله عن القرطبي- بل المراد أنها مستلزمة ومقتضية لذلك.

قال القرطبي عند حديث: ((كل مولود يولد على الفطرة)): "وقد اختلف الناس في الفطرة المذكورة في هذا الحديث، وفي الآية. فقيل: هي سابقة السعادة

والشقاوة، وهذا إنما يليق بالفطرة المذكورة في القرآن؛ لأن الله تعالى قال: ﴿ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِ ﴾، وأما في الحديث فلا؛ لأنه قد أخبر في بقية الحديث بأنها تبدل وتغير، وقيل: هي ما أخذ عليهم من الميثاق، وهم في أصلاب آبائهم، وهذا إنما يليق بالرواية التي جاء فيها: ((كل مولود يولد على الفطرة))، ويبعد في رواية من رواه: ((على هذه الملة))، وهي إشارة إلى ملة الإسلام. وقال بظاهر هذه الرواية طائفة من المتأولين، وهذا القول أحسن ما قيل في ذلك إن شاء الله تعالى؛ لصحة هذه الرواية، ولأنها مبينة لرواية من قال: ((على الفطرة)).

ومعنى الحديث: إن الله تعالى خلق قلوب بني آدم مؤهلة لقبول الحق كما خلق أعينهم وأسماعهم قابلة للمرئيات والمسموعات، فما دامت باقية على ذلك القبول، وعلى تلك الأهلية أدركت الحق، ودين الإسلام هو الدين الحق". ففي قوله: مؤهلة لقبول الحق، نظر، بل هي مؤهلة لإدراكه كما عبر به بعد هذا، مستلزمة له.

قال ابن القيم: "ومما ينبغي أن يعلم أنه إذا قيل: إنه ولد على الفطرة، أو على الإسلام، أو على الملة، أو خلق حنيفًا، فليس المراد به أنه حين خرج من بطن أمه يعلم هذا الدين ويريده؛ فإن الله يقول: ﴿ وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾ [النحل: ٧٨]، ولكن فطرته موجبة مقتضية لدين الإسلام لقربه، فنفس الفطرة تستلزم الإقرارَ بخالقه، ومحبته، وإخلاص الدين له. وموجبات الفطرة ومقتضياتها تحصل شيئًا بعد شيء بحسب كمال الفطرة إذا سلمت من المعارض. وليس المراد أيضًا مجرد قبول الفطرة لذلك؛ فإن هذا القبول تغير بتهويد الأبوين وتنصيرهما بحيث يخرجان الفطرة عن قبولها.

وقال: الإقرار بالصانع مع خلو القلب عن محبته والخضوع له، وإخلاص الدين له لا يكون نافعًا، بل الإقرار به مع الإعراض عنه وعن محبته، وتعظيمه، والخضوع له أعظم استحقاقاً للعذاب. فلا بد أن يكون للفطرة مقتض للعلم ومقتض للمحبة، والمحبة مشروطة بالعلم؛ فإن ما لا يشعر به الإنسان لا يحبه. والحب للمحبوبات لا يكون بسبب من خارج، بل هو جبلي فطري، فإذا كانت المحبة جبلية فطرية، فشرطها وهو المعرفة أيضًا جبلي فطري.

فلا بد أن يكون في الفطرة محبة الخالق مع الإقرار به. وهذا أصل الحنيفية التي خلق الله خلقه عليها، وفطرته فطرهم عليها. فعلم أن الحنيفية من موجبات الفطرة ومقتضياتها. والحب لله والخضوع له والإخلاص هو أصل أعمال الحنيفية. وذلك مستلزم للإقرار والمعرفة. ولازم اللازم لازم، وملزوم الملزوم ملزوم. فالفطرة ملزومة لهذه الأحوال، وهذه الأحوال لازمة لها" انتهى كلامه.

دلالة الفطرة مشتملة على أنواع التوحيد الثلاثة: الربوبية، والألوهية، والأسماء والصفات، بالإجمال وبعض التفاصيل

ومما تجدر الإشارة إليه أن دلالة الفطرة مشتملة على أنواع التوحيد الثلاثة: الربوبية والألوهية والأسماء والصفات بالإجمال وبعض التفصيل، كما أن ما دل على توحيد الربوبية هو دليل أيضًا على توحيد الألوهية من باب اللزوم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وقول النبي ﷺ في الحديث الصحيح: ((كل مولود يولد على الفطرة))، وقوله فيما يروي عن ربه: ((خلقت عبادي حنفاء)) ونحو ذلك، لا يتضمن مجرد الإقرار بالصانع فقط، بل إقرار يتبعه عبودية لله بالحب والتعظيم وإخلاص الدين له، وهذا هو الحنيفية" انتهى كلامه.

وهذا كله مع جلائه ووضوحه وقوة أدلته ظهر في هذه الأمة من ألغى مطلقًا دلالة الفطرة على الحق، وقصروا الاعتبار في دلالة النظر العقلي فقط، بل قدموه حتى على السمع كما سيأتي بيانه في المبحث التالي.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "والله سبحانه فطر عباده على شيئين: إقرار قلوبهم به علمًا، وعلى محبته والخضوع له عملًا وعبادةً واستعانةً، فهم مفطورون على العلم به، والعمل له، وهو الإسلام الذي قال فيه النبي ﷺ: ((كل مولود يولد على الفطرة))، وفي رواية: ((على هذه الفطرة)). ثم قال: واعلم أن المتكلمين يحكون هذا القول عمن يذكرونه من أهل الحديث وأهل الكلام، لكن يزعمون أن الأكثرين على قولهم بأن الإقرار بالصانع نظري، ونقلهم ذلك بحسب ما يحكونه، كما نقل هذا الرازي عن أكثر أهل التوحيد إنكار أن يكون الله فوق العرش.

ونقل عن أكثر المسلمين إنكار النفس، وأنه لا يعاد إلى البدن، بل ذكر من نقل إجماع الصحابة على أن الله يفني جميع الأجساد، ولم يجزم بنفي ذلك، وأمثال هذه النقول التي ينقلونها بحسب ما عندهم. وأعجب من ذلك أن كثيرًا منهم يظن أن هذا مما لا خلاف فيه، بل القول بأن معرفة الله التي هي الإقرار بالصانع لا تحصل إلا بالنظر متفق عليه بين النظار، فإذا ذكر له أن في ذلك خلافًا بين أهل الكلام بعضهم مع بعض تعجب من ذلك، وذلك لأن من سلك طريقة من هذه الطرائق لا يكاد يعرف غيرها.

فلهذا تجد في كتب أهل الكلام مما يدل على غاية الجهل بما قاله الرسول والصحابة والتابعون وأئمة الإسلام، مما يوجب أن يقال: كأن هؤلاء نشئوا في غير ديار الإسلام، ولا ريب أنهم نشئوا بين من لم يعرف العلوم الإسلامية، حتى صار

المعروف عندهم منكرًا، والمنكر معروفًا، ولبسهم فتن رُبِّيَ فيها الصغير، وهرم فيها الكبير، وبدلت السنة بالبدعة والحق بالباطل، ولهذا أنا أنقل من مقالات كبارهم حكاية الخلاف في ذلك؛ ليستأنس بذلك من يعتمد على نقلهم، وإن كان في ذلك النقل من التحريف ما فيه" انتهى كلامه.

وبهذا يتبين مدى بعد منهج المخالفين في الاستدلال على تقرير التوحيد، حيث جعلوا أصل ذلك وأساسه الاستدلالات النظرية العقلية المبنية على المقدمات الفلسفية التي يلتبس عليهم فيها الحق بالباطل، كما تقدم بيانه.

ولهذا تجد بعضهم ينأى عن مبادئ هذا المنهج في الاستدلال، ويرجع في الجملة إلى ترجيح منهج السلف، وذلك كما فعل الشهرستاني عند كلامه على تقرير التوحيد حيث قال: "فإن الفطرة السليمة الإنسانية شهدت بضرورة فطرتها، وبديهة فكرتها على صانع حكيم، قادر عليم: ﴿ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [إبراهيم: ١٠]، ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [الزخرف: ٨٧]، ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الزخرف: ٩].

وإن هم غفلوا عن هذه الفطرة في حال السراء، فلا شك أنهم يلوذون إليه في حال الضراء: ﴿ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾، ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾، ولهذا لم يرد التكليف بمعرفة الصانع، وإنما ورد بمعرفة التوحيد، ونفي الشريك: ((أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله))، وهذا جعل محل النزاع بين الرسل وبين الخلق في التوحيد: ﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ﴾ [غافر: ١٢] الآية. ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ

ﱡﭐ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ ﱠ [الزمر: ٤٥]، ﱡﭐ وَإِذَا ذَكَرۡتَ رَبَّكَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِ وَحۡدَهُۥ وَلَّوۡاْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِمۡ نُفُورٗا ﱠ [الإسراء: ٤٦]" انتهى كلام الشهرستاني.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية بعد نقله كلام الشهرستاني: "فهذا كله كلام الشهرستاني، وهو من أئمة المتأخرين من النظار، وأخبرهم بالمقالات، وقد صرح بأن معرفة الله ليست معدودة من النظريات التي يقام عليها البرهان، وأن الفطرة تشهد ضرورتها وبديهة فكرتها بالصانع الحكيم" انتهى كلامه. والفطرة إذا لم ترتكز على دعامة العقل الصحيح، وتقيد بالشرع فلا اعتبار بها.

فالفطرة تدعو إلى التأله والتعبد، والنفس البشرية تحس بالحاجة إلى ذلك، ولكن قد تتجه في تألهها وتعبدها إلى غير الله تعالى، كما هو حال المشركين والوثنيين من البوذيين والهندوسيين ومشركي العرب ونحوهم.

فهؤلاء فطرتهم دلتهم على ضرورة التعبد عند الإطلاق، ولكنهم ضلوا عن سواء السبيل، وحادوا عن الطريق عند التعيين، أي: تعيين الإله الحق، الذي لا يستحق العبادة سواه. فالفطرة تدل على أمور مطلقة، تستلزم الإيمان بما جاءت به الرسل من عند الله تعالى، وتدل على الاهتداء لطريق الحق الذي دعت إليه الرسل -عليهم الصلاة والسلام.

نعم لو خليت الفطرة، وتجردت عن المؤثرات الخارجية، لاختارت الحق، ولاهتدت إليه، ولرجحته على الباطل من كل المعبودات سوى الله تعالى.

وقد أشار إلى سياق هذا الكلام ابن القيم في (شفاء العليل) حيث قال: "وهذا الذي أخبر به النبي ﷺ من أن كل مولود يولد على الفطرة الحنيفية، هو الذي تقوم الأدلة العقلية على صحته، وأنه كما أخبر به الصادق المصدوق، ومن خالف ذلك فقد غلط، وبيان ذلك من وجوه:

أحدها: أن الإنسان قد يحصل له من الاعتقادات والإرادات ما يكون حقًّا، وقد يحصل له منها ما يكون باطلًا؛ إذ اعتقاداته قد تكون مطابقة لمعتقدها، وهي الحق، والخبر عنها يسمى صدقًا، وقد تكون غير مطابقة، وهي الباطل، والخبر عنها يسمى كذبًا، والإرادات تنقسم إلى ما تكون نافعة له، متضمنة لمصلحته، ومرادها هو الخير والحُسْن، وإلى ما هو مضارة له مخالفة لمصلحته، ومرادها هو الشر والقبح.

وإذا كان الإنسان تارة يكون معتقدًا للحق، مريدًا للخير، وتارة يكون معتقدًا للباطل مريدًا للشر، فلا يخلو إما أن تكون نسبة نفسه الباطنة إلى النوعين نسبة واحدة، بحيث لا يكون فيها مرجحًا لأحدهما على الآخر، أو تكون نفسه مرجحة لأحد الأمرين على الآخر، فإن كان الأول، لزم أن لا يوجد أحد النوعين إلا بمرجح منفصل عنه، فإذا قدر رجحان أحدهما ترجح هذا، والآخر ترجح هذا، فأما أن يتكافأ المرجحان، أو يترجح أحدهما، فإن تكافآ لزم أن لا يحصل واحد منهما، وهو خلاف المعلوم بالضرورة.

فإنا نعلم أنه إذا عُرض على كل أحد أن يعتقد الحق ويصدق، وأن يريد ما ينفعه، وعرض عليه أن يعتقد الباطل ويكذب، ويريد ما يضره، مال بفطرته إلى الأُولى، ونفر عن الثاني، فعلم أن فطرة الإنسان قوة تقتضي اعتقاد الحق، وإرادة الخير، وحينئذ الإقرار بوجود فاطره وخالقه ومعرفته ومحبته والإيمان به وتعظيمه والإخلاص له، إما أن يكون من النوع الأول أو الثاني، وكونه من الثاني معلوم الفساد بالضرورة، فتعين أن يكون من الأول، وحينئذ فيجب أن يكون في الفطرة ما يقتضي محبته ومعرفته والإيمان به والتوسل إليه بمحابه.

الوجه الثاني: أن عبادته وحده بما يحبه، إما أن يكون أكمل للناس علمًا وقصدًا، أو الإشراك به أكمل، والثاني معلوم الفساد بالضرورة، فتعين الأول، وهو أن يكون في الفطرة مقتضٍ يقتضي توحيده وتألهه وتعظيمه.

الوجه الثالث: أن الحنيفية التي هي دين الله ولا دين له غيرها، إما أن تكون مع غيرها من الأديان متماثلين، أو الحنيفية أرجح، أو تكون مرجوحة، والأول والثالث باطلان قطعًا، فوجب أن يكون في الفطرة مرجح يرجح الحنيفية، وامتنع أن يكون نسبتها ونسبة غيرها من الأديان إلى الفطرة سواء.

الوجه الرابع: أنه إذا ثبت أن في الفطرة قوة تقتضي طلب معرفة الحق، وإيثاره على ما سواه، وأن ذلك حاصل مركوز فيها من غير تعلم الأبوين ولا غيرهما، بل لو فرض أن الإنسان تربى وحده ثم عقل وميز، لوجد نفسه مائلة إلى ذلك نافرة عن ضده، كما يجد الصبي عند أول تمييزه، يعلم أن الحادث لا بد له من محدث، فهو يلتفت إذا ضُرب من خلفه؛ ليعلم أن تلك الضربة لا بد لها من ضارب، فإذا شعر به بكى حتى يقتص له منه فيسكن، فقد ركز في فطرته الإقرار بالصانع وهو التوحيد، ومحبة القصاص وهو العدل.

وإذا ثبت ذلك ثبت أن نفس الفطرة مقتضية لمعرفته سبحانه ومحبته وإجلاله وتعظيمه والخضوع له، من غير تعليم، ولا دعاء إلى ذلك، وإن لم يكن فطرة كل أحد مستقلة بتحصيل ذلك، بل يحتاج كثير منهم إلى سبب مُعِين للفطرة مُقَوّ لها، وقد بينا أن هذا السبب لا يحدث في الفطرة ما لم يكن فيها، بل يعينها ويذكرها ويقويها، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين يدعون العباد إلى موجب هذه الفطرة، فإذا لم يحصل مانع يمنع الفطرة عن مقتضاها استجابت لدعوة الرسل ولا بد، بما فيها من المقتضي لذلك، كمن دعا جائعًا أو ظمآن إلى شراب

وطعام لذيذ نافع، لا تبعة فيه عليه، ولا يكلفه ثمنه، فإنه ما لم يحصل هناك مانع فإنه يجيبه ولا بد" انتهى كلامه.

ومن الأمور التي يجدر التنبيه إليها بمناسبة الكلام عن الفطرة، الأحوال التي قد تحصل في قلوب بعض الناس، يظنونها من مراتب الإيمان العالية التي اختصوا بها عن سائر المسلمين، وارتفعوا بها في درجات اليقين، وما هي إلا نزغات من الشيطان، وشطحات تهوي بهم في دركات الغيّ والضلال.

وذلك مثل ما يدعيه طوائف من الصوفية أنهم خواص الحضرة، وأهل الفناء، والوجد، والمكاشفة، والمشاهدة، ونحوها، حيث حَدَا الأمر ببعضهم أن اعتقد أن الولي أعظم من النبي!! لأن المعانيَ المجردةَ يأخذها عن الله بلا واسطة تخيل لشيء في نفسه، والنبي يأخذها بواسطة ما يتخيل في نفسه من الصور والأصوات. واشتهر من قولهم: حدثني قلبي عن ربي، هذا مقتضى الفطرة عندهم.

ولم يكفهم هذا البهتان حتى ادعوا أن جميع الأنبياء والرسل يستفيدون العلم بالله من مشكاة خاتم هؤلاء الأولياء الذي هو من أجهل الخلق بالله، وأبعدهم عن دين الله. والعلم بالله هو عندهم بأنه الموجود المطلق، الساري في الكائنات، فوجود كل موجود هو عين وجود واجب الوجود. كما سيأتي تفصيله عند الكلام عن الحلول والاتحاد.

وتخاطبهم الشياطين بأمر ونهي وكشف يظنونه من جهة الله، وأن الله هو الذي أمرهم ونهاهم، وأنه حصل لهم من المكاشفة ما حصل لأولياء الله المتقين، ويكون ذلك كله من الشياطين وهم لا يفرقون بين الأحوال الرحمانية والشيطانية؛ لأن الفرق مبني على شهود الفرق من جهة الرب -تبارك وتعالى- والتمييز بين الأمر الكوني، والأمر الشرعي، وعندهم لا فرق بين الأمور الحادثة

كلها من جهة الله تعالى، إنما هو مشيئة محضة تناولت الأشياء تناولًا واحدًا، فلا يحب شيئًا ولا يبغض شيئًا.

فيظنون أن من الأولياء من يسوغ له الخروج عن الشريعة النبوية، كما ساغ للخضر الخروج عن متابعة موسى، ولم يعلموا أن الخضر نبي، وشريعته مستقلة عن شريعة موسى ﷺ إذ كان في ذلك الوقت يُرسل النبي إلى قومه خاصةً، وظنوا أنه قد يكون للولي في المكاشفة والمخاطبة ما يستغني به عن متابعة الرسول في عموم أحواله أو بعضها.

قال ابن القيم في (مدارج السالكين): "فليس التحقيق الصحيح إلا المطابق لما عليه الأمر في نفسه، وهو في العلم الكشف المطابق لما أخبر به الرسل، وفي الإرادة الكشف المطابق لمراد الرب الديني من عبده، وقولنا: الديني، احتراز من مراده الكوني؛ فإن كل ما في الكون موجب هذه الإرادة.

فالكشف الصحيح أن يعرف الحق الذي بعث الله به رسله، وأنزل به كتبه، معاينة لقلبه ويجرد إرادة القلب له، فيدور معه وجودًا وعدمًا، هذا هو التحقيق الصحيح وما خالفه فغرور قبيح" انتهى كلامه.

والغرض في هذا المقام ليس شرح هذه الاصطلاحات، وبيان ما لها وما عليها؛ وإنما الغرض التنبيه إلى الضلال الذي شاب كثيرًا ممن يدعي التصوف والاعتدال من خلال هذه الألفاظ المجملة، المتعلقة بالجانب القلبي الغريزي الفطري.

ونختم هذا بكلام غاية في التحقيق والفائدة لشيخ الإسلام ابن تيمية، نبه على الفساد الذي طرأ على كثير ممن سلك طرقًا عقلية وفطرية باطلة في إثبات الصانع، قال: "وأما الإلهية الدهريون الذين يقولون بقدم العالم، وصدوره عن علة قديمة كابن سينا وأمثاله، فهؤلاء وإن كانوا مقرين بمبدع هذا العالم، فقولهم

مستلزم لقول أولئك المعطلة، وإن كانوا لا يلتزمون قولهم، وذلك أن الموجودات العقلية التي يثبتها هؤلاء من واجب الوجود، كالعقول العشرة هي عند التحقيق لا توجد إلا في الأذهان لا في الأعيان، والواحد المجرد الذي يقولون إنه يصدر عنه العالم، لا يوجد إلا في الأذهان لا في الأعيان، والوجود المطلق الذي يقولون إنه الوجود الواجب، إنما يوجد في الأذهان لا في الأعيان.

وأيضًا فهم يثبتون أنه لا بد في الوجود من موجود واجب، وهذا متفق عليه من العقلاء، سواء قالوا بقدم العالم أو بحدوثه، وسواء جحدوا الخالق أو أقروا، فإثبات موجود واجب بنفسه لا يتضمن الإقرار بالصانع، إن لم يثبت أنه مغاير للعالم، وقد بسطنا القول في غير هذا الموضع، وبينا أن الطريقة التي سلكها ابن سينا وأتباعه في إثبات الصانع، وفي إثبات واجب الوجود، هي أضعف الطرق وأقلها فائدة، وإن كان أتباعه -كالسهروردي المقتول، وكالرازي والآمدي وغيرهم- يعظمونها، فإن غايتها إثبات موجود واجب وهذا لا نزاع فيه، وإنما الشأن في كون الواجب مغايرًا لهذا العالم، وهم بنوا ذلك على طريقة نفي الصفات، وهي توحيدهم الذي بسطنا الكلام عليه في غير هذا الموضع، فإنهم ادعوا أن الوجود الواجب لا يكون إلا بسلوب الصفات؛ لأن إثباتها يقتضي التركيب، والواجب لا يكون مركبًا.

وقد تقدم التنبيه على ما في هذا الكلام من التلبيس والفساد. قالوا: والعالم حامل الصفات مركب فلا يكون واجبًا. وإذا كان إثباتهم لصانع العالم على طريقتهم لا يتم إلا بنفي الصفات، ونفيُ الصفات باطل كان طريقهم في إثبات الصانع باطلًا، ولهذا كان الصانع الذي يثبتونه لا حقيقة له إلا في الأذهان لا في الأعيان، فقولهم يستلزم التعطيل.

وهكذا أقوال من نسج على منوالهم، وأخذ معانيهم فأخرجها في قالب المكاشفة والمشاهدة والتحقيق والعرفان، كابن عربي وأمثاله، ومن سلك هذا المسلك كابن سبعين وغيره، فإن هؤلاء حقيقة قولهم تعطيل الصانع وأنه ليس وراء الأفلاك شيء، فلو عدمت السموات والأرض لم يكن ثَمَّ شيء موجود، ولهذا كان يصرح بذلك التلمساني، وهو كان أعرفهم بقولهم وأكملهم تحقيقًا له، ولهذا خرج إلى الإباحة والفجور، وكان لا يحرم الفواحش ولا المنكرات ولا الكفر ولا الفسوق ولا العصيان.

وكان يقول عن شيخه ابن عربي وصاحبه القونوي: أحدهما روحاني متفلسف يعني ابن عربي، والآخر فيلسوف متروحن يعني القونوي، وإنما حرر مذهب التحقيق أنا، يعني نفسه، وهو كما قال؛ فإن تحقيقهم الذي حقيقته التعطيل للصانع وجحده، وأنه ليس وراء العالم شيء لم يحققه أحدهما، كما حققه التلمساني. وهؤلاء كلهم يدّعون علم الحقيقة ويقولون: الحقيقة لون والشريعة لون آخر، ويجمعهم شيئان أن لهم تصرفًا وكشفًا خارجًا عن ما للعامة، وأنهم معرضون عن وزن ذلك بالكتاب والسنة وتحكيم الرسول في ذلك" انتهى كلامه.

(بيان المسائل المتعلقة بتوحيد الربوبية)

عناصر الدرس

موقف المشركين من توحيد الربوبية

تقدم فيما مضى بيان حقيقة توحيد الربوبية، والأدلة المتنوعة على إثبات ربوبية الله تعالى على خلقه. وهذا حقّ، وركن لا بد من تحقيقه في توحيد الله ﷻ ويخالف فيه المشركون الذين قاتلهم رسول الله ﷺ بل أقروا به في الجملة، كما دلّ على ذلك القرآن الكريم. قال الله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦١]. فهم لا يقدرون على المكابرة والعناد فيه لفرط وضوحه.

قال ابن كثير: "يقول تعالى مقررًا أنه لا إله إلا هو؛ لأن المشركين الذين يعبدون معه غيره معترفون بأنه المستقل بخلق السموات والأرض، والشمس والقمر، وتسخير الليل والنهار، وأنه الخالق الرازق لعباده، ومقدر آجالهم، واختلافها واختلاف أرزاقهم، فتفاوت بينهم فمنهم الغني والفقير، وهو العالم بما يصلح كلًّا منهم، ومن يستحق الغنى ممن يستحق الفقر، فذكر أنه المستقل بخلق الأشياء المنفرد بتدبيرها، فإذا كان الأمر كذلك فلِم يعبد غيره؟ ولِمَ يتوكل على غيره؟ فكما أنه الواحد في ملكه، فليكن الواحد في عبادته، وكثيرًا ما يقرر الله مقام الإلهية بالاعتراف بتوحيد الربوبية، وقد كان المشركون يعترفون بذلك كما كانوا يقولون في تلبيتهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريكًا هو لك، تملكه وما ملك".

وقال ﷻ: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ [الزخرف: ٨٧]، وقال: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [يونس: ٣١]

قال ابن كثير: "يحتج تعالى على المشركين باعترافهم بوحدانيته وربوبيته على وحدانية إلهيته".

وقال ﷻ: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾

[المؤمنون: ٨٤- ٨٩].

قال البغوي: "﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الرعد: ١٦]، أي: خالقهما ومدبرهما، فسيقولون الله، إنهم يقرون بأن الله خالقهم، وخالق السموات والأرض إذا أجابوه" انتهى كلامه.

والآيات في هذا كثيرة كلها تدل دلالة واضحة صريحة على إقرار الكفار واعترافهم بربوبية الله تعالى في الجملة. ولهذا يحتج به عليهم على توحيد إلهيته، وأنه لا ينبغي أن يعبد غيره، كما أنه لا خالق غيره، ولا رب سواه. ومن الآيات الدالة على هذا المعنى قول الله تعالى: ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٢]، وقد ورد عن مجاهد في تفسير هذه الآية أنها خاصة بأهل الكتابين اليهود والنصارى فقط، وليس الأمر كذلك بل هي شاملة لجميع المشركين من مشركي العرب، وأهل الكتاب، كما ورد ذلك عن جماعة من السلف.

قال أبو جعفر محمد بن جرير الطبري: "وأحسب أن الذي دعا مجاهدًا إلى هذا التأويل، وإضافته ذلك إلى أنه خطاب لأهل التوراة والإنجيل دون غيرهم، الظن منه بالعرب أنها لم تكن تعلم أن الله خالقها ورازقها بجحودها وحدانية ربها، وإشراكها معه في العبادة غيره، وإن ذلك لقول، ولكن الله -جل ثناؤه- قد أخبر

في كتابه عنها أنها كانت تقر بوحدانيته، غير أنها كانت تشرك في عبادته ما كانت تشرك فيها، فقال جل ثناؤه: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾، وقال: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [يونس: ٣١].

فالذي هو أولى بتأويل قوله: ﴿ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ إذ كان ما كان عند العرب من العلم بوحدانية الله، وأنه مبدع الخلق، وخالقهم ورازقهم، نظير الذي كان من ذلك عند أهل الكتابين، ولم يكن في الآية دلالة على أن الله جل ثناؤه عنى بقوله: ﴿ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أحد الحزبين، بل مخرج الخطاب بذلك عام للناس كافة لهم؛ لأنه تحدى الناس كلّهم بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ﴾ [البقرة: ٢١]، أن يكون تأويله ما قاله ابن عباس وقتادة: من أنه يعني بذلك كل مكلف عالم بوحدانية الله، وأنه لا شريك له في خلقه يشرك معه في عبادته غيره كائنًا من كان من الناس، عربيًّا كان أو أعجميًّا، كاتبًا أو أميًّا، وإن كان الخطاب لكفار أهل الكتاب الذين كانوا حوالي دار هجرة رسول الله ﷺ وأهل النفاق منهم، وممن بين ظهرانيهم ممن كان مشركًا، فانتقل إلى النفاق بمقدم رسول الله ﷺ".

بيان أن توحيد الربوبية لا يكفي وحده في الدخول في الإسلام، والأدلة على ذلك

تقدم الكلام فيما سبق أن المشركين الذين بعث إليهم رسول الله ﷺ كانوا مقرين في الجملة بتوحيد الربوبية، ومع ذلك لم يدخلهم ذلك في الإسلام، بل نابذهم رسول الله ﷺ وقاتلهم وأحلّ دماءهم وأموالهم، حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.

وعليه فليس المراد بالتوحيد مجرد توحيد الربوبية، وهو اعتقاد أن الله وحده خلق العالم، كما يظن ذلك من يظنه من أهل الكلام والمتصوفة. ويظن هؤلاء أنهم إذا أثبتوا ذلك بالدليل، فقد أثبتوا غاية التوحيد، وأنهم إذا شهدوا بهذا، وفنُوا فيه، فقد فنُوا في غاية التوحيد.

فإن الرجل لو أقر بما يستحقه الرب من الصفات، ونزهه عن كل ما يتنزه عنه، وأقر بأنه وحده خالق كل شيء، لم يكن موحدًا حتى يشهد أن لا إله إلا الله، فيقر بأن الله وحده هو الإله المستحق للعبادة، ولا يستحقها غيره، ويلتزم بعبادته تعالى وحده لا شريك له.

والإله: هو المألوه المعبود الذي يستحق العبادة، كما سيأتي تفصيله، وليس هو بمعنى: الخالق، أو القادر على الاختراع. فإذا فسر المفسر الإله بمعنى القادر على الاختراع، واعتقد أنّ هذا أخص وصف الإله، وجعل إثبات هذا هو الغاية في التوحيد؛ كما يفعل ذلك من يفعله من المتكلمين وغيرهم، لم يعرفوا حقيقة التوحيد الذي بعث الله به رسوله ﷺ فإن مشركي العرب كانوا مقرين بأن الله وحده خالق كلّ شيء، وكانوا مع ذلك مشركين.

قال تعالى: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٦]. قال طائفة من السلف: تسألهم من خلق السموات والأرض؟ فيقولون: الله، وهم مع هذا يعبدون غيره.

ويكثر في القرآن الكريم العظيم الاستدلال على الكفار باعترافهم بربوبيته ﷻ على وجوب توحيده في عبادته، ولذلك يخاطبهم في توحيد الربوبية باستفهام التقرير، فإذا أقروا بربوبيته احتج بها عليهم على أنه هو المستحق لأن يعبد وحده، ووبَّخهم منكرًا عليهم شركهم به غيره، مع اعترافهم بأنه الرب وحده؛

لأن من اعترف بأنه هو الرب وحده، لزمه الاعتراف بأنه هو المستحق لأن يعبد وحده.

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ ﴾ إلى قوله: ﴿ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ﴾، فلَّما أقروا بربوبيته، وبخهم منكرًا عليهم شركهم به غيرَه بقوله: ﴿ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾.

ومنها قوله: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾ [المؤمنون: ٨٤، ٨٥]، فلمَّا اعترفوا، وبخهم منكرًا عليهم شركهم بقوله: ﴿ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٨٥]، ثم قال: ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾ [المؤمنون: ٨٦، ٨٧]، فلما أقرُّوا، وبخهم منكرًا عليهم شركهم بقوله: ﴿ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [المؤمنون: ٨٧]، ثم قال: ﴿ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾ [المؤمنون: ٨٨، ٨٩]، فلما أقروا، وبخهم منكرًا عليهم شركهم بقوله: ﴿ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٨٩].

ومنها قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ﴾ [الرعد: ١٦]، فلما صح الاعتراف وبخهم منكرًا عليهم شركهم بقوله: ﴿ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ﴾ [الرعد: ١٦]. ومنها قوله ﷻ: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [الزخرف: ٨٧]، فلما صح إقرارهم وبخهم منكرًا عليهم بقوله: ﴿ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٧].

ومنها قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [العنكبوت: ٦١]، فلما صح اعترافهم وبَّخهم منكرًا عليهم شركهم بقوله: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ

﴿ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦١]، وقال -عز من قائل-: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [العنكبوت: ٦٣]، فلما صح إقرارهم وبخهم منكرًا عليهم شركهم بقوله: ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٣]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [لقمان: ٢٥].

فلما صح اعترافهم وبخهم منكرًا عليهم بقوله: ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [لقمان: ٢٥]، وقوله تعالى: ﴿ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٥٩ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ﴾ [النمل: ٥٩، ٦٠]، ولا شك أن الجواب الذي لا جواب لهم ألبتة غيره وهو أن القادر على خلق السَّموات والأرض وما ذكر معها خير من جماد لا يقدر على شيء، فلما تعين اعترافهم وبخهم منكرًا عليهم بقوله: ﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ [النمل: ٦٠].

ثم قال: ﴿ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ﴾ [النمل: ٦١]، ولا شك أن الجواب الذي لا جواب غيره كما قبله، فلما تعين اعترافهم وبخهم منكرًا عليهم بقوله: ﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [النمل: ٦١]، ثم قال ﷻ: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ﴾ [النمل: ٦٢]، ولا شك أن الجواب كما قبله، فلما تعين إقرارهم بذلك وبخهم منكرًا عليهم بقوله: ﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النمل: ٦٢]، ثم قال تعالى: ﴿ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ ﴾ [النمل: ٦٣].

ولا شك أن الجواب كما قبله، فلما تعين إقرارهم بذلك وبخهم منكرًا عليهم بقوله: ﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [النمل: ٦٣]، ثم قال ﷻ: ﴿ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [النمل: ٦٤]، ولا شك أن الجواب كما قبله، فلما تعين الاعتراف وبخهم منكرًا عليهم بقوله: ﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [النمل: ٦٤]. وقوله: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ ﴾ (الروم: ٤٠]، ولا شك أن الجواب الذي لا جوابَ لهم غيره هو لا، أي: ليس من شركائنا من يقدر على أن يفعل شيئًا من ذلك المذكور، من الخلق والرزق والإماتة والإحياء، فلما تعين اعترافهم وبخهم منكرًا عليهم بقوله: ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (الروم: ٤٠].

والآيات بنحو هذا كثيرة جدًّا، فكل الأسئلة المتعلِّقة بتوحيد الربوبية استفهامات تقرير، يراد منها أنهم إذا أقروا رتب لهم التوبيخ والإنكار على ذلك الإقرار؛ لأن المقر بالربوبية يلزمه الإقرار بالألوهية ضرورة، نحو قوله تعالى: ﴿ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ ﴾ [إبراهيم: ١٠]، وقوله: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا ﴾ [الأنعام: ١٦٤]، وإن زعم بعض العلماء أن هذا الاستفهام إنكار، لأن استقراء القرآن دل على أن الاستفهام المتعلِّق بالربوبية استفهام تقرير، وليس استفهام إنكار؛ لأنهم لا ينكرون الربوبية، كما رأيت كثرة الآيات الدالة عليه.

قال محمد الأمين الشنقيطي في (أضواء البيان): "وهذه الآيات القرآنية تدل على أن توحيد الربوبية لا ينقذ من الكفر، إلا إذا كان معه توحيد العبادة، أي: عبادة الله وحده لا شريك له، ويدل لذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٦].

وفي هذه الآية الكريمة إشكال، وهو أن المقرر في علم البلاغة، أن الحال قيد لعاملها، وصف لصاحبها، وعليه فإن عامل هذه الجملة الحالية، الذي هو (يؤمن) مقيد بها، فيصير المعنى تقييد إيمانهم بكونهم مشركين، وهو مشكل لما بين الإيمان والشرك من المنافاة.

قال: لم أرَ من شفى الغليل في هذا الإشكال، والذي يظهر لي والله تعالى أعلم، أن هذا الإيمان المقيد بحال الشرك، إنما هو إيمان لغوي، لا شرعي؛ لأن من يعبد مع الله غيره، لا يصدق عليه اسم الإيمان ألبتة شرعًا، أما الإيمان اللغوي فهو يشمل كل تصديق، فتصديق الكافر بأن الله هو الخالق الرازق، يصدق عليه اسم الإيمان لغة مع كفره بالله، ولا يصدق عليه اسم الإيمان شرعًا، وإذا حققت ذلك علمت أن الإيمان اللغوي يجامع الشرك فلا إشكال في تقييده به".

وقد يقال أيضًا في الجواب على ذلك، أن يكون أضيف إليهم الإيمان لا على الحقيقة، بل على حسب دعواهم، فجاراهم في اللفظ باعتبار ما ادعوا في الظاهر.

وبناء على هذه الأدلة فليس كل من أقر بأن الله رب كل شيء وخالقه، يكون عابدًا له دون ما سواه، داعيًا له دون ما سواه، راجيًا له، خائفًا منه دون ما سواه، يوالي له، ويعادي فيه، ويطيع رسله، ويأمر بما أمر به، وينهى عما نهى عنه.

وعامة المشركين أقروا بأن الله خالق كل شيء، وأثبتوا الشفعاء الذين يشركونهم به، وجعلوا له أندادًا. وفي القرآن الكريم آيات في ذلك الباب كثيرة كما سبق تفصيلها.

ولهذا كان من أتباع هؤلاء من يسجد للشمس والقمر والكواكب، ويدعوها، ويصوم، وينسك لها، ويتقرب إليها، ثم يقول: إن هذا ليس بشرك، وإنما

الشرك إذا اعتقدت أنها المدبرة، فإذا جعلتها سببًا وواسطة لم أكن مشركًا، ومن المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام أن هذا شرك.

قال سليمان بن عبد الله بعد تعريفه لتوحيد الربوبية: "وهذا التوحيد لا يكفي العبد في حصول الإسلام، بل لا بد أن يأتي مع ذلك بلازمه من توحيد الإلهية؛ لأن الله تعالى حكى عن المشركين أنهم مقرون بهذا التوحيد لله وحده" انتهى كلامه.

فذكر بعضًا من الآيات السابقة في التدليل على ذلك، ثم قال: "وقال تعالى: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النمل: ٦٢]، فهم كانوا يعلمون أن جميع ذلك لله وحده ولم يكونوا بذلك مسلمين بل قال تعالى: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٦]. قال مجاهد: في الآية إيمانهم بالله، قولهم: إن الله خلقنا ويرزقنا ويميتنا، فهذا إيمان مع شرك عبادتهم غيرَه. رواه ابن جرير وابن أبي حاتم.

وعن ابن عباس وعطاء والضحاك نحو ذلك، فتبين أن الكفار يعرفون الله ويعرفون ربوبيته وملكه وقهره، وكانوا مع ذلك يعبدونه ويخلصون له أنواعًا من العبادات، كالحج والصدقة والذبح والنذر والدعاء وقت الاضطرار ونحو ذلك، ويدّعون أنهم على ملة إبراهيم # فأنزل الله تعالى: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَـٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [آل عمران: ٦٧]، وبعضهم يؤمن بالبعث والحساب، وبعضهم يؤمن بالقدر، كما قال زهير بن أبي سلمى:

يُؤخَّرْ فَيُوضَعْ فِي كِتابٍ فيُدَّخَرْ ❖ لِيَوْمِ الحِسابِ أَوْ يُعَجَّلْ فيُنقَمِ

وقال عنترة:

يا عَبلُ أينَ من المَنيَّة ِ مَهْربي ❖ إن كانَ ربي في السَّماءِ قَضاها

ومثل هذا يوجد في أشعارهم، فوجب على كل مَن عقِلَ عن الله تعالى، أن ينظر ويبحث عن السبب الذي أوجب سفك دمائهم، وسبي نسائهم، وإباحة أموالهم، مع هذا الإقرار والمعرفة، وما ذاك إلا لإشراكهم في توحيد العبادة، الذي هو معنى كلمة التوحيد: لا إله إلا الله".

توحيد الربوبية أقر به أكثر الخلق في القديم والحديث، وبيان أن متظاهريه كانوا يتظاهرون بالإنكار، ولم يعرف عن أحد أنه قال: إن العالم له صانعان متماثلان في الصفات والأفعال

توحيد الربوبية أقر به أكثر الخلق في القديم والحديث، وبيان أن متظاهريه كانوا يتظاهرون بالإنكار، ولم يعرف عن أحد أنه قال: إن العالم له صانعان متماثلان في الصفات والأفعال:

وتوحيد الربوبية لم ينكره ولا ذهب إلى نقيضه طائفة معروفة من بني آدم، بل القلوب مفطورة على الإقرار به، أعظم من كونها مفطورة على الإقرار بغيره من الموجودات، كما قالت الرسل فيما حكى الله عنهم: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠].

وأشهر مَن عُرِفَ تجاهله، وتظاهره بإنكار الصانع، نمرود بن كنعان في عهد إبراهيم ﷺ وفرعون في عهد موسى ﷺ ولقد كانا مستيقنين به في الباطن -كما سيأتي تفصيله.

فلنبدأ بنمرود الذي حاجه إبراهيم ﷺ فأفحمه وأخرسه وأقام عليه الحجة الدامغة، وذلك كما حكى الله -تبارك وتعالى- الخبر في كتابه حيث قال: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

قال المفسرون وغيرهم من علماء النسب والأخبار: هذا المحاج هو مالك بابل، واسمه نمرود بن كنعان، ذكروا أنه استمر في ملكه أربعمائة سنة، وكان قد طغى وبغى، وتجبر وعتا، وآثر الحياة الدنيا، ولما دعاه الخليل إبراهيم ﷺ إلى عبادة الله وحده لا شريك له، حمله الجهل والضلال، وطول الآمال على إنكار الخالق جل وعلا، عنادًا ومكابرة، فحاج إبراهيمَ الخليلَ في ذلك، وادعى لنفسه الربوبية، فلما قال الخليل ﷺ: ﴿ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ﴾.

قال قتادة والسدي ومحمد بن إسحاق: "يعني: أنه إذا أتي بالرجلين قد تحتم قتلُهما، فإذا أمر بقتل أحدهما، وعفا عن الآخر، فكأنه قد أحيا هذا وأمات هذا الآخر". وهذا ليس بمعارضة للخليل ﷺ بل هو كلام خارجي عن مقام المناظرة، ليس بمنع ولا بمعارضة، بل هو تشغيب محض، وهو انقطاع في الحقيقة؛ فإن الخليل ﷺ استدل على وجود الخالق ﷻ بحدوث هذه المشاهدات، من إحياء الحيوانات وإماتتها على وجود فاعل ذلك، الذي لا بد من استنادها إليه في وجودها ضرورة؛ لعدم قيامها بأنفسها، ولا بد من فاعل لهذه الحوادث المشاهدة من خلقها، وتسخيرها وتسيير هذه الكواكب والرياح والسحاب والمطر، وخلق هذه الحيوانات التي توجد مشاهدة، ثم إماتتها.

ولهذا قال إبراهيم ﷺ: ﴿ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ ﴾، فقول هذا الجاهل: ﴿ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُ ﴾، إن عنى أنه الفاعل لهذه المشاهدات فقد كابر وعاند، وإن عنى ما ذكره قتادة والسدي ومحمد بن إسحاق، فلم يقل شيئًا يتعلق بكلام الخليل؛ إذ لم يمنع مستلزمًا، ولا عارض الدليل، ولما كان انقطاع مناظرة هذا المحاج قد تخفى على كثير من الناس ممن حضره وغيرهم، ذكر دليلًا آخر بين وجود الخالق، وبطلان ما ادعاه النمرود وانقطاعه جهرة.

﴿ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ ﴾ أي: هذه الشمس مسخرة كل يوم تطلع من المشرق، كما سخرها خالقها ومسيرها وقاهرها، وهو الله الذي لا إله إلا هو خالق كل شيء، فإن كنت كما زعمت أنك تحيي وتميت، فأت بهذه الشمس من المغرب فإن الذي يحيي ويميت هو الذي يفعل ما يشاء، ولا يمانع ولا يغالب، بل قد قهر كل شيء، ودان له كل شيء، فإن كنت كما تزعم فافعل هذا، فإن لم تفعله فلست كما زعمت، وأنت تعلم وكل أحد أنك لا تقدر على شيء من هذا، بل أنت أعجز وأقل وأذل من أن تخلق بعوضة، أو تتصرف فيها فبين ضلاله وجهله، وكذبه فيما ادعاه، وبطلان ما سلكه وتبجح به عند جهلة قومه، ولم يبق له كلام يجيب الخليل ﷺ به، بل انقطع وسكت، ولهذا قال تعالى: ﴿ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

وهذه أيضًا قصة موسى مع فرعون كما أخبر الله -تبارك وتعالى- بها في كتابه. قال ﷻ: ﴿ قَالَ فِرۡعَوۡنُ وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ (٢٤) قَالَ لِمَنۡ حَوۡلَهُۥٓ أَلَا تَسۡتَمِعُونَ (٢٥) قَالَ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ (٢٦) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٞ (٢٧) قَالَ رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُمۡ

﴿ تَعۡقِلُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٣- ٢٨] يذكر تعالى ما كان بين موسى وفرعون من المقاولة والمحاجة والمناظرة، وما أقامه الكليم موسى على فرعون اللئيم من الحجة العقلية، ثم الحسية، وذلك أن فرعون -قبحه الله- أظهر جحد الخالق تبارك وتعالى، وزعم أنه الإله ﴿ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴾ [النازعات: ٢٣، ٢٤].

وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي ﴾ [القصص: ٣٨]، وهو في هذه المقالة معاند، يعلم أنه عبد مربوب، وأن الله هو الخالق البارئ المصور الإله الحق، كما قال تعالى: ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾ [النمل: ٤١]، ولهذا قال لموسى ﷺ على سبيل الإنكار لرسالته، وإظهار أنه ما ثم رب أرسله: ﴿ وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء: ٢٣]؛ لأنهما قالا له: إنا رسول رب العالمين، فكأنه يقول لهما: ومَن رب العالمين الذي تزعمان أنه أرسلكما وابتعثكما؟ فأجابه موسى قائلًا: ﴿ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآ ﴾ [الشعراء: ٢٤].

أي: خالق جميع ذلك ومالكه والمتصرف فيه، وإلهه لا شريك له، هو الله الذي خلق الأشياء كلها، العالمَ العلويَّ، وما فيه من الكواكب النيرات الثوابت والسيارات، والعالم السفلي، وما فيه من بحار وأنهار وقفار وجبال وأشجار وحيوانات ونبات وثمار، وما بين ذلك من الهواء والطير والسحاب المسخر والرياح والمطر، وما يحتوي عليه الجو وغير ذلك من المخلوقات، التي يعلم كل موقن أنها لم تحدث بأنفسها، ولا بد لها من موجد ومحدث وخالق، وهو الله الذي لا إله إلا هو رب العالمين، الجميع مذللون مسخرون وعبيد له، خاضعون ذليلون ﴿ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٢٤] أي: إن كانت لكم قلوب موقنة، وأبصار

نافذة، قال -أي: فرعون- لمن حوله من مرازبته وكبرائه ورؤساء دولته، على سبيل التهكم والتنقص والاستهزاء والتكذيب لموسى # فيما قاله: ﴿ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٥]، أي: ألا تعجبون من هذا في زعمه أن لكم إلهًا غيري؟ فقال لهم موسى: ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [الشعراء: ٢٦]، أي: هو الذي خلقكم والذين من قبلكم، من الآباء والأجداد والقرون السابقة في الآباد؛ فإن كل واحد يعلم أنه لم يخلق نفسه، ولا أبوه ولا أمه، ولم يحدث من غير محدِث، وإنما أوجده وخلقه رب العالمين.

وهذان المقامان هما المذكوران في قوله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣]، ومع هذا كله لم يستفق فرعون من رقدته، ولا نزع من ضلالته، بل استمر على طغيانه وعناده وكفرانه: ﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الشعراء: ٢٧]، أي: ليس له عقل في دعواه أن ثم ربًا غيري، قال -أي موسى- لأولئك الذين أوعز إليهم فرعون ما أوعز من الشُّبَه، فأجاب موسى # بقوله: ﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾.

أي: هو الذي جعل المشرق مشرقًا تطلع منه الكواكب، والمغرب مغربًا تغرب فيه الكواكب ثوابتها وسياراتها، مع هذا النظام الذي سخرها فيه وقدرها، وهو الله لا إله إلا هو خالق الظلام والضياء، ورب الأرض والسماء، رب الأولين والآخرين، خالق الشمس والقمر والكواكب السائرة، والثوابت الحائرة، خالق الليل بظلامه، والنهار بضيائه، والكل تحت قهره وتسخيره وتسييره سائرون، وكل في فلك يسبحون، يتعاقبون في سائر الأوقات ويدورون، فهو تعالى الخالق المالك المتصرف في خلقه بما يشاء، فإن كان هذا الذي يزعم أنه ربكم وإلهكم

صادقًا، فليعكس الأمر، وليجعل المشرق مغربًا والمغرب مشرقًا، والثابت سائرًا والسائر ثابتًا.

قام كما قال تعالى عن الذي حاج إبراهيم في ربه في الآية السابقة، ولما قامت الحجج على فرعون، وذهبت شبهه، وغُلب وانقطعت حجته، ولم يبق له قول سوى العناد، عدل إلى استعمال جاهه وقوته، وسلطانه وسطوته، واعتقد أن ذلك نافع له ونافذ في موسى # فقال وظن أنه ليس وراء هذا المقام مقال: ﴿ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴾ [الشعراء: ٢٩]، إلى آخر ما قص الله ﷻ عنه، حتى قصمه الله تعالى قاصم الجبابرة، وأخذه أخذ عزيز مقتدر.

ومن هؤلاء المنكرين الجاحدين لربوبية الله تعالى: الدهريون الذين يزعمون أن العالم يسير بنفسه، وهم الذين قال الله عنهم: ﴿ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ [الجاثية: ٢٤].

فكذبهم الله تعالى في زعمهم هذا، وبين أنهم لا علم لهم بذلك، وأنّ مصدرهم في ذلك الظن، وغاية حجة هؤلاء حين يُدْعَوْن إلى الحق ويسمعون آيات الله طلب إخراج آبائهم وإعادتهم، فرد الله عليهم في الآية التي بعد الآية السابقة بقوله: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الجاثية: ٢٥، ٢٦].

وهؤلاء الملحدون منهم، فوصفهم الله سبحانه بعدم العلم مرة أخرى. والعجب من هؤلاء كيف يغالطون أنفسهم، ويكابرون ويجحدون فطرتهم التي تقر بوجود الله تعالى، وأنه خالقهم وربهم، فينكرون ذلك، وينسبونه إلى غيره كفرًا وإلحادًا.

فمذهب هؤلاء الملاحدة أن جميع الموجودات وجدت بغير موجد، وجدت مصادفة من طبيعة عمياء، لا علم لها ولا قصد، ولا شيء من الشعور الإرادي، فلو قدرت المحالات والممتنعات بأوضح من هذا التصوير لتعذر، ولا يوجد أشد مكابرة ومعاندة للعقول من هذا القول الشنيع.

ولو أبصروا قليلًا لعلموا مدى تناقضهم في مقالتهم هذه، حيث وقعوا فيما فروا منه وجحدوا، وذلك أنهم أنكروا وجود الرب الخالق المدبر لهذا الكون، تعالى الله عن قولهم علوًا كبيرًا، ثم أثبتوه باسم الدهر، والطبيعة ونحوها.

وهؤلاء المنكرون الجاحدون لربوبية الله تعالى مهما حاولوا التظاهر بذلك، إلا أنهم في قرارة أنفسهم يشهدون ويقرون بأن الله ربهم وخالقهم، كما قال تعالى: ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [النمل: ١٤].

وأول هؤلاء فرعون، الذي كشف له موسى ﷺ عن حقيقته التي يخفيها ويجحدها، حيث قال له، كما أخبر الله في كتابه: ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾ [الإسراء: ١٠٢].

وقد سبق ذكر تفاصيل هذه المناظرة، فلما واجهه موسى بهذه الحجج والحقائق الدامغة -التي لا يستطيع المغالطة فيها- كانت إجابته لا تعدو الاستهتار والمكابرة، ولما ظهر عجزه لجأ إلى تهديد موسى بالسجن كما سبق، وذلك كما أخبر الله تعالى في قوله عنه: ﴿ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَـٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴾.

فكان فرعون يعلم ويتيقن أن الله ربه وخالقه، ولكن كبره وعناده وغروره، وما زين له الملأ من حوله، كلّ ذلك منعه من الإذعان للحق، وتمادى في طغيانه

وضلاله وإضلاله قومه، كما قال ﷻ: ﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴾ [الزخرف: ٥٤].

ولقد أظهر فرعون ما كان يجحده ويخفيه من الحق، حين عاين الحقيقة، وهي الموت، وأيقن بالهلاك، كما قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [يونس: ٩٠، ٩١].

ومثل فرعون كل الملاحدة والدهريين، فهم في قرارة أنفسهم يعترفون بأن الله ربهم وخالقهم، ولكنهم يغالطون ويكابرون في الحقيقة.

قال ابن أبي العز في (شرح الطحاوية): "وأشهر من عرف تجاهله وتظاهره بإنكار الصانع فرعون، وقد كان مستيقنًا به في الباطن، كما قال له موسى: ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ ﴾ وقال تعالى عنه وعن قومه: ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ ولهذا لما قال: ﴿ وَمَا رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾، على وجه الإنكار له تجاهل العارف، قال له موسى: ﴿ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾. (الشعراء: ٢٤- ٢٨].

وقد زعم طائفة أن فرعون سأل موسى مستفهمًا عن الماهية، وأن المسئول عنه لما لم تكن له ماهية، عجز موسى عن الجواب، وهذا غلط وإنما هذا استفهام إنكار وجحد، كما دل سائر آيات القرآن على أن فرعون كان جاحدًا لله نافيًا له، لم يكن مثبتًا له طالبًا للعلم بماهيته، فلهذا بين لهم موسى أنه معروف، وأن آياته ودلائل ربوبيته أظهر وأشهر من أن يسأل عنه بما هو، بل هو سبحانه أعرف

وأظهر وأبين من أن يجهل، بل معرفته مستقرة في الفطر، أعظم من معرفة كل معروف.

ولم يعرف عن أحد من الطوائف أنه قال: إن العالم له صانعان متماثلان في الصفات والأفعال، فإن الثنوية من المجوس والمانوية القائلين بالأصلين: النور، والظلمة، وأن العالم صدر عنهما، متفقون على أن النور خير من الظلمة، وهو الإله المحمود، وأن الظلمة شريرة مذمومة، وهم متنازعون في الظلمة، هل هي قديمة أو محدثة؟ فلم يثبتوا ربين متماثلين.

وأما النصارى القائلون بالتثليث، فإنهم لم يثبتوا للعالم ثلاثةَ أرباب ينفصل بعضهم عن بعض، بل متفقون على أن صانع العالم واحد، ويقولون باسم الابن والأب وروح القدس، إله واحد، وقولهم في التثليث متناقض في نفسه، وقولهم في الحلول أفسد منه، ولهذا كانوا مضطربين في فهمه، وفي التعبير عنه، لا يكاد واحد منهم يعبر عنه بمعنى معقول، ولا يكاد اثنان يتفقان على معنى واحد، فإنهم يقولون: هو واحد بالذات ثلاثة بالأقنوم، والأقانيم يفسرونها تارة بالخواص، وتارة بالصفات، وتارة بالأشخاص، وقد فطر الله العباد على فساد هذه الأقوال بعد التصور التام، وبالجملة فهم لا يقولون بإثبات خالقين متماثلين.

والمقصود هنا، أنه ليس في الطوائف من يثبت للعالم صانعين متماثلين، مع أن كثيرًا من أهل الكلام والنظر والفلسفة، تعبوا في إثبات هذا المطلوب وتقريره، ومنهم من اعترف بالعجز عن تقرير هذا بالعقل، وزعم أنه يُتلقى من السمع" انتهى كلامه.

(مسائل متعلقة بتوحيد الربوبية والألوهية)

عناصر الدرس

التلازم بين توحيد الربوبية والألوهية

اعلم أنه رغم الفروق الموجودة بين توحيد الربوبية والألوهية، تبقى الغاية واحدة بالنسبة لكليهما؛ حيث إنهما يتعلقان بمقصد واحد وهو الله -تبارك وتعالى.

فالربوبية والألوهية عبارتان تجتمعان في اللفظ فتفترقان في المعنى، وتفترقان في اللفظ فيجتمع معناهما في لفظ كلّ واحد من اللفظين المفترقين، أي يفترقان إذا ذكرا معًا، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١- ٣]، وكما يقال: رب العالمين، وإله العالمين وإله المرسلين.

ويجتمعان عند الانفراد كما في قوله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ [الحج: ٤٠]، وقوله: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا﴾ [الأنعام: ١٦٤]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ [فصلت: ٣٠]، وكما في قولهم: ﴿رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الكهف: ١٤]، وكما في قول القائل: من ربك؟ وقول الملكين في القبر: من ربك؟ ومعناه: من إلهك؟ لأن الربوبية التي أقر بها المشركون لا يمتحن بها أحد. فالربوبية في هذا ليست قسيمة للألوهية، كما تكون قسيمة لها عند الاقتران.

مثال ذلك: الفقير والمسكين، فإنهما نوعان قسيمان في قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠]. ونوع واحد في قول النبي ﷺ: ((افترض الله عليكم صدقة تؤخذ من أغنيائكم، فترد إلى فقرائكم)) رواه البخاري ومسلم.

ومثله أيضًا ما قد قيل في لفظ الإيمان والإسلام، حيث إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا. وعليه فإذا ذكر لفظ الربوبية مقترنًا بلفظ الألوهية يكونان قسيمين مفترقين في المعنى.

فتفسر الربوبية بما سبق ذكره من معانيها، حيث يكون المراد بها فعل الرب، كالخلق والرزق والإحياء والإماتة والملك والتدبير، ونحوها. وكذلك الألوهية، فتفسر بما سيأتي ذكره من معناها، حيث يكون المراد بها فعل العبد التعبدي الظاهر منه والباطن كالإخلاص والمحبة والخوف والرجاء والتوكل والإنابة والدعاء والاستغاثة والاستعانة، والذبح والنذر، والصلاة والصيام، ونحوها من أنواع العبادة.

فالربوبية مستلزمة للألوهية دالة عليها. والألوهية متضمنة للربوبية من جهة ومستلزمة لها من جهة أخرى.

وقد أشار ابن القيم إلى شيء من هذا المعنى فقال في كتابه الجليل (مدارج السالكين): "فاسم الله دال على جميع الأسماء الحسنى، والصفات العليا بالدلالات الثلاث؛ فإنه دال على إلهيته المتضمنة لثبوت صفات الإلهية له، مع نفي أضدادها عنه، وصفات الإلهية هي صفات الكمال، والمنزهة عن التشبيه والمثال، وعن العيوب والنقائص، ولهذا يضيف الله تعالى سائر الأسماء الحسنى إلى هذا الاسم العظيم، كقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، ويقال: الرحمن والرحيم والقدوس والسلام والعزيز والحكيم من أسماء الله، ولا يقال: الله من أسماء الرحمن، ولا من أسماء العزيز ونحوه، فعلم أن اسمه الله، مستلزم لجميع معاني الأسماء الحسنى، دال عليها بالإجمال، والأسماء الحسنى تفصيل وتبيين لصفات الإلهية التي اشتق منها اسم الله.

واسم الله دال على كونه مألوهًا معبودًا، تألهه الخلائق محبة وتعظيمًا وخضوعًا وفزعًا إليه في الحوائج والنوائب، وذلك مستلزم لكمال ربوبيته ورحمته، المتضمنين لكمال الملك والحمد، وإلهيته وربوبيته ورحمانيته وملكه مستلزم لجميع صفات كماله؛ إذ يستحيل ثبوت ذلك لمن ليس بحيّ ولا سميع ولا بصير ولا قادر ولا متكلم ولا فعال لما يريد ولا حكيم في أفعاله، وصفات الجلال والجمال أخص باسم الله، وصفات الفعل والقدرة والتفرد بالضر والنفع والعطاء والمنع ونفوذ المشيئة وكمال القوة وتدبير أمر الخليقة أخص باسم الرب" انتهى كلامه.

وأما بالنظر إلى الفروق الموجودة بين لفظ الربوبية والألوهية، فذلك يكون باعتبارات كثيرة:

أما باعتبار الاشتقاق: فلفظ الربوبية مشتق من اسم الله "الرب"، ولفظ الألوهية مشتق من لفظ "الإله". وأما باعتبار المتعلق: فالربوبية متعلقة بالأمور الكونية كالخلق والإحياء والإماتة والتدبير ونحوها، والألوهية متعلقة بالأمور الحكمية، كالأمر والنهي ونحوه.

وأما باعتبار شمول الإقرار: فالربوبية أقر بها جميع الخلق إلا من جحد وكابر، ولم يقروا بالألوهية، التي اختص بالإقرار بها المؤمنون. وأما باعتبار قيامها بالعبد: فالربوبية مدلول علمي، والألوهية مدلول قصدي عملي.

وأما باعتبار الدلالة: فالربوبية تستلزم توحيد الألوهية، وتوحيد الألوهية يتضمن توحيد الربوبية كما تقدم.

وأما باعتبار تأثير حكمها: فالربوبية لا تكفي في الدخول في الإسلام، والألوهية تُدخل صاحبها الإسلام؛ لتضمنها لتوحيد الربوبية.

وأما باعتبار التوحيد: فالربوبية متعلقة بأفعال الله كالخلق والتدبير والرزق ونحوه، والألوهية متعلقة بأفعال العباد كالإخلاص والخوف والرجاء والدعاء والصلاة والصيام ونحوها. هذا من حيث التفصيل، وإلا فكل هذه المعاني متداخلة فيما بينها. والله أعلم.

الإيمان بالربوبية هو المدخل إلى توحيد الألوهية

من مقاصد الإقرار بالربوبية أنه مقدمة لنتيجة حتمية هي الإقرار بتوحيد الألوهية، فإذا أقر العبد بأن الله ﷻ هو الرب المتفرد بالربوبية وخصائصها، وجب عليه حتمًا الإقرار بتفرد الله بالألوهية، فيجر له العبادات كلها، ولا يصرف منها شيئًا لغير الله تعالى؛ إذ إنه لا يصلح أن يُعْبَد إلا الرب السيد الخالق الرازق المالك المعطي المانع المدبر للأمر كله.

وكلّ ذلك ليس إلا لله ﷻ فوجب أن يكون هو المعبود وحده لا شريك له، الذي لا يصح أن يكون لأحد من خلقه شركة معه في أيّ شيء من العبادات على اختلاف صورها. ولهذا جرى القرآن في أسلوبه على ذكر آيات الربوبية، ثم الخلوص منها إلى الدعوة إلى توحيد الألوهية، فيجعل توحيد الربوبية مدخلًا لتوحيد العبادة، التي لا يستحقها بأنواعها جميعا سواه.

وعليه فكلما كمل العبد في توحيد الربوبية، كمل وزاد معه توحيد الألوهية، وهذا بين لمن تدبره وأيقنه. فكلما زاد إيمان العبد بقدرة الله تعالى، وأنه هو النافع الضار، وهو المقدر لكل ما يحصل للعبد من حسنة أو سيئة، كلما زاد ذلك في قلبه، زاد توكله على الله ﷻ وصبره واحتسابه، وزاد توجهه إلى الله بالاستعانة

والاستغاثة والدعاء، وزاد رجاؤه فيه أن يناله شيء من نفعه، وقوي خوفه منه أن يفوته شيء من ذلك، أو يصيبه الضر حيث لا كاشف له إلا الله.

وأيضًا فكلما زاد علمه ويقينه بجلال الله وعظمته، زاد في تعظيمه وإقباله إلى طاعته وعبادته. وكلما نظر إلى ملكه وأيقن برزقه، زاد في التوكل عليه، وسؤاله حاجاته، والرضا به، وشكره وحمده. وهكذا الأمر في سائر ما يتعلق بربوبية الله تعالى، فلكل منها في تعبد العبد لربه، وتحقيق ألوهيته وحمده.

ولقد أبدع ابن القيم في (مدارج السالكين) في تقرير هذا الأصل العظيم فقال: "مشهد التوحيد: وهو أن يشهد انفراد الرب -تبارك وتعالى- بالخلق والحكم، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا تتحرك ذرة إلا بإذنه، وأن الخلق مقهورون تحت قبضته، وأنه ما من قلب إلا وهو بين إصبعين من أصابعه، إن شاء أن يقيمه أقامه، وإن شاء أن يزيغه أزاغه، فالقلوب بيده وهو مقلبها ومصرفها كيف شاء، وكيف أراد، وأنه هو الذي آتى نفوس المؤمنين تقواها، وهو الذي هداها وزكاها، وألهم نفوس الفجار فجورها وأشقاها، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، يهدي من يشاء بفضله ورحمته، ويضل من يشاء بعدله وحكمته، هذا فضله وعطاؤه وما فضل الكريم بممنون، وهذا عدله وقضاؤه لا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

قال ابن عباس { : "الإيمان بالقدر نظام التوحيد. فمن كذب بالقدر نقض تكذيبه توحيده، ومن آمن بالقدر صدق إيمانه توحيده".

وفي هذا المشهد يتحقق للعبد مقام: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ٥]، علمًا وحالًا، فيثبت قدم العبد في توحيد الربوبية، ثم يرقى منه صاعدًا إلى توحيد الإلهية، فإنه إذا تيقن أن الضر والنفع، والعطاء والمنع، والهدى والضلال،

والسعادة والشقاء، كل ذلك بيد الله لا بيد غيره، وأنه الذي يقلب القلوب ويصرفها كيف يشاء، وأنه لا موفَّق إلا من وفقه وأعانه، ولا مخذول إلا من خذله وأهانه وتخلى عنه، وأنّ أصح القلوب وأسلمَها وأقومها وأرقّها وأصفاها وأشدها وألينها، من اتخذه وحده إلهًا ومعبودًا، فكان أحب إليه من كل ما سواه، وأخوف عنده من كل ما سواه، وأرجى له من كل ما سواه، فتتقدم محبته في قلبه جميع المحاب، فتنساق المحاب تبعًا لها، كما ينساق الجيش تبعًا للسلطان، ويتقدم خوفه في قلبه جميع المخوفات، فتنساق المخاوف كلها تبعًا لخوفه، ويتقدم رجاؤه في قلبه جميع الرجاء، فينساق كل رجاء تبعًا لرجائه، فهذا علامة توحيد الإلهية في هذا القلب.

والباب الذي دخل إليه منه توحيد الربوبية، أي: باب توحيد الإلهية هو توحيد الربوبية؛ فإن أول ما يتعلق القلب يتعلق بتوحيد الربوبية، ثم يرتقي إلى توحيد الإلهية، كما يدعو الله -تبارك وتعالى- عباده في كتابه بهذا النوع من التوحيد إلى النوع الآخر، ويحتج عليهم به، ويقررهم به، ثم يخبر أنهم ينقضونه بشركهم به في الإلهية. وفي هذا المشهد يتحقق له مقام ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾، قال الله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٧] أي: فأين يصرفون عن شهادة أن لا إله إلا الله، وعن عبادته وحده، وهم يشهدون أنه لا رب غيره، ولا خالق سواه، وكذلك قوله: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٨٤، ٨٥]، فتعلمون أنه إذا كان هو وحده مالك الأرض ومن فيها، وخالقهم وربهم ومليكهم، فهو وحده إلههم ومعبودهم، فكما لا رب لهم غيره، فهكذا لا إله لهم سواه ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ

عَلَيْهِ ﴾ [المؤمنون: ٨٦- ٨٨] الآيات، وهكذا قوله -تبارك وتعالى-: ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ [النمل: ٥٩، ٦٠] إلى آخر الآيات.

يحتج عليهم بأن من فعل لهم هذا وحده، هو الإله لهم وحده، فإن كان معه رب فعل هذا فينبغي أن تعبدوه، وإن لم يكن معه رب فعل هذا فكيف تجعلون معه إلهًا آخر، ولهذا كان الصحيح من القولين في تقدير الآية، أإله مع الله فعل هذا، حتى يتم الدليل فلا بد من الجواب بلا، فإذا لم يكن معه إله فعل كفعله فكيف تعبدون آلهة أخرى سواه؟ فعلم أن إلهية ما سواه باطلة، كما أن ربوبية ما سواه باطلة بإقراركم وشهادتكم، ومن قال: المعنى هل مع الله إله آخر؟ من غير أن يكون المعنى فعل هذا؟ فقوله ضعيف لوجهين:

أحدهما: أنهم كانوا يقولون مع الله آلهة أخرى، ولا ينكرون ذلك.

الثاني: أنه لا يتم الدليل ولا يحصل إفحامهم، وإقامة الحجة عليهم، إلا بهذا التقدير، أي: فإذا كنتم تقولون إنه ليس معه إله آخر فعل مثل فعله، فكيف تجعلون معه إلهًا آخر لا يخلق شيئًا وهو عاجز.

وهذا كقوله: ﴿ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴾ [الرعد: ١٦]، وقوله: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ [لقمان: ١١]، وقوله: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ﴾ [النحل: ١٧]، وقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ [النحل: ٢٠]، وقوله: ﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ [الفرقان: ٣]،

وهو كثير في القرآن وبه تتم الحجة كما تبين. والمقصود أن العبد يحصل له في المشهد من مطالعة الجنايات والذنوب، وجريانها عليه وعلى الخليقة بتقدير العزيز الحكيم، وأنه لا عاصم من غضبه وأسباب سخطه إلا هو، ولا سبيل إلى طاعته إلا بمعونته، ولا وصول إلى مرضاته إلا بتوفيقه، فموارد الأمور كلها منه، ومصادرها إليه، وأزمة التوفيق جميعها بيديه، فلا مستعان للعباد إلا به، ولا متكل إلا عليه، كما قال شعيب خطيب الأنبياء: ﴿ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [هود: ٨٨]" انتهى كلامه.

فتوحيد الإثبات الذي من ضمنه توحيد الربوبية، هو أعظم حجة على توحيد الطلب والقصد الذي هو توحيد الإلهية، وبه احتج الله -تبارك وتعالى- في كتابه في غير موضع على وجوب إفراده تعالى بالإلهية؛ لتلازم التوحيدين؛ فإنه لا يكون إلهًا مستحقًّا للعبادة، إلا من كان خالقًا رازقًا مالكًا متصرفًا مدبرًا لجميع الأمور حيًا قيومًا سميعًا بصيرًا عليمًا حكيمًا، موصوفًا بكل كمال، منزهًا عن كل نقص غنيًّا عما سواه، مفتقرًا إليه كل ما عداه، فاعلًا مختارًا، لا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه، ولا يعجزه شيء في السماء ولا في الأرض، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، ولا تخفى عليه خافية.

وهذه صفات الله ﷻ لا تنبغي إلا له، و لا يشركه فيها غيره، فكذلك لا يستحق العبادة إلا هو، ولا تجوز لغيره، فحيث كان متفردًا بالخلق والإنشاء والبدء والإعادة، لا يشركه في ذلك أحد، وجب إفراده بالعبادة دون من سواه لا يشرك معه في عبادته أحد، كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْۖ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١، ٢٢].

وغير ذلك من الآيات التي يقرر الله -تبارك وتعالى- فيها ربوبيته، ويمتن بنعمه وتفرده بأنواع التصرفات، وعباد الأوثان يقرون بها لله ﷻ ويقرون بأن أوثانهم التي يدعون من دونه مخلوقة، لا تملك لأنفسها ولا لعابديها ضرًّا ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، ولا تسمع ولا تبصر، ولا تغني عنهم شيئًا، ويقرون أن الله هو المتفرد بالخلق والرزق والضر والنفع والتقدير والتدبير، وأنواع التصرفات، ليس إليهم ولا إلى أوثانهم من ذلك شيء، بل هو الخالق وما عداه مخلوق، وهو الرب وما عداه مربوب، غير أنهم جعلوا له من خلقه شركاء، سووهم به في استحقاق العبادة، وأنكروا أن يكون تفرد بها، وقالوا لمن قال لا إله إلا الله: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص: ٥].

فألزمهم الله تعالى بما أقروا به من التفرد بالربوبية، أن يعملوا بمقتضى ذلك، ويلتزموا لازمه من توحيد الإلهية، وأن يكفروا بما اتخذوا من دونه، كما أقروا بعجزهم وعدم اتصافهم بشيء يستحقون به العبادة، بل هم أقل وأذل وأحقر وأعجز عن أن يخلقوا ذبابًا أو يستنقذوا منه شيئًا سلبه.

وقوع الشرك في الربوبية

وتوحيد الربوبية مع ظهوره وضرورة العلم به، بل وارتكازه في فطرة بني آدم، فقد برز من أنكره عنادًا وجحودًا ومكابرة كما تقدم تفصيله. والشرك بالله تعالى وإن كان عامته في الألوهية، فقد برز من يشرك بالله تعالى في ربوبيته، فأشرك معه غيره في الخلق والتدبير ونحوه.

ومن أشهر هؤلاء الثنوية من المجوس والمناوية، حيث قالوا: إن مدبر العالم هو النور والظلمة. وقالوا أيضًا: إن خالق العالم هو النور والظلمة. وإلى إبطال هذا

المعتقد الفاسد الإشارة بقول الله ﷻ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١].

قال ابن عطية في تفسيره (المحرر الوجيز): "وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ﴾ دالة على قبح فعل الذين كفروا؛ لأن المعنى: أن خلقه السموات والأرض وغيرهما قد تقرر، وآياته قد سطعت، وإنعامه بذلك قد تبين، ثم بعد ذلك كله عدلوا بربهم، فهذا كما تقول: يا فلان أعطيتك، وأكرمتك، وأحسنت إليك، ثم تشتمني، أي: بعد مهلة من وقوع هذا كله، ولو وقع العطف في هذا ونحوه بالواو، لم يلزم التوبيخ كلزومه بثم، ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ في هذا الموضع هم كل من عبد شيئًا سوى الله، قال قتادة: هم أهل الشرك صراحة، ومن خصص من المفسرين في ذلك بعضًا دون بعض فلم يصب، إلا أن السابق من حال النبي ﷺ أن الإشارة إلى عبدة الأوثان من العرب لمجاورتهم له، ولفظ الآية أيضًا يشير إلى المانوية، ويقال: المانية، العابدين للنور، القائلين: إن الخير من فعل النور، والشر من فعل الظلام".

وهذا الذي ذكروه عن المانوية قد فصله الملطي في كتابه (التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع) فقال: "المانوية يزعمون أن إلهين وخالقين: خالق للخير والنور والضياء، وخالق للشر والظلمة والبلاء، نزهوا الله، وزعموا أنه لم يخلق الظلمة والبلاء والهوام والسباع، فجعلوا معه لما نزهوه شريكًا خلق هذه الأشياء، وزعموا أن الله تعالى خلق الروح الجاري في الجسد، فقالوا: ألا ترى الروح إذا فارق الجسد أنتن، وأن الخالق الآخر عندهم خلق الجسد، والله لا يخلق نتنًا ولا قذرًا، فجعلوا للخلق كلهم خالقين تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا، وإنما سموا مانية؛ لأن رجلًا كان يقال له: ماني، زعموا أنه نبيهم، وكان في زمن الأكاسرة

فقتله بعضهم، وقد قال الله ﷻ في كتابه: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [المؤمنون: ٩١]، فهذان شاهدان".

قال محمد صديق حسن خان في كتابه (الدين الخالص): "الشرك بالله تعالى في الربوبية كشرك من جعل معه خالقًا آخر، كالمجوس وغيرهم الذين يقولون بأن للعالم ربين، أحدهما: خالق النور، والآخر: خالق الشر، وكالفلاسفة، ومن تبعهم الذين يقولون بأنه لم يصدر عنه إلا واحد بسيط، وأن مصدر هذا العالم عن العقل الفعّال، فهو رب كل ما تحته، ومدبره. وهذا أشد من عباد الأصنام، والمجوس، والنصارى، وهو أخبث شرك في العالم؛ إذ يتضمن من التعطيل، وجحد الإلهية، والربوبية، وإسناد الخلق إلى غيره سبحانه ما لم يتضمنه شرك أمة من الأمم.

وشرك القدرية مختصر من هذا المطول، وباب يدخل منه إليه. ولهذا شبههم الصحابة } بالمجوس كما ثبت عن ابن عمر، وابن عباس } وقد روى أهل السنن فيهم ذلك مرفوعًا: ((إنهم مجوس هذه الأمة)) والحديث حسن كما قرره بعض العلماء.

ومع إشراكهم هذا في الربوبية غير أنهم لم يسووا بين الظلمة والنور في كل شيء، بل جعلوا أحدهما أفضل وأرجح من الآخر، كما فصل ذلك عنهم ابن أبي العز في (شرح العقيدة الطحاوية) بقوله: "ولم يعرف عن أحد من الطوائف أنه قال: إن العالم له صانعان متماثلان في الصفات والأفعال؛ فإن الثنوية من المجوس، والمانوية -القائلين بالأصلين: النور، والظلمة، وأن العالم صَدَرَ عنهما- متفقون

على أن النور خير من الظلمة، وهو الإله المحمود، وأن الظلمة شريرة مذمومة، وهم متنازعون في الظلمة هل هي قديمة أو محدثة، فلم يثبتوا ربين متماثلين.

وأما النصارى القائلون بالتثليث، فإنهم لم يثبتوا للعالم ثلاثة أرباب ينفصل بعضهم عن بعض، بل متفقون على أن صانع العالم واحد، ويقولون باسم الابن والأب وروح القدس إله واحد، وقولهم في التثليث متناقض في نفسه، وقولهم في الحلول أفسد منه، ولهذا كانوا مضطربين في فهمه وفي التعبير عنه، لا يكاد واحد منهم يعبر عنه بمعنى معقول، ولا يكاد اثنان يتفقان على معنى واحد، فإنهم يقولون هو واحد بالذات ثلاثة بالأقنوم، والأقانيم يفسرونها تارة بالخواص، وتارة بالصفات، وتارة بالأشخاص، وقد فطر الله العباد على فساد هذه الأقوال بعد التصور التام. وبالجملة فهم لا يقولون بإثبات خالقين متماثلين، والمقصود هنا أنه ليس في الطوائف من يثبت للعالم صانعين متماثلين"، انتهى كلامه.

وقد تقدم نقل هذا الكلام عن ابن أبي العز، ولكن أعدته لأهميته هنا، وفائدته.

وقد يظهر هذا النوع من الشرك في عباد القبور في زماننا وقبل زماننا، وبعض منتسبي الصوفية، وغيرهم من تعظيم بعض الأشخاص، ويعتقدون فيهم من صفات الربوبية، وأنهم متصرفون فيما لا يقدر عليه إلا الله، وغلا بعضهم حتى جعل منهم المتصرف في تدبير الكون على سبيل الاستقلال، ويقولون فيه: إنها لا تتحرك ذرة ولا تسكن إلا بإذن فلان، تعالى الله وتقدس، وجلّ وعلا عن أن يكون معه إله غيره، أو يكون له شريك في الملك، أو ولي من الذل.

وهؤلاء يعتقدون فيمن يعظمونهم من ملك أو نبي أو ولي أو قبر أو شجر أو حجر أو كوكب أو جني أو غير ذلك، ويلجئون إليهم، ويطلبونهم حاجاتهم،

يعتقدون أن لهم سلطانًا غيبيًّا فوق طوق البشر، ويفزعون إليهم في قضاء أيّ حاجة من شفاء مريض، أو ردّ غائب، أو إغناء محتاج أو فقير، أو غير ذلك، فيرى أنه يسمعه إذا دعاه، ويرى مكانه، ويعلم حاجته، ويقضيها بقدرة اعتقدها فيه مع الله.

والمقصود أنه يثبت له من صفات الربوبية ما يرفعه عن درجة العبودية إلى درجة المعبودية، ويجعله مستحقًّا العبادة مع الله.

ومن هنا يتبين أن الشرك في الألوهية يستلزم الشرك في الربوبية والأسماء والصفات ولا بد، ويتبين عظم ذنب الشرك، وأنه أقبح الذنوب، وأظلم الظلم، وأكبر الكبائر، وأن الله لا يغفره ولا يقبل لأحد معه عملًا، وأنه لا أشد هلكة منه، وما أرسل الله الرسل، وأنزل الكتب إلا بالنذارة عن الشرك، والدعوة إلى التوحيد، وما هلكت الأمم الغابرة، وأعدت لها النيران إلا بالشرك والإباء عن التوحيد، ولا نَجَا الرسل وأتباعهم من خزي الدنيا وعذاب الآخرة إلا بالتزام التوحيد، والبراءة من الشرك.

(إشراك أهل الحلول والاتحاد بربوبية الله تعالى (١))

عناصر الدرس

بيان معتقد أهل دعوة الحلول والاتحاد

دائمًا في سياق الكلام على الأمور المتعلقة بتوحيد الربوبية، وبعد الكلام على الشرك المتعلق بالربوبية، لا بد من ذكر طائفة من أهل الإلحاد في ربوبية الله ﷻ ممن ضلوا وأضلوا، وزاغوا عن سواء السبيل، ألا وهم أهل الحلول والاتحاد.

والقول بالحلول والاتحاد عند الاستقراء يحصل منه أربعة مذاهب، وهي: الحلول العام، والحلول الخاص، والاتحاد العام، والاتحاد الخاص، وهي كالأنواع لهذه المقالة الشنيعة. وذلك لأن من جعل الرب هو العبد حقيقة فإما أن يقول بحلوله فيه، أو اتحاده فيه، وعلى التقديرين فإما أن يجعل ذلك مختصًّا ببعض الخلق كالمسيح، أو يجعله عامًّا لجميع الخلق.

الرد على أهل الحلول والاعتقاد، وبيان فساد معتقدهم بالنقل والعقل

فهذه أربعة أقسام، ولكن في النهاية يجمع هذه الأربعةَ نوعان:

النوع الأول: من يقول بذلك مطلقًا، كما هو مذهب صاحب (الفصوص) ابن عربي، وأمثاله مثل ابن سبعين وابن الفارض والقونوي والشتري والتلمساني وأمثالهم، ممن يقول: إن الوجود واحد، ويقولون: إن وجود المخلوق هو وجود الخالق، لا يثبتون موجودين خلق أحدهما الآخر، بل يقولون: الخالق هو المخلوق، والمخلوق هو الخالق. ويقولون: إن وجود الأصنام هو وجود الله، وإن عباد الأصنام ما عبدوا شيئًا إلا الله.

ويقولون: إن الحق يوصف بجميع ما يوصف به المخلوق من صفات النقص والذم، ويقولون: إن عباد العجل ما عبدوا إلا الله، وإن موسى أنكر على هارون لكون هارون أنكر عليهم عبادة العجل، وإن موسى كان بزعمهم من العارفين، الذين يرون الحق في كل شيء، بل يرونه عين كل شيء، وعليه يقولون: إن فرعون كان صادقًا في قوله: أنا ربكم الأعلى، بل هو عين الحق، ونحو ذلك مما يقوله صاحب (الفصوص) تعالى الله عما يقول علوًّا كبيرًا.

ويقول أعظم محققيهم: إن القرآن كلَّه شرك؛ لأنه فرق بين الرب والعبد، وليس التوحيد إلا في كلامنا. فقيل له: فإذا كان الوجود واحدًا، فلم كانت الزوجة حلالًا والأم حرامًا؟ فقال: الكل عندنا واحد، ولكن هؤلاء المحجوبون قالوا: حرام، فقلنا: حرام عليكم. وكذلك ما في شعر ابن الفارض في قصيدته التي سماها "نظم السلوك" كقوله:

لها صلواتي بالمقام أقيمها ❖ وأشهد فيها أنها لي صلت
كلانا مصل واحد ساجد إلى ❖ حقيقته بالجمع في كل سجدة
وما كان لي صلى سواي ولم تكن ❖ صلاتي لغيري في أدا كل سجدة

وقوله أيضًا:

وما زلت إياها وإياي لم تزل ❖ ولا فرق بل ذاتي لذاتي أحبت

وقوله أيضًا:

إليَّ رسولًا كنتَ مني مرسَلًا ❖ وذاتي بآياتي عليَّ استدلتِ

فأقوال هؤلاء ونحوها باطنها أعظم كفرًا وإلحادًا من ظاهرها؛ فإنه قد يظن أن ظاهرها من جنس كلام الشيوخ العارفين أهل التحقيق والتوحيد، وأما باطنها فإنه أعظم كفرًا وكذبًا وجهلًا من كلام اليهود والنصارى وعباد الأصنام.

ولهذا فإن كل من كان منهم أعرف بباطن المذهب وحقيقته، كان أعظم كفرًا وفسقًا كالتلمساني؛ فإنه كان من أعرف هؤلاء بهذا المذهب، وأخبرهم بحقيقته، فأخرجه ذلك إلى الفعل، فكان يعظم اليهود والنصارى والمشركين، ويستحل المحرمات، ويصنف للنصيرية كُتبًا على مذهبهم يقرهم فيها على عقيدتهم الشركية.

وكذلك ابن سبعين كان من أئمة هؤلاء، وكان له من الكفر والسحر الذي يسمى السِّيمياء، والموافقة للنصارى والقرامطة والرافضة ما يناسب أصوله. فكل من كان أخبر بباطن هذا المذهب وافقهم عليه، كان أظهر كفرًا وإلحادًا.

وأما الجهال الذين يحسنون الظن بقول هؤلاء ولا يفهمونه، ويعتقدون أنه من جنس كلام المشايخ العارفين، الذين يتكلمون بكلام صحيح لا يفهمه كثير من الناس، فهؤلاء تجد فيهم إسلامًا وإيمانًا، ومتابعة للكتاب والسنة بحسب إيمانهم التقليدي، وتجد فيهم إقرارًا لهؤلاء، وإحسانًا للظن بهم، وتسليمًا لهم بحسب جهلهم وضلالهم، ولا يتصور أن يثني على هؤلاء إلا كافر ملحد، أو جاهل ضال.

وهؤلاء من جنس الجهمية الذين يقولون: إن الله بذاته حال في كل مكان، ولكن أهل وحدة الوجود حققوا هذا المذهب أعظم من تحقيق غيرهم من الجهمية.

النوع الثاني: هو قول من يقول بالحلول والاتحاد في معين، كالنصارى الذين قالوا بذلك في المسيح عيسى # والغالية الذين يقولون بذلك في علي بن أبي طالب > وطائفةٍ من أهل بيته، والحاكميةِ الذين يقولون بذلك في الحاكم، والحلاجيةِ الذين يقولون بذلك في الحلاج، واليونسية الذين يقولون بذلك في

يونس، وأمثالِ هؤلاء ممن يقول بإلهية بعض البشر، وبالحلول والاتحاد فيه، ولا يجعل ذلك مطلقًا في كل شيء.

ومن هؤلاء من يقول بذلك في بعض النسوان والمردان، أو بعض الملوك أو غيرهم، فهؤلاء كفرهم شر من كفر النصارى الذين قالوا: إن الله هو المسيح ابن مريم. وأما الأولون فيقولون بالإطلاق، ويقولون: النصارى إنما كفروا بالتخصيص.

وأقوال هؤلاء شر من أقوال النصارى، وفيها من التناقض من جنس ما في أقوال النصارى، ولهذا يقولون بالحلول تارة، وبالاتحاد تارة أخرى، وبالوحدة تارة، فإنه مذهب متناقض في نفسه ولهذا يلبسون على من لم يفهمه فهذا كله كفر باطنًا وظاهرًا بإجماع كل مسلم.

مِن ضلالهم اعتقادهم أن الوجود واحد، وأن الوجود الواجب هو عين الوجود الممكن، والقول بأن المعدوم شيء، وأعيان المعدومات ثابتة في العدم، ووجود الحق فاض عليها، فوجود كل شيء هو عين وجود الحق عندهم، ولهذا قال قائلهم:

الرب حق والعبد حق يا ❖ ليت شعري من المكلف
إن قلت عبد فذاك ميت ❖ أو قلت رب أنى يكلف

وقال في موضع آخر: "إن قلت عبد فذاك نفي"، بدل قوله: ميت، وذلك لأن العبد ليس له عنده وجود مخلوق.

ومن أقواله في فرعون أنه لما تسلط في وقته بالسيف، وكان صاحب الحكم، وأنه الخليفة بالقوة والقهر قال: أنا ربكم الأعلى، أي: وإن كان الكلّ أربابًا بنسبة ما، فأنا الأعلى منهم، بما أعطيته في الظاهر من الحكم فيكم، ولمّا علمت

السحرة صدقه فيما قال، لم ينكروه، وأقروا له بذلك، فقالوا له: اقض ما أنت قاض، إنما تقضي هذه الحياة الدنيا، والدولة لك، فصح قول فرعون: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]. وإن كان عين الحق.

وقال ابن عربي أيضًا: "ومن أسمائه الحسنى العلي؛ على من؟ وما ثم إلا هو؛ وعن ماذا، وما هو إلا هو... إلى قوله: ومن عرف ما قررناه في الأعداد، وأن نفيها عين إثباتها، علم أن الحق المنزه هو الخلق المشبه، فالآمر الخالق المخلوق، والأمر المخلوق هو الخالق، كل ذلك من عين واحدة، لا بل هو العين الواحدة.

وقال: ألا ترى أن الحق يظهر بصفات الخلق، فكل صفات الحق حق له، كما أن صفات المحدثات حق للخالق" وغير ذلك من أقواله الشنيعة الباطلة الإلحادية.

وهذا الرجل له تدرج في الباطل والتلبيس على الناس نحو مسلك القرامطة إلى أن يصل إلى جعل هذا الوجود هو وجود كل موجود، فليس عنده وجودان: أحدهما واجب، والآخر ممكن، ولا أحدهما خالق والآخر مخلوق؛ بل عين الوجود الواجب هو عين الوجود الممكن، مع تعدد المراتب، والمراتب عنده هي الأعيان الثابتة في العدم، على زعم من يقول: إن المعدوم شيء، وهذا أصل ضلالهم، ولا ريب أن من جعل المعدوم شيئًا ثابتًا في الخارج عن الذهن، فقوله باطل ببديهة العقول.

وأولئك يقولون: إن الخالق جعل لهذه الأعيان وجودًا مخلوقًا، وابن عربي يقول: بل نفس وجوده فاض عليها، فهي مفتقرة إليه في وجوده، وهو مفتقر إلى ثبوتها؛ ولهذا قال: "فيعبدني وأعبده، ويحمدني وأحمده" ولهذا امتنع التكليف عنده، فإن التكليف يكون من مكلِّف لمكلَّف، أحدهما آمرًا، والآخر مأمورًا، فامتنع التكليف عنده، كما يأتي ذكره بعد هذا.

وهذا كلّه باطل فإن العبد الموجود ثابت ليس بمعدوم منتفٍ، والله هو الذي جعله موجودًا ثابتًا. وهذا دين المسلمين، أن كل ما سوى الله مخلوق لله موجود، بجعل الله له وجودًا، فليس لشيء من هذه الأشياء وجود إلا بإيجاد الله له، وهو باعتبار نفسه لا يستحق إلا العدم.

وهذا أمر لا خلاف فيه بين المسلمين، وهو مما اتفقت عليه الأديان الأخرى، وهو معلوم بضرورة العقل، مركوز في الفطرة كما سبق تفصيل أدلته من الكتاب والسنة والعقل والفطرة، وغيرها، فالأدلة السابقة كافية في إبطال هذا المذهب، والمراد هنا حكايته، وبيان أصله الذي نتج عنه.

فالله سبحانه هو الذي جعل الحي حيًّا، بل هو الذي جعل المسلم مسلمًا، والمصلي مصليًا، كما قال الخليل: ﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ ﴾ [البقرة: ١٢٨]، وقال: ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي ﴾ [إبراهيم: ٤٠].

وهذه مسألة خلق أفعال العباد، وهي مذهب أهل السنة والجماعة، مع اتفاقهم على أن العبد مأمور منهي، مثاب معاقب، موعود متوعد، وهو سبحانه الذي جعل الأبيض أبيضَ، والأسود أسودَ، والطويل طويلًا، والقصير قصيرًا، والمتحرك متحركًا، والساكن ساكنًا، وغير ذلك من الأوصاف التي جعلها الله للأعيان، ومع هذا فالأعيان تتصف بهذه الصفات، والله -تبارك وتعالى- خالق الذوات وصفاتها.

وقوله: "إن قلت عبد فذاك ميت" كذب؛ فإن العبد ليس بميت، بل هو حي أحياه الله تعالى، كما قال ﷻ: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [البقرة: ٢٨].

والله لا يكلف الميت، وإنما يكلف الحي. وإذا قيل: إنه أراد بقوله: ميت، أنه باعتبار نفسه لا حياة له.

قيل: تفسير مراده بهذا فاسد لفظًا ومعنًى؛ أما اللفظ فلأن كلامه لا يقتضي ذلك، وأما المعنى فلأنه إذا فسر بذلك لم ينافِ التكليف. فإذا كان ميتًا -لولا إحياء الله- وقد أحياه الله، فقد صار حيًّا بإحياء الله له، وحينئذ فالله إنما كلف حيًّا لم يكلف ميتًا.

وأما أقوال إخوان الملاحدة والمحامين عنهم أنه قال: "ليت شعري من المكلف؟" مع علمه بأن التكليف حق فحار لمن ينسبه في القيام به. فقال: "إن قلت عبد فذاك ميت". والميت ليس له من نفسه حركة، بل من غيره يقلبه كما يشاء. وكذلك العبد، وإن كان حيًّا فإنه مع ربه كالميت مع الغاسل ليس له من نفسه فعل بغير الله. فيقال لهم: هذا العذر باطل من وجوه:

أحدها: لأنه لا حَيْرَةَ هنا، بل المكلف هو العبد بلا امتراء ولا حيرة، فإن الله يمتنع أن يكون هو المكَلَّف بالصيام والطواف ورمي الجمار، بل هو الآمر بذلك، والعبد هو المأمور بذلك، ومن حار هل المأمور بذلك الله أو العبد؟ فهو إما أن يكون فاسد العقل مجنونًا، وإما فاسد الدين ملحدًا زنديقًا.

وكون الله خالقًا للعبد ولفعله، لا يمنع أن يكون العبد هو المأمور المنهي؛ فإنه لم يقل أحد قط: إن الله هو الذي يركع ويسجد ويطوف ويرمي الجمار ويصوم شهر رمضان، بل جميع الأمة متفقون على أن العبد هو الراكع الساجد الصائم العابد، لا نزاع في ذلك بين أهل السنة والقدرية.

الثاني: أن قوله: "إن العبد وإن كان حيًّا فإنه مع ربه، كالميت مع الغاسل" ليس بصحيح؛ فإن الميت ليس له إحساس ولا إرادة؛ لما يقوم به من الحركة ولا قدرة

على ذلك، ولا يوصف بأنه يحب الفعل أو يبغضه، أو يريده أو يكرهه، ولا أنه يركع ويسجد ويصوم ويحج ويجاهد العدو، وقول من قال بهذا لا يحمد الميت على فعل الغاسل ولا يذم، ولا يثاب ولا يعاقب، وأما العبد فإن الله جعله حيًّا مريدًا قادرًا فاعلًا، وهو يصوم ويصلي ويحج ويقتل ويزني باختياره ومشيئته، والله خالق ذاته وصفاته وأفعاله، فله مشيئة والله خالق مشيئته كما قال -تبارك وتعالى-: ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [التكوير: ٢٨، ٢٩]، وله قدرة والله خالق قدرته، وهو مصل وصائم وحاج ومعتمر والله خالقه وخالق أفعاله، فتمثيله بالميت تمثيل باطل.

الثالث: أن يقال: إن كان كالميت مع الغاسل، فيكون الغاسل هو المكلف، فيكون الله هو المكلف، فيلزم أن يكون الرب هو المكلَّف.

الرابع: أن عقلاء بني آدم متفقون على ما فطرهم الله عليه، من أن العبد الحي يؤمر ويُنهى، ويُحمد ويذم على أفعاله الاختيارية، متفقون على أن من احتج بالقدر على ظلمه وفواحشه لم يقبل ذلك منه، فلو ظلم ظالم لغيره لم يقبل أحد منه أن يدفع عن نفسه الملام بالقدر، وأما الميت فليس في العقلاء من يذمه ولا يأمره ولا ينهاه، فكيف يقاس هذا بهذا، وأما قول القائل: فإن الله لو لم يُقوِّ العبد على التكليف لما قدر على ذلك، فكلام صحيح، لكن ليس فيه ما ينافي أن يكون مكلفًا، مأمورًا منهيًّا مصليًا صائمًا قاتلًا زانيًا.

وأما قوله: "فالفعل لله حقيقة، وللعبد مجازًا" فهذا كلام باطل، بل العبد هو المصلي الصائم الحاج المعتمر المؤمن، وهو الكافر الفاجر القاتل الزاني السارق حقيقة، والله تعالى لا يوصف بشيء من هذه الصفات، بل هو منزه عن ذلك،

لكنّه هو الذي جعل العبد فاعلًا لهذه الأفعال، فهذه مخلوقاته ومفعولاته حقيقة، وهي فعل العبد أيضًا حقيقة.

وعلى هذا انبنى قولهم: ليس إلا الله، فعباد الأصنام لم يعبدوا غيره عندهم؛ لأنه ما عندهم له غير، ولهذا جعلوا قوله تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء: ٢٣]. بمعنى قدّر ربك أن لا تعبدوا إلا إياه؛ إذ ليس عندهم غير له تتصور عبادته، فكل عابد صنم إنما عبد الله.

ولهذا جعلوا عبّاد العجل مصيبين، وقالوا: إن موسى أنكر على هارون إنكاره عليهم عبادة العجل، لأنه علم ما عبده أصحاب العجل؛ لعلمه بأن الله قد قضى أن لا يعبدوا إلا إياه، وما حكم الله بشيء إلا وقع، فإن العارف عندهم من يرى الحق في كل شيء، بل يراه عين كل شيء. ولهذا يقولون: إن فرعون مات مؤمنًا، بريئًا من الذنوب.

وقد علم بالاضطرار من دين أهل الملل المسلمين، واليهود، والنصارى، أن فرعون من أكفر الخلق بالله، بل لم يقُصَّ الله في القرآن قصة كافر باسمه الخاص، أعظم من قصة فرعون، ولا ذكر عن أحد من الكفار من كفره، وطغيانه وعلوه أعظم مما ذكره عن فرعون. وأخبر عنه وعن قومه أنهم يدخلون أشد العذاب.

فإذا جاءوا إلى أعظم عدو لله من الإنس، أو من هو من أعظم أعدائه، فجعلوه مصيبًا، محقًا فيما كفره به الله، علم أن ما قالوه أعظم من كفر اليهود والنصارى، فكيف بسائر مقالاتهم.

وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها على أن الخالق تعالى بائن من مخلوقاته، ليس في ذاته شيء من مخلوقاته، ولا في مخلوقاته شيء من ذاته.

والسلف والأئمة كفروا الجهمية لما قالوا: إنه في كل مكان، وكان مما أنكروه عليهم أنه كيف يكون في البطون والحشوش والأخلية؟! تعالى الله عن ذلك، فكيف بمن يجعله نفس وجود البطون والحشوش والأخلية والنجاسات والأقذار؟!

واتفق سلف الأمة وأئمتها أن الله ليس كمثله شيء، لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، وقال من قال من الأئمة: من شبه الله بخلقه فقد كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر، وليس ما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيهًا.

وأين المشبهة المجسمة من هؤلاء؟ فإن هؤلاء غاية كفرهم أن يجعلوه مثل المخلوقات، لكن يقولون: هو قديم وهي محدثة، وهؤلاء جعلوه عين المخلوقات، وجعلوه نفس الأجسام المصنوعات، ووصفوه بجميع النقائص والآفات، التي يوصف بهما كل كافر وكل فاجر وكل شيطان مريد، وكل سبع وكل حية من الحيات، فتعالى الله عن إفكهم وضلالهم ﷻ عما يقولون علوًّا كبيرًا.

وكذلك قوله: "إن المشركين لو تركوا عبادة الأصنام، لجهلوا من الحق بقدر ما تركوا منها" هو من الكفر المعلوم بالاضطرار من جميع الملل؛ فإن أهل الملل متفقون على أن الرسل جميعهم نهوا عن عبادة الأصنام، وكفّروا من يفعل ذلك، وأن المؤمن لا يكون مؤمنًا حتى يتبرأ من عبادة الأصنام، وكلِّ معبود

سوى الله، كما قال الله ﷻ: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾ [الممتحنة: ٤].

وقال الخليل ﷺ: ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الشعراء: ٧٥- ٧٧]، وقال الخليل ﷺ لأبيه وقومه: ﴿ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴾ [الزخرف: ٢٦، ٢٧]، وقال الخليل وهو إمام الحنفاء، الذي جعل الله في ذريته النبوة والكتاب، واتفق أهل الملل على تعظيمه لقوله: ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾

[الأنعام: ٧٨، ٧٩].

وهذا أكثر وأظهر عند أهل الملل من اليهود والنصارى فضلًا عن المسلمين من أن يحتاج أن يستشهد عليه بنص خاص، فمن قال إن عبّاد الأصنام لو تركوهم لجهلوا من الحق بقدر ما تركوا من هؤلاء، فهو أكفر من اليهود والنصارى، ومن لم يكفرهم فهو أكفر من اليهود والنصارى؛ فإن اليهود والنصارى يكفرون عبّاد الأصنام، فكيف من يجعل تارك عبادة الأصنام جاهلًا من الحق بقدر ما ترك منها، مع قوله: فإن العالم يعلم من عبَد، وفي أي صورة ظهر حتى عبد، وأن التفريق والكثرة، كالأعضاء في الصورة المحسوسة، وكالقوى المعنوية في الصورة الروحانية، فما عبد غير الله في كل معبود.

بل هذا الكفر والإلحاد أعظم من كفر عباد الأصنام؛ فإن أولئك اتخذوهم شفعاء ووسائط، كما قالوا: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾ [الزمر: ٣]، قال

تعالى: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ ﴾ [الزمر: ٤٣]، وكانوا مقرين بأن الله خالق السماوات والأرض، وخالق الأصنام، كما قال ﷻ: ﴿ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [الزمر: ٣٨]، وقال -تبارك وتعالى-: ﴿ وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٦].

قال ابن عباس { : "تسألهم من خلق السموات والأرض، فيقولون: الله، ثم يعبدون غيره". وكانوا يقولون في تلبيتهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريك هو لك، تملكه وما ملك. ولهذا قال تعالى: ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلٗا مِّنۡ أَنفُسِكُمۡۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ فَأَنتُمۡ فِيهِ سَوَآءٞ تَخَافُونَهُمۡ كَخِيفَتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡۚ ﴾ [الروم: ٢٨].

وهؤلاء أعظم كفرًا من جهة أن هؤلاء جعلوا عابد الأصنام عابدًا لله، لا عابدًا لغيره، وأن الأصنام من الله بمنزلة أعضاء الإنسان من الإنسان، وبمنزلة قوى النفس من النفس.

وعباد الأصنام اعترفوا بأنها غيره، وأنها مخلوقة، ومن جهة أن عباد الأصنام من العرب كانوا مقرين بأن للسموات والأرض ربًّا غيرهما خلقهما، وهؤلاء ليس عندهم للسموات والأرض وسائر المخلوقات رب مغاير للسموات والأرض وسائر المخلوقات، بل المخلوق هو الخالق عندهم.

ومن ضلالهم: زعمهم أن الحقائق تتبع العقائد، ومضمون هذا الأصل: أن كل إنسان يقول ما شاء ويعتقد ما شاء، من غير تمييز بين حق وباطل، وصادق

وكاذب، وأنه لا ينكر في الوجود شيء، وهذا من جهة الخبر والعلم، وأما من جهة الأمر والعمل، فإن محققهم يقول: ما عندنا حرام، ولكن هؤلاء والمحجوبون قالوا: حرام، فقلنا: حرام عليكم، فما عندهم أمر ولا نهي.

وذلك أنهم زعموا أن كل ما يصدر منهم من أفعال فهي طاعات لموافقتهم في ذلك القدر الكوني، وقد قال قائلهم: إن عصيت أمره فقد أطعت إرادته، كما قال قائلهم:

أصبحت منفعلًا لما يختاره ❖ مني ففعلي كله طاعات

فهؤلاء أعمى الخلقِ بصائر، وأجهلُهُم بالله وأحكامه الدنيوية والكونية؛ فإن الطاعة هي موافقة الأمر الديني الشرعي، لا موافقة القدر والمشيئة، ولو كان موافقةُ القدر طاعةً، لكان إبليس من أعظم المطيعين، والحاصل أن هذا ليس بطاعة صدرت عن إطاعة بل انقياد للعبودية واستسلام تحت أحكام الربوبية، كما قال -جل وعز-: ﴿وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣].

ومقصودهم بهذا إبطال الشرائع، والأديان. فهم يمشون مع الكون دائمًا، فأي شيء وجد وكان كان عندهم حقًّا، فالحلال ما وجدته وحلّ بيدك، والحرام ما حُرِمته، والحق ما قلته كائنًا ما كان.

وهم بذلك عطلوا الصانع والرسالة والحقائق كلها، وجعلوا الحقائق بحسب ما يكشف للإنسان، وهذا عندهم يفيد الإطلاق: ألا تقف مع معتقد، بل تعتقد جميع ما اعتقده الناس، فإن كانت أقوالًا متناقضة فإن الوجود يسع هذا كله، ووحدة الوجود تسع هذا كله.

وهذا قولهم. ومعلوم أن الوجود إنما يسع وجود هذه الاعتقادات، لا يسع تحقق هذه المعتقدات في أنفسها، وهذا مما لا نزاع فيه بين العقلاء؛ فإن الاعتقاد الباطل، والقول الكاذب هو موجود داخل في الوجود، لكن هذا لا يقتضي أن يكون حقًّا وصدقًا، فإن الحق والصدق إذا أطلق على الأقوال الخبرية فلا يراد به مجرد وجودها؛ فإن هذا أمر معلوم بالحس، وعلى هذا التقدير كلها حق وصدق.

ومعلوم أن السائل عن حقها وصدقها: هي عنده منقسمة إلى حق وباطل، وصدق وكذب، والمراد بكونها حقًّا وصدقًا، كونها مطابقة للخبر أو غير مطابقة، ثم قد تكون مطابقة في اعتقاد القائل دون الخارج، أي: دون حقيقة الأمر، وهذا هو الخطأ، وقد يسمى كذبًا، وقد لا يطلق عليه ذلك.

ومن تأمل القرآن الكريم وجد فيه ما لا يحصى من تقرير الحق وإبطال الباطل، بل القرآن كله جاء بتحقيق هذا المقصد، سواء من جهة العقيدة أو الأحكام العملية أو السلوك، والتصريح أحيانًا بتكذيب الكاذب وتصديق الصادق، بل حتى في أخبار الماضين إنما يقصها ليثبت الحق، ويبطل الباطل، كما قال: ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴾ [الكهف: ١٣]، وقال: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [هود: ١٢٠].

والله قد فرق في كتابه المبين الذي جعله حاكمًا بين الناس فيما اختلفوا فيه من الحق، بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والمؤمنين والكافرين، وقال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الجاثية: ٢١]، وقال: ﴿ أَمْ

﴿ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴾ [ص: ٢٨]، وقال: ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ [القلم: ٣٥، ٣٦].

ومن هذه الافتراءات الضالة، والطامات العمياء التي أعلن بها هؤلاء كفرًا وإلحادًا قول صاحب (الفصوص) في فص نوح # : "إن التنزيه عند أهل الحقائق في التوحيد عن التجريد والتقييد، فالمنزِّه إما جاهل للرب، وإما غافل قليل الأدب، ثم قال: لأن الحق له في كل فرد من أفراد الخلق ظهور، فهو الظاهر في كل مفهوم، وهو الباطن عن كل معلوم، إلا من فهم من قال: إن العالم صورة الحق، وهويته، هو ظاهر في كل مظهر وماهية، ثم قال: وهكذا من شبه وما نزه، حيث جعل الحق مقيدًا ومحدودًا، ولم يعرف كونه معبودًا، ومن جمع بين التشبيه، والتنزيه في وصف الحق، فهو الذي عرف الحق من بين الخلق".

وقال في فص إدريس # : "إن الحق المنزه، هو الخلق المشبه". وقال في فص إسماعيل # : "فلا تنظر إلى الحق، فتعريه عن الخلق، ولا تنظر إلى الخلق، فتكسوه سوى الحق، فنزهه وشبهه، وقم في مقعد الصدق" انتهى كلامه.

قال علي القاري: "وحاصل كلامه أنه ذم التنزيه المجرد، ولا شك أن قوله يُرد، حيث مدح الله سبحانه ملائكته بقوله: ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴾ [الصافات: ١٦٦] ولعل الاكتفاء بالتسبيح عن النقصان والزوال، ظهور صفات الجلال والجمال على وجه الكمال، ومن أسمائه الحسنى القدوس، فلا لوم على المنزه، ولو اكتفى بالتنزيه. ثم الجمع بين التنزيه والتحميد أولى كما لا يخفى على أهل التأييد؛ لقوله تعالى حكاية عن ملائكته: ﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ [البقرة: ٣٠] وما ورد في الحديث: ((سبحان الله وبحمده)).

على أن كلًّا منهما يتضمن المعنى الآخر فتدبر، فإنه في حقيقة المعنى نظير كلمة التوحيد في المعنى؛ فإن لا إله تنزيه وتمجيد، وإلا الله توحيد وتحميد. ثم تعليله المعلول خارج عن حيز المعقول والمنقول؛ إذ مآله ضلالة في جعله الخلق عين الحق، وهو الكفر المطلق، ثم تحسينه للتشبيه مناقض لتحقيق التنزيه، ومعارض لقوله تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ [الشورى: ١١]. ثم قول: الحق المنزه هو الخلق المشبه، هو عين بطلان قوله الأول فتأمل وتنبه.

ومجمل كلامه، وظاهر مرامه أن تنزيه الحق عن تشبيهه بالخلق ليس القول الصدق، وهو كذب وباطل؛ إذ لا مناسبة بين العبد والرب، وبين الحادث والقديم، فالصواب ما ذكره سبحانه في الكتاب: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ [الشورى: ١١] أي في ذاته ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١] أي كامل في مراتب صفاته، ففي الجملة الأولى رد على المشبهة، والأخرى إبطال للمعطلة ونفاة الصفات المكملة، فهذا الجمع بين التنزيه والتشبيه عند أرباب التحقيق وأصحاب التنبيه، فتأمل أيها النبيه لئلا تقع فيما وقع فيه السفيه" انتهى كلامه.

واعلم أن تصور مذهب هؤلاء كاف في بيان فساده، لا يحتاج مع حسن التصور إلى دليل آخر وإنما تقع الشبهة؛ لأن أكثر الناس لا يفهمون حقيقة قولهم وقصدهم، لما فيه من الألفاظ المجملة والمشتركة، بل وهم أيضًا لا يفهمون حقيقة ما يقصدونه ويقولونه، ولهذا يتناقضون كثيرًا في قولهم، وإنما ينتحلون شيئًا ويقولونه أو يتبعونه.

(تابع ظاهرة الإلحاد (٢))

عناصر الدرس

المذاهب الإلحادية وتطورها

الإلحاد: هو الميل عن الحق. وإذا أطلقت عبارة الإلحاد في العصر الحديث، فالمراد بها جحد الدين وإنكاره، وبالتالي إنكار وجود خالق هذا الكون، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا. فصارت هذه العبارة مصطلحًا لإنكار الربوبية مطلقًا. الأمر الذي لم يكن مذهبًا لطائفة معينة في القديم حتى ظهرت فئام من الناس ينتسبون للفلسفة، أو بعضهم للعلوم الطبيعية، وذلك في القرون المتأخرة، بداية من القرن السابع عشر ميلادي، أو قبله بقليل.

وإذا أمعنت النظر في مقالات الأوائل منهم، الذين تأسس على ضوئهم نظرياتهم المذهب المادي، والمذهب الطبيعي، والمذهب العقلاني، والمذهب التجريبي، والمذهب الاسمي، ونحوهم من المذاهب، تجد أنهم لم يكن مقصودهم إنكار الدين، أو إنكار وجود الله، مع معتقداتهم الباطلة في ذلك، أو معتقداتهم الباطلة في الله تعالى.

ثم هناك ردة فعل سلبية من هؤلاء نحو بعض تعاليم الكنيسة، أو سلوكاتهم الخاطئة أو عقائدها المحرفة البعيدة كلّ البعد عن الفطرة السليمة، وضرورة العقل الصحيح.

ثم بعد ذلك تطورت هذه الأفكار، أو هذه المذاهب، وأخذت منحى غير ما قصد به مؤسسوها ابتداء، فصارت فلسفة للمذاهب الإلحادية المعاصرة، المنكِرة للدين، الجاحدة للخالق.

وظهرت هذه المذاهب الإلحادية تحت أسماء متعددة يختص كلّ منها باتجاهات فكرية تميزها عن الأخرى، لكنها في النهاية تصب في مجرى الإلحاد واحد، وهو إنكار الدين وجحود الخالق.

فمن هذه المذاهب المادية الجدلية: وهي النظرية العامة الماركسية اللينينية، صاغها "ماركس" و"إنجلز" و"لينين" وقد أخذ "ماركس" و"إنجلز" المادية عن "فورياخ" والجدل عن "هيجل"، واعتبر الفكر انعكاسًا للواقع وليس العكس، وفي التفكير المادي الجدلي يعتبر الوجود كله وحدة متماسكة، تترابط فيه الأشياء والأحداث ترابطًا عضويًّا، وفي حالة حركة وتجدد دائمين، فهناك باستمرار شيء يولد ويتطور، ولا تعتبر المادية الجدلية مجرد نظرية بل دعوة ومنهاج وبرنامج عمل وعقيدة؛ ولذلك فالمادي الجدلي بالضرورة ملتزم بالنضال الصريح والعنيف ضد العقائد الأخرى وخاصة الأديان وكل الغيبيات، وتقوم عقائده أصلًا على جحد وجود الله تعالى.

المذهب العقلاني: يقوم على الإيمان بالعقل وقدرته، وأنه يصل إلى تحصيل الحقائق من العالم بدون مقدمات تجريبية، ولا تُستمد المعرفة عندهم من الخبرة الحسية، وأهم فلاسفة هذا المذهب "ديكارت" و"سبينوزا" و"لايبنتس"، وكان "دالمبير" و"فولتير" و"كندوروسيه" أبرز المفكرين الذين ذهبوا إلى إعلاء العقل كنقيض للخرافة والإيمان حسب قولهم، ويريدون بذلك الإيمان وربوبيته وألوهيته، والمعاد وسائر الغيبيات.

مع التنبيه إلى أن هذا المذهب العقلاني، وهو الأساس الذي يدعيه أهل الإلحاد كحجة لهم، لكنه في حقيقة الأمر حجة عليهم؛ لأن كل الفلاسفة العقلانيين الذين أسسوا هذا المذهب كانوا مؤمنين بوجود الخالق ﷻ، وعندما نتحدث في الوسط الفلسفي عن العقلانية، فإننا نستحضر "ديكارت" كمؤسس العقلانية الحديثة، ومعلوم أن "ديكارت" فيلسوف نصراني مؤمن، بل إن تأسيس الإيمان عنده كان مبنيًّا على العقلانية، فتأمل هذا التناقض.

المذهب الطبيعي في الفلسفة: هو تفسير تطور المجتمع بقوانين الطبيعة، مثل الأحوال المناخية والبيئية والجغرافية والاختلافات البيولوجية -أي: وظائف الأعضاء- والاختلافات الجنسية بين الشعوب، ويقوم هذا المذهب على مركزية الإنسان في الكون، وقام بدور كبير في القرنين السابع عشر والثامن عشر ضد النزعة الروحية.

ومن فروعه: المذهب الطبيعي الأخلاقي وهو اسم عام يطلق على نظرياته في الأخلاق واللذة، يوحد بينها مبدأ يقول بأن مفهوم الخير يتحدد عن طريق نوع من المفهوم الطبيعي مثل اللذة أو التطور البيولوجي.

ومن فروعه: المذهب الطبيعي في دراسة الإنسان، وهو مذهب مادي سبق الماركسية وأعد لها الأجواء يعتبر الإنسان النتاج الأعلى للطبيعة، ويفسر كل الملامح والصفات الخاصة بالإنسان من منظور طبيعي -نسبة إلى الطبيعة- ويؤكد وحدة الإنسان والطبيعة ومضاد لمفهوم أن الإنسان روح وجسد.

ومثله يقال عن المذهب التجريبي، والاسمي، وكلاهما يبحث في قيمة الميتافيزيقا، كمصدر من مصادر المعرفة، وهي فلسفة ما وراء الطبيعة.

المذهب الاسمي: يجعل العبارات التي تدل على الأنواع، والأجناس كالوجود والإنسانية والعلة، وغيرها: أسماء وإشارات إلى مدلولات متصورة في الذهن، وليست واقعة في الخارج، وبما أن هذه العبارات هي مصطلحات الميتافيزيقيا، فالفلسفة الميتافيزيقية ليست مصدرًا لمعرفة الواقعية، بل مصدر ذلك هو الواقع المحسوس وحده، والوسيلة إلى التعرف عليه هو الحواس الخمس.

ويلاحظ أن "أوكام"، من عمد المذهب، لا يُدْخِل الحقائق الدينية في الحقائق الميتافيزيقية، فيرى أن الإيمان مجال الإيمان بالله هو الإيمان والاعتقاد، وليس

البحث العقلي الجدلي الإنساني، ولهذا لا يوجه لهذه الحقائق انتقادًا مباشرًا، بل يفصل بينها، وهو إذ يناقش فلسفة ما بعد الطبيعة يناقش صنعة إنسانية، تطلب لنفسها الاعتبار العام فيما تذكره من أفكار وآراء.

وهو أيضًا إذ يعيب الدين -أي: الدين النصراني بطبيعة الحال- لا يعيب الرسالة المسيحية وتعاليمها كما يفهمها العقل، أو حتى كما تفهمها البروتستانتية، وإنما يعيب ما لحق بهذه الرسالة من سلطة سياسية عليا، وعصمة لشخص البابا -كرئيس للكنيسة الكاثوليكية- في قوله وعمله.

فهم يرون أن صنعة العقل الإنساني فيما بعد الطبيعة لا تأتي بيقين واقعي؛ لأن العقل لا يستطيع أن يأتي بيقين إذا اجتاز مرحلة الإنسان، ودائرته الحسية إلى دائرة أعلى منها فوقها، وكلّ ما يأتي به عندئذ لا يتجاوز الظن والتخمين.

المذهب التجريبي: يرى أن تحصيل الإنسان للحقائق الكونية، ومعرفته بها لا يكون إلا بالتجربة الحسية وحدها، ومعنى ذلك أن الحس المشاهد لا غيره هو مصدر المعرفة الحقيقية اليقينية، ففي العالم الحسي تكمن حقائق الأشياء، أما انتزاع المعرفة مما وراء الظواهر الطبيعية الحسية، والبحث عن العلة في هذا المجال، فأمر يجب أن يرفض، ولهذا تكون كل نظرية، أو كل فكرة عن وجود له طابع الحقيقة واليقين، فيما وراء الحس، نظرية أو فكرة مستحيلة.

وهذا المذهب عرف به "هيوم" في القرن الثامن عشر، وهو لا ينكر الوصول إلى الله عن طريق العمل العقلي، وهو العمل القائم على الربط والمشابهة بين الأفكار، وهو ينكر فقط أن تكون للمعرفة فيما بعد الطبيعة ميزة المعرفة الطبيعية، في إمكان اختبارها، والتثبت منها عن طريق التجربة.

ثـم بعـد أن تحـول هـذا المـذهب إلى الفلسـفة الوضـعية الـذي تزعمـه "أوجسـت كونت"، ومُنْذُئِذٍ عُرِف بالمذهب الوضعي، وهـي الفلسفة التي لا تعتبر شيئًا ما حقيقيًّا، وواقعيًّا، إلا ذلك الموضوع الوضعي، الذي جاء أثرًا لتجارب الحس، ويمكن مع ذلك اختباره بالحس.

وهدف هذه الفلسفة الوضعية: الاستمرار في افتقار النظر إلى الحياة عن طريق إخراج معنى الله من هذه النظرة، والتضحية بحقائق العقل، بل تجريد ذلك من الاعتبار الواقعي، والطابع اليقيني.

ولا بد أن نقف مهلة لمعرفة أهداف الفلاسفة الذين قاموا في القرنين السابع عشر، والتاسع عشر بمحاولة عقلية فلسفية للاحتفاظ بقدسية الدين، وقيمة الوحي، وسنرى أن سبب ذلك هو الرغبة في مقاومة نفوذ الكنيسة الكاثوليكية أولًا، وليس مقاومة الإيمان في ذاته.

فمنهم على سبيل الخصوص في القرن السابع عشر قام "سبينوزا"، و"ليبنيز"، و"لوك" وحاولوا جمع الكنائس الثلاث على أساس من التعاليم الأصلية للمسيحية، عبر مراحل لتحقيق هذا الإصلاح.

وفي القرن التاسع عشر أسس الفيلسوف الألماني "فريدريك هريش جاكوبي" فلسفته التي سماها: فلسفة الإيمان، وجعلها في مقابل فلسفة "كانت" في نقد العقل الخالص.

وجاء "هيجل" في القرن التاسع عشر أيضًا، وأقام فلسفة خاصة به على أساس مما سماه: الفكرة، ووصل بهذه الفلسفة الخاصة إلى وحدانية الله، وبذلك أغضب الكنيسة الكاثوليكية بإنكار التثليث في الألوهية.

وعلى غرار "هيجل" قام "شلنج" بعمل فلسفي سمي بالفلسفة البنائية، وهي فلسفة تهدف إلى إقرار مذهب الوحدة في الألوهية.

وهنا نجد من دفاع هؤلاء الفلاسفة عن الدين، ومن محاولاتهم الفلسفية لإصلاحه، أن الذين تجاوزوا من فلاسفة الغرب بنقدهم الميتافيزيقيا إلى الدين لم ينقدوه إلا لتصفيته من العقائد غير المعقولة، في عصر تيقظ الإنسان فيه إلى قيمة نفسه.

لقد حاربوا التثليث، وعقيدة ألوهية عيسى، والاعتقاد بعصمة البابا، وبسلطانه الزمني، ولم ينقدوا الإيمان في أصله، بل نقدوا الطارئ عليه، مما لا يستقيم مع العقل الإنساني الواضح.

ولكن ظهر في العالم الإسلامي من يردد هذا الفكر، ويروج لمفكري الغرب، وخاضوا هجومًا شرسًا على دين ليس ثمة داع لمهاجمته وهو الإسلام؛ لأنهم رأوا أولئك قاموا بهجوم على المسيحية المحرفة، فقلدوا خطواتهم، ودخلوا في مواجهة مع دين الإسلام الصحيح الموافق للعقل والفطرة الصحيحة، باسم النقد العلمي أو العقلي.

فعندما أراد هؤلاء المرددون، المفتونون بالغرب أن يقفوا على قدم المساواة مع الغربيين الأحرار، رأوا من المساواة في الوقوف على قدم واحدة معهم أن ينقلوا عيب الغربيين المغرضين للإسلام، وأن يغمضوا ويبهموا فيما ينقلونه باسم الفكر التجريبي أو الاسمي، حتى يكون منهم في تجديدهم في الفكر انتقاصًا للإسلام، وبذلك يتساوون في الوقوف على قدم واحدة، وهي توجيه الملام والعيب للدين.

والتساوي في الوقوف مع الإنسان الحر في البحث، هو أن لا تطغى عليه عاطفة فيما يبحث، وأن يكون صريحًا في الحديث عن عاطفته -إذا تملكته هذه العاطفة

في البحث- دون أن يغمط شأنها أو يرهق الحرية في البحث، يوم يدعو من وراء ستار إلى ما يرى أو يرغب.

هذه نبذة عن بعض المذاهب الإلحادية التي تدور عليها النظرة المادية الوضعية الهادفة إلى إنكار الحقائق العقلية، المتضمنة إنكار الدين وجحود الخالق ﷻ.

آثار فكر المذاهب الإلحادية في الواقع المعاصر، ودحر شبههم

قد تداول الناس هذه العبارة "الميتافيزيقيا"، ولبسوا على الناس بهذا، حيث إن جماهير الناس لا يعرفون مدلولها، وقصدوا التعمية عليهم باستعمال هذه العبارة المجملة، التي لا تحمل مدلولًا معينًا، ذلك لأنه لو تنبه الناس من أول الأمر إلى ما فيها من زيف، لبطل قبولها، ولما راجت في سوق الأفكار، ولكن الأمر قد ينطلي على كثير من الجهال، والمغرضين من أصحاب الأهواء والشهوات، والطمع في الدنيا، وماديات أصحابها، والاغترار بالتطورات العلمية التي يشهدها الغرب ممن روج ودعم أصحاب هذه الأفكار الهدامة.

وإلا فمن السهل للباحث تحديد هذه الكلمة المتداولة "ميتافيزيقيا"، والتي ظن الناس منذ أمد بعيد أن لها قيمة كبيرة، وهي زيف لا قيمة لها في التعامل، لو تنبه الناس إلى ذلك بأن مرادهم بها هو الله، ونفي وجوده، وجحد الدين.

وهذا التلبيس والتعمية كانت وسيلة الغرب، بل ووسيلة كل ناعق من المنافقين من أبناء جلدتنا حيث روجوا لها في البلاد الإسلامية ونشروا الكفر والإلحاد، إرضاءً للغرب، وإرضاء لشهواتهم، من أجل متاع قليل في الدنيا. ثم انتقلوا من خلال هذا الإلحاد إلى إلغاء كل فضيلة، ومحاربة القيم الأخلاقية المرتبطة بجميع

جوانب الحياة، فنشروا الرذيلة، والفساد في شتى مجالات التعامل الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، وغير ذلك.

وصار ديدنهم في ترديد أمور لا قيمة لها في أي إصلاح في هذه الأمة، مثل سفور المرأة، والدعوة للاختلاط، ونحوها، وصارت شغلهم الشاغل في خطاباتهم وكتاباتهم في شتى وسائل الإعلام، وكتبت فيها الكتب، وألفت المؤلفات، ذلك كله باسم الحضارة والتقدم.

وزعموا في ذلك أن القيم الأخلاقية جزء من ذات نفس الإنسان، وأن العالم الخارجي عن ذاته لا خير فيه ولا جمال، وإنما هو عالم من الأشياء، وأن وصف الخارج بشيء من ذلك يرجع إلى إحساسات الإنسان، وانفعالاته المختلفة، دون ذوات الأشياء، فلا بد للإنسان من أن يقصر الحديث على وصف ما يراه، وما يسمعه، وما يحسه بسائر حواسه، دون إضافة شيء من ذات نفسه إلى الوصف، فالإنسان هو الذي يضفي الوصف على الأشياء، وليس هذا الوصف للأشياء من ذواتها.

وإذا فسد العقل، وطمست الفطرة، فلا قيمة للحس، ولا الإحساس عند الإنسان، ولا قيمة للأسماء إذا كانت خاوية من معانيها.

فانظر مثلًا إلى المشركين حيث نظروا إلى عالم الحس نظرة التعظيم والإجلال، وعمُوا عما سواه، فهم حتى ولو أقروا بربوبية الله تعالى، إلا أنهم تشبثوا بما يشاهدون فعبدوا الأصنام دون عبادة الله تعالى، مع إقرارهم كما تقدم بربوبيته، فكانت معارفهم مجرد أسماء دون مسميات في حقيقة الأمر، وتبين أنهم إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس، كما أخبر الله ﷻ عنهم بقوله: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ

﴿ ٱللَّـٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَـٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ [النجم: ١٩- ٢٣].

وقد يقع الحس على أشياء وأشياء، ومع ذلك لا يدرك حقائقها إذا عمي بصره وبصيرته. فالعبرة بما سلم من العقل والفطرة، لإدراك الحقائق على ما هي عليه. فحسن الظن بالحواس، أو الثقة العمياء بالعقل قد تحمل محسن الظن على أن ينخدع بهما، أو بأحدهما.

فالإنسان إذا ختم على قلبه، وجعل على بصره غشاوة، مهما جاءت من آية، وظهرت له من دلالة فإنه يعمى عنها، وينأى عن استشعارها، والاستفادة منها.

إن أصحاب المذاهب المادية يلحدون في الله ويجادلون في وجوده ﷻ وينكرون هذا الوجود، ثم يقيمون على أساس إنكار وجود الله، والزعم بأن هذا الكون موجود هكذا بذاته بلا خالق ولا مدبر وبلا موجه، ولا حافظ، يقيمون على أساس هذا الزعم وذلك الإنكار مذاهب اجتماعية وسياسية واقتصادية وأخلاقية كذلك. ويزعمون أن هذه المذاهب القائمة على ذلك الأساس، والتي لا تنفصل عنه بحال علمية، هي وحدها العلمية.

وعدم الشعور بوجود الله سبحانه، مع وجود تلك الشواهد والدلائل الكونية، هو دلالة لا تنكر على تعطل جميع ما منّ الله به على تلك النفوس النكدة من وسائل المعرفة والإدراك.

كما أن اللجاجة في هذا الإنكار، والتمادي في هذه المكابرة، والسلوك الجحودي، لا تبعد في معناها عن أمثال من أخبر الله عنهم في كتابه حيث قال:

﴿ ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةً يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ ۝٢ وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَكُلُّ أَمۡرٖ مُّسۡتَقِرّٞ ۝٣ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزۡدَجَرٌ ۝٤ حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞۖ فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ ﴾ [القمر: ١- ٥]، وقال سبحانه: ﴿ وَلَوۡ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَ ۝١٤ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ ﴾ [الحجر: ١٤، ١٥].

والأدلة السابقة في تقرير توحيد الربوبية من الكتاب والسنة، ودلالة العقل والفطرة، كلها واضحة بينة في بطلان، وفساد مقالات هؤلاء المنكوسين.

إن القول بأن هذا الكون موجود بذاته، وفيه كل تلك العوامل المتوافقة لحفظه وتحريكه وتدبيره، كما أن فيه كل تلك الموافقات لنشأة الحياة في بعض أجزائه، إن هذا القول بذاته يرفضه العقل البشري الصحيح كما ترفضه الفطرة السليمة من أعماقها. وكلما توغل العلم في المعرفة بطبيعة هذا الكون وأسراره وموافقاته، رفض فكرة التلقائية في وجود هذا الكون وفي حركته بعد وجوده، واضطر اضطرارًا إلى مشاهدة تلك القوة الخالقة المدبرة من ورائه، هذه الرؤية التي تتم للفطرة السوية بمجرد النظر في ظواهر هذا الكون وأسراره. قبل الالتفات إلى تلك البحوث العلمية، أو النظريات الفلسفية المتضمنة لكثير من الأفكار المتناقضة، والألفاظ الملتبسة الخادعة التي لم تجئ إلا أخيرًا.

إن الكون لا يملك أن يخلق ذاته، ثم يخلق في الوقت نفسه قوانينه التي تصرف وجوده. كما أن نشأة الحياة لا يفسرها وجود الكون الخالي من الحياة. وتفسير نشأة الكون ونشأة الحياة بدون وجود خالق مدبر، تفسير متعسف ترفضه الفطرة كما يرفضه العقل أيضًا.

وعلى كل تقدير فإن لهؤلاء الملحدين المعاصرين سلفًا من الدهريين ممن تظاهر بنفس ما ادعوه من إنكار الربوبية، وذلك كما أخبر الله -تبارك وتعالى- في كتابه فقال: ﴿ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ [الجاثية: ٢٤].

وهكذا أعداء الأنبياء والمرسلين يتطاولون بالمادة وينكرون البعث واليوم الآخر فلا جزاء عندهم في الآخرة، والدنيا هي دار للمتاع فقط، يقول الله ﷻ: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ [سبأ: ٣٤، ٣٥]، وقال سبحانه: ﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ [المؤمنون: ٣٥- ٣٧].

وقال سبحانه عن المجادلين من المشركين المؤمنين بالمحسوس المنكرين للغيب: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء: ٩٠- ٩٣].

فالغيب: هو كل ما غاب عن الحس، فالذي لا نستطيع أن ندركه بوسائلنا المعتادة، يسمونه "ما وراء الطبيعة"، أو "ما وراء المادة"، أو "ما وراء الحس"، أو "الميتافيزيقا" هذا يدخل فيه كل أركان الإيمان، ولذلك الإيمان بالغيب يعني الإيمان بالدين وبكل ما جاء به الدين، فالماديون لا يؤمنون بإله ولا يؤمنون بنبوة، ولا

يؤمنون بآخرة لأن هذه الأشياء عندهم غير محسوسة، ويمثلهم الآن الملاحدة من الشيوعيين وأمثالهم.

فالمادية تهتم بالمادة ولا تنظر إلى العقائد والأديان، بل لا تؤمن بها، ولا تعترف بها، وقد عانى كثير من البشر من هذه الفلسفة التي قامت عليها كثير من النظريات التي تجرع الناس منها الويلات والخسران، وهذه حال كل منهج انحرف عن المنهج الرباني القويم، وسلك طريقًا من طرق الضلال، فهذه الحركات والمذاهب الفكرية في العالم تتخذ الكفر أساسًا لفكرها، وتعتبر المادية هي البنية الرئيسة للكثير من هذه الاتجاهات، فالمادية تعتبر هي الأساس الذي قام عليه العدد الأكبر من هذه المذاهب.

وهم مع الأسف لم يفلحوا في تحديد مفهوم المحسوس، ولهذا جعلوه خمسة أشياء، وجردوا منه أهم ما فيه وهو الإحساس القلبي، فهو نوع من الحواس، فبه تحس الجوانب النفسية كالخوف والحب والحزن والفرح، ونحو ذلك، فهذه حاسة سادسة ولها أهميتها العظمى في حياة الإنسان، ولكن أغفلوا ذكرها لحاجة في أنفسهم، حيث إنها تكون حجة داحضة لافتراءاتهم.

هذا جواب شبهتهم، وزعمهم أن الغيبيات لا يمكن أن تعلم، إضافة إلى أنها بالفعل هي محسوسات ترى وتسمع، وليس كل ما لم نره أو نسمعه بأنفسنا فهو في حقيقة الأمرِ لا يرى ولا يسمع. فعدم العلم بالشيء ليس علمًا بعدمه.

وكثير من قضايا العلم الحديث ليست محسوسة بل هي مقدرة فقط، فلو أنكروا مثل هذه الأمور لدخلوا في السفسطاء.

هذه عمدتهم فيما ذهبوا إليه وأهم شبهاتهم.

وكثير منهم سلك طريقًا آخر في إنكار الدين وجحد الخالق، حيث التبس عليهم أمور القدر، وما قضاه الله على خلقه، كونًا وشرعًا، فجعلوا ذلك حجة لهم على الإلحاد.

وهذه ليست حجة برهانية، ولا دليلًا على نفي الشيء، فلا يمكن إنكار أمر دلت عليه الفطرة والعقل والشواهد الكونية، وتواطأت شهادة الأنبياء والرسل والأمم السابقة، بمجرد عدم العلم بأسرار القدر، وحكمة الله في خلقه وشرعه، على أن كثيرًا من ذلك لو تدبره هذا المعترض لعلم مصلحته العامة للخلق، فهذه النار التي خلقها الله تعالى على ما فيها من الإضرار والإفساد، فإن الخلق لا يمكن أن يستغنوا عنها وعن منافعها أبدًا، فإذا أقروا بهذا، فليقيسوا ما تبقى عليه، وليسلموا فيما لم يهتدوا إلى معرفته.

ومن شبهاتهم وتلبيساتهم على الناس قضية تسلسل الحوادث، وتسلسل الحوادث في الماضي مما أنكره عامة العقلاء، لضرورة العلم بأن ما من محدَث إلا لا بد له من مُحدِث، ويلزمهم ما أقروا به من قانون السببية، فالتغيرات الطارئة في الكون بعد أن لم تكن، لا بد أن يحدث سبب يؤثر في هذا التغير، ولا يكون ذلك إلا من محدِث أوّل أثر في ذلك التغيير، أو الخلق الأول؛ لأننا نعلم يقينًا أن حوادث وجدت بعد أن لم تكن موجودة، وهذا باتفاق الناس جميعًا، وهو بديهي عقلًا، حيث لو كان الأمر ساريًا دون مؤثر قادر مريد، لسار أمر الكون على نسق واحد، إذ لا يتصور تغيير في الكون، إلا بمخصص أثر في انتقال الكون من حال إلى حال.

(معنى توحيد الألوهية في اللغة والشرع، وأقسامه)

عناصر الدرس

تعريف توحيد الألوهية لغةً وشرعًا

أولًا: معنى لفظ إله في اللغة:

قبل أن نشرع في بيان معنى لفظ الجلالة "الله" في اللغة، لا بد من تفصيل الكلام في الاشتقاق فيه، حيث اختلف العلماء في ذلك على قولين، أصحهما أنه مشتق.

قال ابن القيم في (بدائع الفوائد): "زعم أبو القاسم السهيلي وشيخه ابن العربي أن اسم الله غير مشتق؛ لأن الاشتقاق يستلزم مادة يشتق منها، واسمه تعالى قديم، والقديم لا مادة له فيستحيل الاشتقاق، ولا ريب أنه إن أريد بالاشتقاق هذا المعنى، وأنه مستمد من أصل آخر فهو باطل. ولكن الذين قالوا بالاشتقاق لم يريدوا هذا المعنى، ولا أَلَمّ بقلوبهم، وإنما أرادوا أنه دال على صفة له تعالى وهي الإلهية، كسائر أسمائه الحسنى كالعليم والقدير والغفور والرحيم والسميع والبصير؛ فإن هذه الأسماء مشتقة من مصادرها بلا ريب، وهي قديمة والقديم لا مادةَ له، فما كان جوابكم عن هذه الأسماء فهو جواب القائلين باشتقاق اسم الله، ثم الجواب عن الجميع أننا لا نعني بالاشتقاق إلا أنها ملاقية لمصادرها في اللفظ والمعنى، لا أنها متولدة منها تولد الفرع من أصله.

وتسمية النحاة للمصدر والمشتق منه أصلًا وفرعًا، ليس معناه أن أحدهما تولد من الآخر، وإنما هو باعتبار أن أحدهما يتضمن الآخر وزيادة. إلى أن قال: فالاشتقاق هنا ليس هو اشتقاقًا ماديًّا، وإنما هو اشتقاق تلازم سمي المتضمِن بالكسر مشتقًا، والمتضمَن بالفتح مشتقًا منه، ولا محذور في اشتقاق أسماء الله تعالى بهذا المعنى" انتهى كلامه.

واسم الله أصله إله، والألوهية مأخوذ من أَلَه يَأله، وهو فِعال بمعنى مفعول. قال الجوهري: "أله بالفتح إلهة أي عبد عبادة، ومنه قرأ ابن عباس { : "وَيَذَرَكَ وَإِلِهَتَكَ" (الأعراف: ١٢٧)، بكسر الهمزة، قال: وعبادتك، وكان يقول: إن فرعون كان يعبد في الأرض، ومنه قولنا: "الله"وأصله "إله" على فِعال بمعنى مفعول، كقولنا: إمام، فعال؛ لأنه مفعول، أي: مؤتم به".

وقال ابن الأثير: "هو مأخوذ من إله، وتقديرها فُعلانية بالضم، تقول: إله بين الإلهية والألهانية، وأصله من ألِه يأله إذا تحير، يريد: إذا وقع في عظمة الله وجلاله، وغير ذلك من صفات الربوبية، وصرف همه إليها، أبغض الناس حتى لا يميل قلبه إلى أحد" انتهى كلامه.

وقال أبو الهيثم: "فالله أصلُه إله، قال الله ﷻ: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ ﴾ [المؤمنون: ٩١]. قال: ولا يكون إلهًا حتى يكون معبودًا، وحتى يكون لعابده خالقًا ورازقًا ومدبِّرًا وعليه مُقتدِرًا، فَمن لم يكن كذلك فليس بإله، وإن عُبِد ظُلْمًا، بل هو مخلوقٌ ومُتعبَّدٌ. قال: وأصل إله وِلاه، فقلِبت الواو همزة، كما قالوا للوِشاح: إشاح، وللوِجاج: إجاج، ومعنى وِلَاه أَنّ الخلْق إليه يَوْلَهون في حوائجهم، ويَفزعون إليه فيما يُصيبُهم، ويَفزَعون إليه في كل ما يَنوبُهم، كما يَوْلَه كلُّ طِفْل إلى أمه. وقد سَمَّت العربُ الشمسَ لّمَا عَبَدُوها إلهًا.

وقد ضعف الزجاج القول بأن أصل إله: ولاه. قال ابن سيده: "والإلهة والألوهة والألوهية: العبادة، وقد قرئ: ﴿ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ﴾ [الأعراف: ١٢٧]. وقرأ ابن عباس: "ويذرك وإلهتك"، بكسر الهمزة، أي: وعبادتك، وهذه الأخيرة عند ثعلب كأنها هي المختارة. قال: لأن فرعون كان يُعبد ولا يعبُد، فهو على هذا ذو

إلهة، لا ذو آلهة، والقراءة الأُولى أكثر والقراء عليها، والمراد بها: ﴿ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ﴾".

قال ابن بري: "يقوي ما ذهب إليه ابن عباس في قراءته: ويذرك وإلهتك، قول فرعون: ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [النازعات: ٢٤]، وقوله: ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ﴾ [القصص: ٣٨]، وبهذا قال سبحانه: ﴿ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴾ [النازعات: ٢٥]، وهو الذي أشار إليه الجوهري بقوله عن ابن عباس: إن فرعون كان يُعبد"

ويقال: إله بين الإلهة والألهانية، وكانت العرب في الجاهلية يدعون معبوداتهم من الأوثان والأصنام: آلهة، وهي جمع إلهة، قال الله ﷻ: ﴿ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ﴾ [الأعراف: ١٢٧]، وهي أصنام، عبدها قوم فرعون معه، وأصله إله، على فعال، بمعنى مفعول؛ لأنه مألوه، أي: معبود، كقولنا: إمام فعال، بمعنى مفعول؛ لأنه مؤتم به، فلما أدخلت عليه الألف واللام حذفت الهمزة تخفيفًا؛ لكثرته في الكلام، ولو كانتا عوضًا منها لما اجتمعتا مع المعوض منه في قولهم: الإله، وقطعت الهمزة في النداء للزومها تفخيمًا لهذا الاسم.

ثانيًا: معنى اسم الجلالة "الله" في الشرع:

معنى الإله في الشرع: المعبود، كما قال الله -جل وعزّ-: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [الأنعام: ١٠٢].

قال ابن عباس { : "الله ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين، وهو الذي يألهه كل شيء، ويعبده كل شيء".

والله ﷻ هو الذي يوله إليه الخلق في حوائجهم، ويضرعون إليه فيما يصيبهم، ويفزعون إليه في كلّ ما ينوبهم. واسم الله -تبارك وتعالى- تفرد به سبحانه لا يشركه فيه غيره، ولا يدّعيه أحد.

وأما لفظ الإله فقد يطلق على الأصنام بغير حق زورًا وبهتانًا، بخلاف اسم الجلالة الله، فإنه لا يطلق إلا عليه ﷻ.

وهو اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى، على الراجح من أقوال العلماء.

وقد ورد ذكر اسم الله الأعظم في أحاديث عن النبي ﷺ حيث لا يبقى شك في إثباته لله تعالى خلافًا لمن أنكره، لكن يبقى فقط النظر في تعيينه، فعن أبي أمامة > عن النبي ﷺ أنه قال: ((إن اسم الله الأعظم لفي سور من القرآن: البقرة، وآل عمران، وطه)) رواه ابن ماجه والطحاوي في (مشكل الآثار) والطبراني في (المعجم الكبير) والحاكم في (المستدرك) وحسن إسناده الألباني في (الصحيحة).

وعن بريدة بن الحصيب أن النبي ﷺ سمع رجلًا يدعو وهو يقول: "اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت، الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد، قال: فقال: ((والذي نفسي بيده لقد سأل الله باسمه الأعظم الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى))" رواه الإمام أحمد في (المسند) وأبو داود والترمذي وابن ماجه في سننهم، وقال الترمذي: "حديث حسن غريب" وصححه الألباني في تخريج أحاديث (المشكاة).

واشتهر الاختلاف قديمًا وحديثًا في تعيين هذا الاسم، وقد بلغت الأقوال فيه إلى أربعة عشر قولًا كما عددها الحافظ ابن حجر في (الفتح). وأظهرها -في نظري

والله أعلم- قولان؛ أحدهما: من ذهب إلى أنه اسم الجلالة "الله"، والآخر: "الحي القيوم".

ومن رجح القول الثاني فإنما ذلك بناء على قول القاسم أبي عبد الرحمن في حديث أبي أمامة السابق أن الآية المشار إليها في قوله تعالى: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ [طه: ١١١].

وتعقبه الطحاوي في (مشكل الآثار) بقوله: "وقد يحتمل أن يكون هو ما في "طه" سوى ذلك، وهو قول الله فيها: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [طه: ٧، ٨] الآية. فيرجع ما في "طه" إلى مثل ما رجع إليه مثل ما في سورة "البقرة"، وما في سورة "آل عمران" أنه الله تعالى".

وقال الألباني في (الصحيحة): "قول القاسم: إن الاسم الأعظم في آية: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ من سورة "طه" لم أجد في المرفوع ما يؤيده، فالأقرب عندي أنه في قوله في أول السورة: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ [طه: ١٤]، فإنه الموافق لبعض الأحاديث الصحيحة". انتهى كلامه.

وذلك كحديث بريدة بن الحصيب، حيث لم يرد فيه ذكر اسم "الحي القيوم"، بل الذي ورد فيه اسم الجلالة "الله".

ثالثًا: تعريف توحيد الألوهية باعتبار كونها مركبًا:

أي: مركبًا من لفظ توحيد، ولفظ الألوهية. يقال: توحيد الألوهية، ويقال له أيضًا: توحيد العبودية، أي: توحيد العبادة. وذلك باعتبارين في الإطلاق من جهة التعلق، فباعتبار إضافته إلى الله، يسمى: توحيد الألوهية. وباعتبار إضافته إلى الخلق، يسمى: توحيد العبادة. والعبادة تطلق على شيئين:

الأول: التعبد، بمعنى التذلل لله ﷻ بفعل أوامره، واجتناب نواهيه، محبة وتعظيمًا.

الثاني: المتعبد به، وهو كل ما يحبه الله ويرضاه من الطاعات والقربات من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، كما سيأتي تفصيله في موضعه. مثال ذلك الصلاة؛ ففعلها عبادة، وهو التعبد. ونفس الصلاة عبادة، وهو المتعبد به.

فإفراد الله بهذا التوحيد: أن تكون عبدًا لله وحده تُفْرِدُه بالتذلل؛ محبة وتعظيمًا، وتعبده بما شرع. وهذا المعنى هو الذي تضمنه بداية أم القرآن: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، فوَصْفُه سبحانه بأنه ربُّ العالمين، كالتعليل لثبوت الألوهية له، فهو الإله؛ لأنه رب العالمين، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ٢١]؛ فالمنفرد بالخلق هو المستحق للعبادة.

وعلى هذا يكون تعريف توحيد الألوهية: إفراد الله سبحانه بأنواع العبادة. هكذا عرفه أبو بُطين في رسالة جامعة في معنى العبادة.

وهذا التعريف هو معنى شهادة أن لا إله إلا الله، وتمام تحقيقها بشهادة أن محمدًا رسول الله ﷺ ويدل على ذلك قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٦- ٢٨].

قال ابن جرير الطبري: "وقوله: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾، يقول: وجعل قوله: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ [الزخرف: ٢٦، ٢٧]، وهو قول: لا إله إلا الله كلمة باقية في عقبه، وهم ذريته، فلم يزل في ذريته من يقول ذلك من بعده".

وكلمات السلف لا تخرج عن المعنى الذي ذكرناه حيث من فسرها بالإسلام يتفق قوله مع من فسرها بلا إله إلا الله؛ إذ الإسلام هو الاستسلام لله بالعبودية، وهو الدين الذي لا يقبل الله من أحد شيئًا سواه، وهو معنى لا إله إلا الله، الذي يدور مقتضاها بين النفي والإثبات، نفي عبادة ما سوى الله، وإثبات العبادة لله وحده، وهذا المعنى هو الذي يشمله قول إبراهيم ﷺ في الآية السابقة.

وتوحيد الألوهية له إطلاقات متنوعة، كما قال سليمان بن عبد الله في كتابه الجليل (تيسير العزيز الحميد): "ويسمى هذا النوع توحيد الألوهية؛ لأنه مبني على إخلاص التأله، وهو أشد المحبة لله وحده، وذلك يستلزم إخلاص العبادة، وتوحيد العبادة لذلك، وتوحيد الإرادة؛ لأنه مبني على إرادة وجه الله بالأعمال، وتوحيد القصد؛ لأنه مبني على إخلاص القصد، المستلزم لإخلاص العبادة لله وحده، وتوحيد العمل؛ لأنه مبني على إخلاص العمل لله وحده.

قال الله تعالى: ﴿ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴾ [الزمر: ٢]، وقال: ﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الزمر: ١١، ١٢]، ﴿ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ﴿١٤﴾ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ ﴾ [الزمر: ١٤، ١٥]، إلى قوله: ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر: ٢٩]، إلى قوله: ﴿ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ﴾ [الزمر: ٣٨] الآية، إلى قوله: ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا ﴾ [الزمر: ٤٣، ٤٤] الآية، إلى قوله: ﴿ وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ ﴾ [الزمر: ٥٤]، إلى قوله: ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي

﴿أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ ٦٤ وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٦٥ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الزمـــر: ٦٤-٦٦]، إلى آخر السورة.

فكل هذه السورة في الدعاء إلى هذا التوحيد، والأمر به، والجواب عن الشبهات والمعارضات، وذِكر ما أعد الله لأهله من النعيم المقيم، وما أعد لمن خالفه من العذاب الأليم، وكل سورة في القرآن، بل كل آية في القرآن فهي داعية إلى هذا التوحيد، شاهدة به، متضمنة له" انتهى كلامه.

أقسام التوحيد باعتبار متعلقاته، والرد على المخالفين في ذلك

التوحيد حسب استقراء نصوص الكتاب والسنة ثلاثة أقسام: توحيد الألوهية، وتوحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات. جمعها قول الله ﷻ: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ [مريم: ٦٥].

وهذه الآية صريحة في دلالتها على أنواع التوحيد الثلاثة لا تحتمل تأويلًا، ومن تأمل القرآن تبين أنه لا يخلو موضع منه عن ذكر هذه الأنواع، مجتمعة كما في هذه الآية، أو متفرقة كما في غيرها مما لا يحصى عدُّه في القرآن. هذا الذي قرره أئمة السلف، ونصوا عليه في كتبهم.

قال ابن بطة في كتاب الرد على الجهمية من (الإبانة): "وذلك أن أصل الإيمان بالله الذي يجب على الخلق اعتقاده في الإيمان به ثلاثة أشياء:

أحدها: أن يعتقد العبد ربانيته؛ ليكون بذلك مباينًا لمذهب أهل التعطيل الذين لا يثبتون صانعًا.

الثاني: أن يعتقد وحدانيته؛ ليكون مباينًا بذلك مذاهب أهل الشرك، الذين أقروا بالصانع وأشركوا معه في العبادة غيره.

الثالث: أن يعتقده موصوفًا بالصفات التي لا يجوز إلا أن يكون موصوفًا بها من العلم والقدرة والحكمة وسائر ما وصف به نفسه في كتابه؛ إذ قد علمنا أن كثيرًا ممن يقر به ويوحده بالقول المطلق قد يلحد في صفاته؛ فيكون إلحاده في صفاته قادحًا في توحيده. ولأنا نجد الله -تبارك وتعالى- قد خاطب عباده بدعائهم إلى اعتقاد كل واحدة في هذه الثلاثة والإيمان بها".

وهذا التقسيم مشتمل على أكمل معاني التوحيد، وجامع لكلّ ما يتعلق بحقيقته، خلافًا لما ذهب إليه المتكلمون حيث قالوا: إن الله تعالى واحد في ذاته لا قسيم له، وواحد في صفاته الأزلية لا نظير له، وواحد في أفعاله لا شريك له، كما جاء ذلك في كتاب (الاقتصاد في الاعتقاد)، و(نهاية الإقدام في علم الكلام)، و(الملل والنحل) وغيرها من كتب المتكلمين.

فهذا التقسيم باطل من جهتين:

الأولى: من جهة كونه متضمنًا لألفاظ مجملة مشتملة على معاني باطلة؛ لأن مرادهم بلا قسيم له نفي التركيب، والتركيب عندهم تعدد الصفات في الموصوف، فكان مآل قولهم نفي اتصاف الله تعالى بالصفات. وكذلك قولهم: لا نظير له، المقصود منه نفي التشبيه، وإثبات الصفات عندهم من التشبيه، فكان مآل قولهم نفي الصفات عن الله تبارك وتعالى.

الثانية: من بطلان قولُهم: واحد في أفعاله لا شريك له، وهذا توحيد الربوبية، وهو مجرد عن أعظم مقاصد التوحيد الذي أمر الله به، وهو توحيد الألوهية،

وجعلوا أسمى مقاصدهم، وغاية مطالبهم توحيد الربوبية الذي لا يكاد ينكره أحد من الناس.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وليس المراد بالتوحيد، مجرد توحيد الربوبية، وهو اعتقاد أن الله وحده خلق العالم، كما يظن ذلك من يظنه من أهل الكلام والتصوف، ويظن هؤلاء أنهم إذا أثبتوا ذلك بالدليل فقد أثبتوا غاية التوحيد، ويظن هؤلاء أنهم إذا شهدوا هذا وفنوا فيه فقد فنوا في غاية التوحيد. وكثير من أهل الكلام يقول: التوحيد له ثلاث معانٍ، وهو: واحد في ذاته لا قسيم له، أو لا جزء له، وواحد في صفاته لا شبيه له، وواحد في أفعاله لا شريك له. وهذا المعنى الذي تتناوله هذه العبارة فيها ما يوافق ما جاء به الرسول ﷺ وفيها ما يخالف ما جاء به الرسول ﷺ.

وليس الحق الذي فيها هو الغاية التي جاء بها الرسول، بل التوحيد الذي أمر به أمرًا يتضمن الحق الذي في هذا الكلام وزيادة أخرى، فهذا من الكلام الذي لبس فيه الحق بالباطل وكتم الحق. وذلك أن الرجل لو أقرّ بما يستحقه الربّ -تبارك وتعالى- من الصفات، ونزهه عن كل ما ينزه عنه، وأقر بأنه وحده خالق كل شيء، لم يكن موحدًا، بل ولا مؤمنًا حتى يشهد أن لا إله إلا الله، فيقر بأن الله وحده هو الإله المستحق للعبادة، ويلتزم بعبادة الله وحده لا شريك له" انتهى كلامه.

فالأدلة السابقة صريحة واضحة في تقسيم التوحيد، إلى ربوبية وألوهية وأسماء وصفات، وهذه أوصاف لمسمى واحد، وهو الله -تبارك وتعالى- وهو ما يشير إليه حديث أبي بن كعب في تفسير قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن

﴿تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢]. قال في سياقه: "اعلموا أنه لا إله غيري، ولا رب غيري، ولا تشركوا بي شيئًا، إنّي سأرسل إليكم رسلي يذكرونكم عهدي وميثاقي، وأنزل عليكم كتبي. قالوا: نشهد إنّك ربُّنا وإلهنا، لا ربَّ لنا غيرُك، ولا إله لنا غيرك، فأقروا يومئذ بالطاعة". وقد تقدم هذا الحديث مفصلًا في الكلام على مبدأ التوحيد".

كما أن النقل السابق عن بعض الأئمة صريح في هذا المقصود، ونُقول غير ذلك تترى في كتب المتقدمين والمتأخرين، ولم ينفرد بذلك ابن تيمية وابن القيم كما ادعى من ادعى من أهل الأهواء، ونكتفي بالإشارة إلى بعض من صرح بهذا التقسيم أو بعضه من هؤلاء الأئمة على سبيل التمثيل لا الحصر، فمنهم ابن جرير الطبري كما في تفسيره، وابن عطية في (المحرر الوجيز)، والقرطبي كما في تفسيره، والبيضاوي كما في (التفسير)، وأبو السعود أيضًا في تفسيره، والسيوطي في (الإتقان). وغيرهم في عدد لا يكاد يحصى.

وهذا كافٍ في أن هؤلاء الأئمة لم يفهم أحد منهم إطلاقًا أن لو أثبت هذا التقسيم الثلاثي أو الثنائي فقد ثلث كالنصارى أو ثنّى كالمجوس.

وتعدد الصفات لله ﷻ لا يلزم منه تعدد الآلهة كما ادعاه من ادعاه من جهلة هذه الأمة كالمعتزلة وغيرهم، ولا ننشغل بما لا يستحق الرد من كلامهم كهذه التفاهات التي لا تستند إلى عقل فضلًا عن دليل.

(بيان المسائل المتعلقة بتوحيد الألوهية)

عناصر الدرس

بيان أن توحيد الألوهية متضمن لتوحيد الربوبية، والأسماء، والصفات

من المفيد معرفة العلاقة بين أنواع التوحيد -وقد أشرنا إلى ذلك سابقًا- وذكرنا أن توحيد الألوهية متضمن لنوعي التوحيد الآخرين وهما توحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات، ومستلزم لهما أيضًا.

ومعنى كون توحيد الألوهية متضمنًا لتوحيد الربوبية والأسماء والصفات، أنه داخل ضمن توحيد الألوهية، فمن عبد الله وحده، ولم يشرك به شيئًا، فلا بد أن يكون قد آمن به ربًّا، واعتقد أنه خالقه ورازقه ومدبر أمره ضرورة، وهو يعبد ربًّا موصوفًا بجميع صفات الجلال والكمال، منزهًا عن جميع صفات النقص، لا يعبد عدمًا، ولا وجودًا مقدرًا في الأذهان فقط، حيث لا يكون موجودًا مباينًا لغيره، متصفًا بصفات تميزه عن سائر الموجودات، كما يقوله من يقوله من طوائف المعطلة.

قال ابن القيم في (مدارج السالكين): "فاسم الله دال على جميع الأسماء الحسنى والصفات العليا بالدلالات الثلاث، فإنه دال على إلهيته المتضمنة لثبوت صفات الإلهية له مع نفي أضدادها عنه، وصفات الإلهية هي صفات الكمال المنزهة عن التشبيه والمثال، وعن العيوب والنقائص؛ ولهذا يضيف الله تعالى سائر الأسماء الحسنى إلى هذا الاسم العظيم كقوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، ويقال: الرحمن والرحيم والقدوس والسلام والعزيز والحكيم من أسماء الله، ولا يقال: الله من أسماء الرحمن ولا من أسماء العزيز ونحو ذلك.

فعلم أن اسم الله مستلزم لجميع معاني الأسماء الحسنى، دال عليها بالإجمال، والأسماء الحسنى تفصيل وتبيين لصفات الإلهية التي اشتق منها اسم الله، واسم

الله دال على كونه مألوهًا معبودًا، تألهه الخلائق محبة وتعظيمًا وخضوعًا وفزعًا إليه في الحوائج والنوائب، وذلك مستلزم لكمال ربوبيته ورحمته المتضمنين لكمال الملك والحمد، وإلهيته وربوبيته ورحمانيته وملكه مستلزم لجميع صفات كماله؛ إذ يستحيل ثبوت ذلك لمن ليس بحي ولا سميع ولا بصير ولا قادر ولا متكلم ولا فعال لما يريد ولا حكيم في أفعاله".

قال حافظ الحكمي: "فإن توحيد الإثبات هو أعظم حجةً على توحيد الطلب والقصد الذي هو توحيد الإلهية، وبه احتج الله -تبارك وتعالى- في كتابه في غير موضع على وجوب إفراده تعالى بالإلهية؛ لتلازم التوحيدين فإنه لا يكون إلهًا مستحقًّا للعبادة إلا من كان خالقًا رازقًا مالكًا متصرفًا مدبرًا لجميع الأمور، حيًّا قيومًا سميعًا بصيرًا عليمًا حكيمًا موصوفًا بكل كمال منزهًا عن كل نقص، غنيًّا عما سواه مفتقرًا إليه كل ما عداه، فاعلًا مختارًا لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه ولا يعجزه شيء في السماء ولا في الأرض، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا تخفى عليه خافية، وهذه صفات الله ﷻ لا تنبغي إلا له ولا يشركه فيها غيره.

فكذلك لا يستحق العبادة إلا هو ولا تجوز لغيره، فحيث كان متفردًا بالخلق والإنشاء والبدء والإعادة لا يشركه في ذلك أحد وجب إفراده بالعبادة دون من سواه، لا يشرك معه في عبادته أحد كما قال -تبارك وتعالى-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١، ٢٢]".

أهميــة توحيــد الألوهيــة ومنزلتــه مــن الــدين

توحيد الله -تبارك وتعالى- هو الركن الأول من أركان الإيمان، وهو أساس الدين، وأصل الشريعة، وهو أول ما يجب على العبد فبه يُبتدَأ، وبه يُنتهى.

وهو أصل المقاصد، وبه تناط جميع الحكم والغايات، وإليه ترجع كل الأعمال الظاهرة والباطنة، وهو وسيلة العباد إلى ربهم، وسبيل النجاة الموصلة إلى مرضاته. والنفوس إذا عرفت أهمية الشيء وفضله تطلعت لمعرفة حقيقته، وما يضاده. ويمكن أن نجمل بعض هذه الأهمية في النقاط التالية، على سبيل التمثيل فقط، وإلا فإن أهميته لا يحصيها العد:

أولًا: أن تحقيق التوحيد هو الغاية التي من أجلها خلق الله تعالى الجن والإنس، والدليل قوله: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦].

ثانيًا: أن تحقيق التوحيد هو الغاية التي من أجلها بعث الله الأنبياء والرسل، والدليل قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦].

ثالثًا: أن جميع الأعمال من صلاة وصيام وجهاد متوقف قبولها على تحقيق أصل التوحيد، والدليل قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ٨٨].

رابعًا: أن التوحيد هو أول أمر يُسأل عنه الإنسان في قبره، والدليل ما جاء عند أبي داود وغيره: "أن الميت يأتيه ملكان فيسألانه: من ربك وما دينك ومن نبيك؟

والمقصود بقول الملكين: من ربك؟" أي من معبودك، فالسؤال هنا عن توحيد العبادة؛ لأن الناس لا يُمتحنون على توحيد الربوبية؛ إذ إن إبليس -وهو أكفر المخلوقات الكافرة- يقر بتوحيد الربوبية.

خامسًا: أن القرآن كله يدعو إلى تحقيق التوحيد ولوازمه، ووجه ذلك أن آيات القرآن إما أن تأتي صريحة في الدعوة إلى التوحيد مباشرة كما في قوله ﷻ: ﴿ فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [غافر: ١٤] ونحو ذلك، أو أن تنهى عن الشرك كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [يونس: ١٠٦]، والنهي عن الشيء أمر بضده.

وإما أن تأمر الآيات بفعل الطاعات مثل الصلاة والصوم والزكاة والحج ونحوه، أو تنهى عن فعل المحرمات مثل الزنا والسرقة ونحوه، وفعل الطاعات وترك المحرمات من لوازم التوحيد ومكملاته، وإما أن تأتي الآيات مبينة ما أعده الله من الجنات والنعيم وما أعده الله من النار والعذاب الأليم، فهذا فيه جزاء الموحدين الذين حققوا التوحيد، وجزاء المخالفين المشركين الذين أعرضوا عن توحيد الله، وبهذا يتبين لنا أن القرآن كله من أوله إلى آخره يدعو إلى التوحيد ولوازمه.

وهذه بعض فضائل التوحيد المذكورة في القرآن الكريم، حاولت استقراء أكبر عدد ممكن من الآيات القرآنية التي جاءت في فضل التوحيد، وهذه بعض أبرز فضائل التوحيد من خلال استقراء آيات القرآن:

أولًا: ضمان دخول الجنة لمن حقق التوحيد، والدليل قوله تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ [البقرة: ٢٥]، فقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ أي: الذين حققوا التوحيد.

ثانيًا: حصول الأمن والهداية، والدليل قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الأنعام: ٨٢]، وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (الحج: ٥٤]، وقوله تعالى: ﴿ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة: ٢١٣].

ثالثًا: الثبات في الدنيا والآخرة، والدليل قوله تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

رابعًا: تكفير السيئات، والدليل قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [العنكبوت: ٧]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [المائدة: ٦٥].

خامسًا: الاستخلاف والتمكين في الأرض، والدليل قوله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [النور: ٥٥].

سادسًا: ولاية الله تعالى للموحدين، والدليل قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

سابعًا: سعة الرزق، والدليل قوله تعالى: ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ (الحج: ٥٠]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الأعراف: ٩٦].

ثامنًا: مدافعة الله تعالى عن الموحدين، والدليل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ﴾ [الحج: ٣٨].

تاسعًا: وعد الله الموحدين بالنصر على الأعداء والعزة والرفعة، والدليل قوله تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ﴾ [غافر: ٥١]، وقوله تعالى: ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الروم: ٤٧] أي الموحدين، وقوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [المنافقون: ٨]، وقوله ﷻ: ﴿ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ ﴾ [المجادلة: ١١].

عاشرًا: تأييد الله تعالى للموحدين، والدليل قوله تعالى: ﴿ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ﴾ [الصف: ١٤].

الحادي عشر: الحياة الطيبة، والدليل قوله: ﴿ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧].

الثاني عشر: النجاة من مكاره الدنيا والآخرة، والدليل قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيۡنَا نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [يونس: ١٠٣].

الثالث عشر: ليس للشيطان سلطان على الموحدين، والدليل قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [النحل: ٩٩].

الرابع عشر: يقذف الله في قلوب الخلق محبة الموحدين، والدليل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ﴾ [مريم: ٩٦].

الخامس عشر: استغفار الملائكة للموحدين، والدليل قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ [غافر: ٧].

السادس عشر: الموحدون هم خير البرية، والدليل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ﴾ [البينة: ٧].

السابع عشر: رحمة الله الخاصة يفوز بها الموحدون، والدليل قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا ﴾ [الأحزاب: ٤٣].

الثامن عشر: حصول السكون والطمأنينة للموحدين عند المصائب التي تفزع القلوب وتشوش الألباب، والدليل قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡۗ ﴾ [الفتح: ٥].

إيضاح الدلالة على أنه أساس دين المرسلين، وأول ما دعا إليه الأنبياء والمرسلون

وللأهمية العظمى والمكانة الكبرى لتوحيد الألوهية من الدين، كانت أول دعوة الرسل كلهم إلى توحيد الله ﷻ ونفي الشرك، فلم يأمروا بشيء قبل التوحيد ولم ينهوا عن شيء قبل الشرك، وما ذكر الله تعالى التوحيد مع شيء من الأوامر إلا جعله أولها، ولا ذكر الشرك مع شيء من النواهي إلا جعله أولها كما في آية "النساء": ﴿ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا ﴾ [النساء: ٣٦].

وكما في آية "الأنعام" التي طلب النبي ﷺ البيعة عليها وهي قوله تعالى: ﴿ قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗاۖ وَلَا

تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥١- ١٥٣].

قال حافظ الحكمي في معرض الكلام على فضائل توحيد الألوهية، وأنه أول دعوة الرسل: "فلم يدعوا إلى شيء قبله، فهم وإن اختلفت شرائعهم في تحديد بعض العبادات والحلال والحرام لم يختلفوا في الأصل الذي هو إفراد الله سبحانه بتلك العبادات، افترقت أو اتفقت لا يشرك معه فيها غيره كما قال ﷺ: ((نحن معاشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد))، وقد أخبر الله ﷻ عن اتفاق دعوة رسله إجمالًا وتفصيلًا فقال تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ ۚ ﴾ [الشورى: ٣١].

وهؤلاء هم أولو العزم من الرسل -نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ونبينا محمد ﷺ وكذلك بقية الرسل، وقال تعالى: ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ

وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴾ [النساء: ١٦٣- ١٦٥].

وفي الصحيح عن المغيرة > قال: قال سعد بن عبادة > : لو رأيت رجلًا مع امرأتي لضربته بالسيف غير مصفح، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: ((تعجبون من غيرة سعد والله لأنا أغير منه، والله أغير مني، ومن أجل غيرة الله حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحب إليه العذر من الله، ومن أجل ذلك بعث المبشرين والمنذرين، ولا أحد أحب إليه المدحة من الله ومن أجل ذلك وعد الله الجنة)).

هذا ما يتعلق بمقام الإجمال من النصوص الدالة على فضل التوحيد، وأما في مقامات التفصيل فقال تعالى: ﴿ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴾ [الأعراف: ٥٩] إلى آخر الآيات، وقال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف: ٦٥] إلى آخر الآيات، وقال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥ ﴾ [الأعراف: ٧٣] إلى آخر الآيات.

ثم قال: وقال تعالى: ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ

كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴾ [مريم: ٤١- ٤٥]، فبين لأبيه أن آلهته لا تسمع ولا تبصر ولا تضر ولا تنفع ولا تقدر على جلب خير ولا دفع شر ولا تغني عنه شيئًا، فتبين بذلك أن عبادة مثل هذا جهل وضلال.

ثم بين له أن عنده دواء ذلك الداء والهدى من ذلك الضلال فقال تعالى: ﴿ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴾ وبين أن فعله ذلك عبادة للشيطان موجب لعذاب الرحمن وولاية الشيطان عياذًا بالله من ذلك. وقال تعالى: ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [العنكبوت: ١٦، ١٧] إلى آخر الآيات.

وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٦- ٢٨]، وقال تعالى عن يوسف # : ﴿ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ۚ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ [يوسف: ٣٧- ٤٠] الآيات وغيرها.

وكذلك قص الله تعالى علينا عن جميع الرسل من نوح إلى محمد ﷺ فقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ٩- ١٢] الآيات.

ولو ذهبنا نذكر قصص الرسل ومحاورتهم مع قومهم وعواقب ذلك لطال الفصل، وأما نبينا محمد ﷺ وسيرته في قومه وصبره على أذاهم وما جرى له معهم فأجلى من الشمس في نحر الظهيرة، والقرآن كله من فاتحته إلى خاتمته في شأن ذلك". انتهى كلام حافظ الحكمي من (معارج القبول).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في تلخيص كتابه (الاستغاثة): "وأعظم ما دعا الله الخلق إليه في كتابه ودعت الرسل هو التوحيد، وأعظم ما نهى عنه الشرك، وهو أصل دعوة الرسل وأساسها ورأسها وأكمل ما فيها وبه بعث الله جميع الرسل، كما قد صرح به القرآن في أكثره فهو مملوء به. وقد تواتر عن النبي ﷺ أنه أول ما دعا المشركين إلى كلمة التوحيد، وأن بالإقرار بها يصير الرجل مسلمًا وبالامتناع عنها يصير كافرًا، وأنه قال ﷺ: ((أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله))".

وقال في (منهاج السنة النبوية): "فهو التوحيد الذي جاءت به الرسل ونزلت به الكتب وبه بعث الله الأولين والآخرين من الرسل، قال تعالى: ﴿ وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وقد أخبر الله تعالى عن كل من الرسل -مثل نوح وهود وصالح وشعيب وغيرهم- أنهم قالوا لقومهم: ﴿ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ [المؤمنون: ٢٣]، وهذا أول دعوة الرسل وآخرها. قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح المشهور: ((أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، فإذا قالوها فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله))، وقال النبي ﷺ في الحديث الصحيح أيضًا: ((من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة))، وقال: ((من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة)).

والقرآن كله مملوء من تحقيق هذا التوحيد والدعوة إليه وتعليق النجاة والفلاح واقتضاء السعادة في الآخرة به، ومعلوم أن الناس متفاضلون في تحقيقه".

وقال ابن أبي العز في شرح (الطحاوية): "اعلم أن التوحيد أول دعوة الرسل، وأول منازل الطريق، وأول مقام يقوم فيه السالك إلى الله ﷻ. قال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ [الأعراف: ٥٩] وقال هود # لقومه: ﴿ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ [الأعراف: ٦٥] وقال صالح # لقومه: ﴿ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ [الأعراف: ٧٣] وقال شعيب # لقومه:

﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف: ٨٥] وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦] وقال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥]. وقال ﷺ: ((أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله))، ولهذا كان الصحيح أن أول واجب يجب على المكلف شهادة أن لا إله إلا الله".

أساليب القرآن في الدعوة إلى توحيد الألوهية

تقدمت الإشارة إلى أن القرآن كله في تقرير التوحيد، وتوحيد الألوهية هو أعظم أنواع التوحيد، بل هو التوحيد كله، إذا عُلم كما سبق أنه متضمن لتوحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات.

ولقد جاء القرآن الكريم مبينًا لهذا التوحيد، وآمرًا به، وداعيًا إليه بأساليب متنوعة، وطرق حكيمة مناسبة لمعالجة ما كان عليه الناس وقت نزول القرآن، وما يأتي بعده، من ما صاروا إليه من أحوال تنطبق في مجملها مع ما كان عليه الناس أيام الجاهلية من فساد في الاعتقاد، وفساد في السلوك والأخلاق، حيث عبدوا الأصنام، ووأدوا البنات، واستعبدوا الناس، وأحلوا الحرام، وحرموا الحلال، فجاء القرآن كله لتقويم هذا الفساد العقائدي، وما يندرج عنه من ضلال وانحراف.

وهذه أهم الأساليب التي جاء بها القرآن الكريم في تقرير توحيد الألوهية:

أولًا: أمره سبحانه بعبادته، وترك عبادة ما سواه، كما في قوله سبحانه: ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ [النساء: ٣٦]، وقوله: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ

﴿ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١، ٢٢].

ثانيًا: إخباره سبحانه أنه خلق الخلق لعبادته، كما في قوله سبحانه: ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦].

ثالثًا: إخباره سبحانه أنه أرسل جميع الرسل بالدعوة إلى عبادته، والنهي عن عبادة ما سواه، كقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦].

رابعًا: الاستدلال على توحيد الألوهية بانفراده بالربوبية والخلق والتدبير، كما في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ٢١]، وقوله: ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُۚ لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ وَٱسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴾ [فصلت: ٣٧].

خامسًا: الاستدلال على وجوب عبادته سبحانه بانفراده بصفات الكمال، وانتفاء ذلك عن آلهة المشركين، كما في قوله تعالى: ﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ﴾ [مريم: ٦٥]، وقوله: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وقوله عن خليله إبراهيم أنه قال لأبيه: ﴿ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ﴾ [مريم: ٤٢]، وقوله: ﴿ إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ ﴾ [فاطر: ١٤]، وقوله: ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًاۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٨].

سادسًا: تعجيزه لآلهة المشركين، كقوله تعالى: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٩١، ١٩٢]، وقوله تعالى: ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾ [الإسراء: ٥٦]، وقوله: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ [النحل: ٧٣]، وقوله: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ [الحج: ٧٣].

سابعًا: تسفيه المشركين الذين يعبدون غير الله، كقوله تعالى: ﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٦٦، ٦٧]، وقوله: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴾ [الأحقاف: ٥].

ثامنًا: بيان عاقبة المشركين الذين يعبدون غير الله، وبيان مآلهم مع من عبدوهم، حيث تتبرأ منهم تلك المعبودات في أحرج المواقف، كما في قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ

﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ [البقرة: ١٦٥- ١٦٧].

وقوله تعالى: ﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُواْ مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ [فاطر: ١٤]، وقوله: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴾ [الأحقاف: ٥، ٦]، وقوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ [سبأ: ٤٠، ٤١].

تاسعًا: ومنها رده سبحانه على المشركين في اتخاذهم الوسائط بينهم وبين الله بأن الشفاعة ملك له سبحانه؛ لا تطلب إلا منه، ولا يشفع أحد عنده إلا بإذنه، بعد رضاه عن المشفوع له، كما قال سبحانه: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [الزمر: ٤٣، ٤٤]، وقوله سبحانه: ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴾ [النجم: ٢٦]، فبين سبحانه في هذه الآيات أن الشفاعة ملكه وحده، لا تطلب إلا منه، ولا تحصل إلا بعد إذنه للشافع، ورضاه عن المشفوع له.

عاشرًا: بيانه سبحانه أن هؤلاء المعبودين من دونه لا يحصل منهم نفع لمن عبدهم من جميع الوجوه، ومَن هذا شأنه لا يصلح للعبادة، كما في قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ﴾ [سبأ: ٢٢، ٢٣].

الحادي عشر: أنه سبحانه ضرب أمثلة كثيرة في القرآن يتضح بها بطلان الشرك، من ذلك قوله سبحانه: ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ [الحج: ٣١]، شبه سبحانه التوحيد في علوه وارتفاعه وسعته وشرفه بالسماء، وشبه تارك التوحيد بالساقط من السماء إلى أسفل سافلين؛ لأنه سقط من أوج الإيمان إلى حضيض الكفر، وشبه الشياطين التي تقلقه بالطير التي تمزق أعضاءه، وشبه هواه الذي يبعده عن الحق بالريح التي ترمي به في مكان بعيد، هذا مثال واحد من أمثلة كثيرة في القرآن ذكرها الله ﷻ لبيان بطلان الشرك، وخسارة المشرك في الدنيا والآخرة.

بيان الخلاف بين الأمم ورسلهم في توحيد الألوهية

عناصر الدرس

الخلاف بين الأمم ورسلهم في توحيد الألوهية

تقدم أن بينا أن الأمم السابقة كافة كانوا مقرين بتوحيد الربوبية، إلا من أبى واستكبر وجحد، وهو في قرارة نفسه يبقى على إقراره بذلك، ويجحد في الظاهر، ولهذا لو تأملت القرآن الكريم، وما حكاه عن الأمم السابقة تجد أن الخلاف الذي كان بين الرسل وأقوامهم في الإقرار بهذا التوحيد، وهو توحيد الألوهية، وهذه بعض النصوص الدالة على ذلك: قال الله تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ﴾ [الشورى: ١٣].

قال البغوي في تفسير هذه الآية: "﴿ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ﴾ من التوحيد ورفض الأوثان". وسياق الآية واضح في أن الكلام المراد بهذا الذي كبر على المشركين هو التوحيد، والدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله.

وقال ﷻ حكاية عن المشركين: ﴿ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ﴾ [ص: ٥]. فكفار قريش لما دعاهم النبي ﷺ إلى التوحيد -وهو مضمون شهادة أن لا إله إلا الله- أنكروا عليه ذلك، وقابلوه بالنكران والجحود، وحاربوه بكل ما لديهم من وسائل، ليس لأنه دعاهم إلى ربوبية الله كما يظن ذلك من يظنه من جهلة المسلمين، فكفار قريش كانوا مقرين بالربوبية في الجملة، وإنما أنكروا دعوته إلى توحيد الألوهية، فقالوا: ﴿ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ﴾، ومثلهم ما قال قوم هود: ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَاۖ ﴾ [الأعراف: ٧٠].

قال ابن عطية في التفسير: "ظاهر قولهم: ﴿ وَحۡدَهُۥ ﴾ أنهم أنكروا أن يتركوا أصنامهم ويفردوا العبادة لله مع إقرارهم بالإله الخالق المبدع، ويحتمل أن يكونوا منكرين لله ويكون قولهم: ﴿ لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ ﴾ أي: على قولك يا هود، والتأويل الأول أظهر فيهم وفي عباد الأوثان كلهم، ولا يجحد ربوبية الله تعالى من الكفرة إلا من أفرطت غباوته، كإربد بن ربيعة وإلا من ادعاها لنفسه كفرعون ونمرود" انتهى كلامه.

وكذلك قال قوم صالح لما أمرهم بالتوحيد وعبادة الله وحده لا شريك له -كما أخبر الله عنهم-: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ (٦١) قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ﴾ [هود: ٦١، ٦٢].

قال السعدي في تفسيره: "فلما أمرهم نبيهم صالح # ورغبهم في الإخلاص لله وحده، ردوا عليه دعوته، وقابلوه أشنع المقابلة: ﴿ قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآ ﴾ أي: قد كنا نرجوك ونؤمل فيك العقل والنفع، وهذه شهادة منهم لنبيهم صالح أنه ما زال معروفًا بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، وأنه من خيار قومه، ولكنه لما جاءهم بهذا الأمر الذي لا يوافق أهواءهم الفاسدة قالوا هذه المقالة التي مضمونها أنك قد كنت كاملًا، والآن أخلفت ظننا فيك وصرت بحالة لا يرجى منك خير، وذنبه ما قالوه عنه: ﴿ أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا ﴾.

وبزعمهم أن هذا من أعظم القدح في صالح، كيف قدح في عقولهم وعقول آبائهم الضالين، وكيف ينهاهم عن عبادة من لا ينفع ولا يضر ولا يغني شيئًا من الأحجار والأشجار ونحوها، وأمرهم بإخلاص الدين لله ربهم الذي لم تزل

نعمه عليهم تترى وإحسانه عليهم دائمًا، ينزل الذي ما بهم من نعمة إلا منه ولا يدفع عنهم السيئات إلا هو". انتهى كلام السعدي.

وقد بين الله تعالى في القرآن أن نبيه ﷺ كان إذا دعا قومه إلى التوحيد، المتضمن شهادة أن لا إله إلا الله، أنكروا ذلك، واشمأزت قلوبهم، واستكبروا، وولوا مدبرين، قال محمد الأمين الشنقيطي في (أضواء البيان): "قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٦] بيّن ﷻ في هذه الآية الكريمة أن نبيه ﷺ إذا ذكر ربه وحده في القرآن -بأن قال: لا إله لا الله- ولى الكافرون على أدبارهم نفورًا بغضًا منهم لكلمة التوحيد، ومحبة للإشراك به - جل وعلا.

وأوضح هذا المعنى في مواضع أُخر مبينًا أن نفورهم من ذكره وحده ﷻ سبب خلودهم في النار كقوله: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [الزمر: ٤٥] وقوله: ﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا ۚ فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴾ [غافر: ١٢]، وقوله: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴾ [الصافات: ٣٥، ٣٦]، وقوله: ﴿ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴾ [الشورى: ١٣]".

قال ابن كثير عند قوله تعالى: ﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ [النحل: ٢٢].

قال في تفسيره: "يخبر تعالى أنه لا إله إلا هو الواحد الأحد الفرد الصمد، وأخبر أن الكافرين تنكر قلوبهم ذلك، كما أخبر عنهم متعجبين من ذلك ﴿ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص: ٥] وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ

ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴾، وقوله: ﴿ وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ ﴾ أي عن عبادة الله مع إنكار قلوبهم لتوحيده كما قال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر: ٦٠]" انتهى كلامه.

معنى شهادة أن لا إله إلا الله، وذكر أركانها، ومقتضياتها، وفضائلها

لهذه الكلمة العظيمة ركنان هما: النفي، والإثبات.

فالركن الأول: "لا إله" وهو نفي العبادة عما سوى الله، وإبطال الشرك، ووجوب الكفر بكل ما يعبد من دون الله.

والركن الثاني: "إلا الله" وهو إثبات العبادة لله وحده، وإفراده سبحانه بجميع أنواع العبادة.

والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٥٦]. فقوله: ﴿ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ ﴾ معنى الركن الأول "لا إله"، وقوله: ﴿ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ ﴾ هو معنى الركن الثاني "إلا الله". فشهادة أن لا إله إلا الله تنفي أن يكون في الوجود معبود بحق غير الله ﷻ وتثبت العبادة له وحده لا شريك له.

فمن أتى بجانب النفي دون جانب الإثبات لا يكون مؤمنًا، ومن أتى بجانب الإثبات دون جانب النفي لا يكون مؤمنًا، بل لا بد للمرء أن يأتي بالركنين معًا.

قال ابن أبي العز في شرح (الطحاوية): "وإثبات التوحيد بهذه الكلمة باعتبار النفي والإثبات المقتضي للحصر، فإن الإثبات المجرد قد يتطرق إليه الاحتمال،

ولهذا -والله أعلم- لما قال تعالى: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ قال بعده: ﴿ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ١٦٣]؛ فإنه قد يخطر ببال أحد خاطر شيطاني هب أن إلهنا واحد فلغيرنا إله غيره فقال تعالى: ﴿ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴾" انتهى كلامه.

وكما قال تعالى عن أصحاب الكهف: ﴿ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴾ [الكهف: ١٦].

وقال تعالى عن نبيه إبراهيم ﷺ: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴾ [الزخرف: ٢٦، ٢٧]، وقال تعالى: ﴿ قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الشعراء: ٧٥- ٧٧]. فهو # يعلن عداوته واعتزاله لجميع الآلهة التي تعبد إلا الله تعالى المعبود بحق.

وقال الله تعالى أيضًا عن نبيه إبراهيم ﷺ: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٦- ٢٨]، وفي هذه الآية بيان واضح لمعنى لا إله إلا الله، وهي نص صريح في بيان معنى الإله، وأنه المعبود.

قال عبد الرحمن بن حسن في (قرة عيون الموحدين): "قوله: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴾ الآية. الكلمة هي لا إله إلا الله بإجماع أهل العلم، وقد عبر عنها الخليل # بمعناها الذي أريد به، فعبر عن المنفي بها بقوله: ﴿ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴾، وعبر عما أثبتته بقوله: ﴿ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ فقصر العبادة على الله وحده، ونفاها عن كل ما سواه ببراءته من ذلك، فما أحسن التفسير لهذه الكلمة وما أعظمه".

وليس الاستثناء في قوله: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى ﴾ رفعًا لما وقع، وإنما هو مبين أن المستثنى غير مراد بالكلام، فقد تبرأ من غير الله، لا أنه تبرأ منه أولًا ثم رجع عنه.

وفي هذا بيان معنى لا إله إلا الله، أي لا معبود حق إلا الله، فتضمنت هذه الكلمة العظيمة نفيَ الإلهية -أي: العبادة- عما سوى الله تعالى، وإثباتَها لله وحده لا شريك له، كما قال الله ﷻ: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [الحج: ٦٢].

وقال النبي ﷺ: ((من قال لا إله إلا الله، وكفر بما يعبد من دون الله، حرم ماله ودمه، وحسابه على الله ﷻ)) أخرجه مسلم.

وفي (الكليات) لأبي البقاء الكفوي أن هذا القول في معناها من أنه لا معبود مستحقٌ للعبادةِ والألوهيةِ إلا الله، هو القولُ الجامعُ، المندفع عنه الموانع.

ولهذه الكلمة فضائل لا تحصى، فهي كلمة الشهادة ومفتاح دار السعادة، وهي أصل الدين وأساسه، ورأس أمره، وساق شجرته، وعمود فسطاطه، وبقية أركان الدين وفرائضه متفرعة عنها متشعبة منها مكملات لها، مقيدة بالتزام معناها والعمل بمقتضاها، فهي العروة الوثقى التي قال الله ﷻ: ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ﴾ قاله سعيد بن جبير والضحاك.

وهي العهد الذي ذكر الله ﷻ إذ يقول: ﴿ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴾ [مريم: ٨٧] قال ذلك عبد الله بن عباس ﷺ قال: "هو شهادة أن لا إله إلا الله والبراءة من الحول والقوة إلا بالله، وأن لا يرجو إلا الله ﷻ".

وهـي الحسـنى الـتي قـال الله ﷻ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥- ٧] الآيات قاله أبو عبد الرحمن السلمي والضحاك، ورواه عطية عن ابن عباس.

وهـي كلمـة الحـق الـتي ذكـر الله ﷻ إذ يقـول تعـالى: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦] قال ذلك البغوي.

وهي كلمة التقوى التي ذكر الله ﷻ إذ يقول: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ [الفتح: ٢٦] روى ذلك ابن جرير وعبد الله بن أحمد والترمذي بأسانيدهم إلى أبي بن كعب ◊ عن النبي ﷺ.

وهي القول الثابت الذي ذكر الله ﷻ إذ يقول تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧] أخرجاه في الصحيحين عن البراء بن عازب ◊ عن النبي ﷺ.

وهي الكلمة الطيبة المضروبة مثلًا قبل ذلك إذ يقول تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ [إبراهيم: ٢٤] قاله علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: "أصلها ثابت في قلب المؤمن وفرعها العمل الصالح في السماء صاعد إلى الله ﷻ". وكذا قال الضحاك وسعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد وغير واحد.

وهي الحسنة التي ذكر الله ﷻ إذ يقول: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠] وقال تعالى: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾ [النمل: ٨٩] قال ذلك زين العابدين وإبراهيم النخعي، وعن أبي ذر مرفوعًا: ((هي أحسن الحسنات، وهي تمحو الذنوب والخطايا)).

وهـي المثـل الأعلـى الـذي ذكـر الله ﷻ إذ يقـول: ﴿ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الروم: ٢٧] قال ذلك قتادة ومحمد بن جرير ورواه مالك عن محمد بن المنكدر.

وهي سبب النجاة كما في (صحيح مسلم) أن النبي ﷺ سمع مؤذنًا يقول: أشهد أن لا إله إلا الله فقال ﷺ: ((خرجت من النار)). وفيه عن عبادة بن الصامت > قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله حرم الله عليه النار)) وفي حديث الشفاعة الآتي إن شاء الله تعالى: ((أخرجوا من النار من قال لا إله إلا الله وكان في قلبه مثقال ذرة من إيمان)).

وهي سبب دخول الجنة كما في الصحيحين عن عبادة بن الصامت > قال: قال رسول الله ﷺ: ((من قال أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله وابن أمته وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وأن الجنة حق وأن النار حق أدخله الله الجنة من أي أبواب الجنة الثمانية شاء)) وفي رواية: ((أدخله الله الجنة على ما كان من عمل)).

وهي أفضل ما ذُكر الله ﷻ به، وأثقل شيء في ميزان العبد يوم القيامة، كما في (المسند) عن عبد الله بن عمرو } عن النبي ﷺ: ((إن نوحًا # قال لابنه عند موته: آمرك بلا إله إلا الله، فإن السموات السبع والأرضين السبع لو وضعن في كِفة، ووضعت لا إله إلا الله في كفة لرجحت بهن لا إله إلا الله، ولو أن السموات السبع والأرضين السبع كل حلقة مبهمة لفصمتهن لا إله إلا الله)).

وهي الأمان من وحشة القبور وهول الحشر كما في (المسند) وغيره عن النبي ﷺ قال: ((ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة في قبورهم، ولا في نشورهم، وكأني

بأهل لا إله إلا الله وقد قاموا ينفضون الترابَ عن رءوسهم يقولون: الحمد لله الذي أذهب عنا الحَزن)).

واعلم أن النصوص الواردة في فضل هذه الشهادة كثيرة لا يحاط بها وفيما ذكرنا كفاية. على أنه في بعض هذه النصوص التي ذكرنا ضعف من حيث إسنادها، ولكن يشهد لمعناها ما صح وذكر في البخاري ومسلم وغيره من السنن من الروايات والآثار الصحيحة.

مقتضيات لا إله إلا الله:

اعلم أن المراد بالنصوص السابقة في فضل لا إله إلا الله، وأنها سبب لدخول الجنة، والنجاة من النار، ومقتض لذلك، ولكن المقتضي لا يعمل عمله إلا باستجماع شروطه، وانتفاء موانعه، فقد يتخلف عنه مقتضاه لفوات شرط من شروطه، أو لوجود مانع، وهذا كما قيل للحسن: إن ناسًا يقولون: من قال لا إله إلا الله دخل الجنة؟ فقال: "من قال: لا إله إلا الله فأدى حقها وفرضها دخل الجنة".

وقال وهب بن منبه لمن سأله: أليس مفتاح الجنة لا إله إلا الله؟ قال: "بلى، ولكن ما من مفتاح إلا له أسنان، فإن أتيت بمفتاح له أسنان فتح لك، وإلا لم يفتح لك".

وعليه فهذه بعض مقتضيات لا إله إلا الله:

فمقتضاها إخلاص العبادة لله وحده، والإيمان بأنه المعبود بحق، وأنه رب العالمين وأنه الخلاق العليم، وأنه المستحق لأن يعبد ويطاع أمره، وتقتضي أن يعلم العبد

بأن الله هو خالق العبد، وأنه أعد له جنة ونارًا وأنه لا بد من لقاء ربه، فإما الجنة وإما النار، فهذه الكلمة هي أصل الدين وأساس الملة وهي العروة الوثقى فلا بد من الإيمان بها واعتقاد معناها، وأنه لا معبود حق إلا الله تعالى، وهذا الاعتقاد يقتضي طاعة الأوامر وترك النواهي لله الحق الذي آمنت بأنه معبود بالحق.

فهي تقتضي أن تؤدي حقه، بأن تعبده بصلاتك وصومك وزكاتك وحجك وصيامك وغير ذلك، لأن التأله التعبد، معنى لا إله إلا الله، يعني لا مألوه حق إلا الله، أي لا معبود حق إلا الله، فالواجب عليك أن تألهه، بأن تعبده في صلاتك وصومك وزكاتك وحجك وجهادك وسائر عباداتك، تخص بها ربك ﷻ وتعبده وحده، ترجو ثوابه وتخشى عقابه، وهكذا من مقتضياتها أن تؤمن بما حرم الله عليك من الشرك والمعاصي وأن تبتعد عن ذلك وتحذر ذلك.

بيان خطأ المتكلمين في معنى شهادة أن لا إله إلا الله

ذكرنا -فيما سبق- معنى الألوهية وهي العبادة، وأن الإله هو المعبود كما قال ابن عباس } : "الله ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين". رواه ابن جرير من طريق الضحاك عنه مرسلًا. وعليه قراءة ابن عباس وغيره: "ويذرك وإلهتك" بكسر الهمزة، أي عبادتك، لأنه كان يُعبد من قبل قومه. كما قرره ابن جرير في (التفسير).

قال الجوهري في (الصحاح) مادة "أله": "ومنه قولنا: "الله"، وأصله: إله، على فعال، بمعنى: مفعول؛ لأنه مألوه بمعنى: معبود".

وعلى هذا فقد غلط غلطًا شديدًا، من ظن من أئمة المتكلمين أن التوحيد هو مجرد توحيد الربوبية، وهو اعتقاد أن العالم له صانع واحد، والتصديق بأن الله

وحده خالق الأشياء حيث ظنوا أن الإله بمعنى الآلِه اسم فاعل، وأن الإلهية هي القدرة على الاختراع كما في (أصول الدين) للبغدادي وشرح (أسماء الله الحسنى) للرازي، فهؤلاء لم يعرفوا حقيقة التوحيد، الذي بعث الله به رسله، وأنزل به كتبه، فإن المشركين كانوا مقرين بأن الله وحده خالق كل شيء، وكانوا مع ذلك مشركين كما قال الله ﷻ: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٦].

قال جماعة من السلف: "تسألهم من خلق السموات والأرض؟ فيقولون: الله، وهم مع هذا يعبدون غيره" وقال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ [لقمان: ٢٥]. فالإله الحق هو المألوه الذي يستحق أن يعبد، ولا يستحق أن يؤله ويعبد إلا هو ﷻ، وكل معبود سواه باطل، فالتوحيد أن يُعبد الله وحده لا شريك له، والإشراك أن يُجعل مع الله إله آخر.

شروط كلمة التوحيد لا إله إلا الله، والأدلة عليها

الأول: العلم بمعناها المراد منها نفيًا وإثباتًا المنافي للجهل بذلك. قال الله تعالى: ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ [محمد: ١٩]، وقال تعالى: ﴿ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ ﴾ [الزخرف: ٨٦] أي بلا إله إلا الله ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٦] بقلوبهم معنى ما نطقوا به بألسنتهم.

وفي الصحيح عن عثمان > قال: قال رسول الله ﷺ: ((من مات وهو يعلم ألا إله إلا الله دخل الجنة)).

الثاني: اليقين المنافي للشك بأن يكون قائلها مستيقنًا بمدلول هذه الكلمة يقينًا جازمًا، فإن الإيمان لا يغني فيه إلا علم اليقين لا علم الظن، فكيف إذا دخله

الشك؟! قال الله ﷻ: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ [الحجرات: ١٥]، فاشترط في صدق إيمانهم بالله ورسوله كونهم لم يرتابوا، أي: لم يشكوا، فأما المرتاب فهو من المنافقين.

الثالث: القبول المنافي للرد لما اقتضته هذه الكلمة لقول الله تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴾ [الصافات: ٣٥، ٣٦]، فمن رد دعوة التوحيد، ولم يقبلها كبرًا وحسدًا، فهو كافر سواء كان استكبارًا، أو عنادًا، أو غير ذلك من أسباب الرفض كحال علماء أهل الكتاب.

الرابع: الانقياد لما دلت عليه المنافي لترك ذلك. قال الله ﷻ: ﴿ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ ﴾ [الزمر: ٥٤] وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ [النساء: ١٢٥] وقال تعالى: ﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ﴾ [لقمان: ٢٢] أي بلا إله إلا الله. ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ [لقمان: ٢٢] ومعنى: ﴿ يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ ﴾ أي ينقاد وهو محسن موحد، ومن لم يسلم وجهه إلى الله ولم يك محسنًا فإنه لم يستمسك بالعروة الوثقى.

الخامس: الصدق فيها المنافي للكذب، وهو أن يقولها صدقًا من قلبه يواطئ قلبه لسانه. قال الله ﷻ: ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [العنكبوت: ١- ٣] إلى آخر الآية. وقال تعالى في شأن المنافقين الذين قالوها كذبًا: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ

ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴾ [البقرة: ٨- ١٠].

وفي الصحيحين عن معاذ بن جبل > عن النبي ﷺ: ((ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله صدقًا من قلبه، إلا حرمه الله على النار)) فاشترط في إنجاء من قال هذه الكلمة من النار أن يقولها صدقًا من قلبه، فلا ينفعه مجرد اللفظ بدون مواطأة القلب.

السادس: الإخلاص، وهو تصفية العمل بصالح النية عن جميع شوائب الشرك، قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾ [الزمر: ٣]. وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ﴾ [البينة: ٥] الآية. وقال تعالى: ﴿ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾ [الزمر: ٢]. وفي الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: ((أسعد الناس بشفاعتي من قال: لا إله إلا الله خالصًا من قلبه، أو نفسه)). وفي "الصحيح" عن عتبان بن مالك > عن النبي ﷺ قال: ((إن الله حرم على النار من قال: لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله ﷻ)).

السابع: المحبة لهذه الكلمة ولما اقتضته ودلت عليه ولأهلها العاملين بها الملتزمين لشروطها، وبغض من ناقض ذلك. قال الله ﷻ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥]. وقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ﴾ [المائدة: ٥٤].

فأخبرنا الله ﷻ أن عباده المؤمنين أشد حبًا له؛ وذلك لأنهم لم يشركوا معه في محبته أحدًا، كما فعل مدعو محبته من المشركين الذين اتخذوا من دونه أندادًا يحبونه

كحبه، وعلامة حب العبد ربه تقديم محابه وإن خالفت هواه، وبغض ما يبغض ربه وإن مال إليه هواه، وموالاة من والى الله ورسوله ومعاداة من عاداه، واتباع رسوله ﷺ واقتفاء أثره، وقبول هداه، وكل هذه العلامات شروط في المحبة لا يتصور وجود المحبة مع عدم شرط منها، وقال رسول الله ﷺ: ((ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار)) أخرجاه البخاري ومسلم من حديث أنس.

نواقض شهادة أن لا إله إلا الله

عناصر الدرس

المـــراد بنـــواقض شـــهادة أن لا إلـــه إلا الله

بعد الانتهاء من شروط التوحيد الذي هو مضمون لا إله إلا الله، فاعلم أنه يلزمك تعلم نواقص التوحيد، أي تعلم الإسلام وما يناقضه أيضًا؛ حتى لا يقعَ المسلمُ فيها وهو لا يعلم- والعياذ بالله- وكما قيل: والضد يظهر حسنه الضد وبضدها تتبين الأشياء.

النواقض: جمع ناقض، اسم فاعل، والنقض في الأصل: حل المبرم وإفساده، من نقضت الشيء، إذا أفسدته، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا ﴾ [النحل: ٩١]، وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا ﴾ [النحل: ٩٢].

فنواقض الإسلام هي مفسداته ومبطلاته التي متى طرأت عليه أفسدته وأحبطت العمل، وصار صاحبه من المخلدين في النار -والعياذ بالله- كالحدث إذا دخل في الطهارة أفسدها وأبطلها.

وقد جمعها الشيخ محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله تعالى- عشرة نواقض حتى يسهل على الناس معرفتها، وقد ذكر هذه العشرة لأهميتها؛ لأن الأغلب يقع في هذه النواقض، وهي أكثر من ذلك كما يذكره الفقهاء في كل باب حكم المرتد، وهو المسلم الذي يكفر بعد إسلامه- نسال الله العافية والسلامة- ولذلك وجب على كل مسلم أن يخاف على دينه أكثر مما يخاف على نفسه وعلى ماله، فيخاف أن يقع في فتنة الشهوات أو الشبهات؛ لأنهما سبب خروج الإنسان عن دينه والعياذ بالله. يقول النبي ﷺ: ((إنها ستكون فتن كقطع الليل المظلم، يصبح

الرجل مؤمنًا ويمسي كافرًا ويمسي مؤمنًا ويصبح كافرًا يبيع دينه بعرض من الدنيا)).

فالمسلم ما دام على قيد الحياة فإنه معرض للفتن ومعرض للردة عن دين الله، لهذا كان إمام الحنفاء الخليل ﷺ يدعو ربه فيقول: ﴿ وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ۝٣٥ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [إبراهيم: ٣٥، ٣٦]، فهذا الخليل الذي كسر الأصنام بيده وأوذي وألقي في النار يخاف على نفسه من هذه الفتنة، ويتضرع إلى ربه بأن يجنبه إياها، وهذا نبينا محمد ﷺ وهو أكمل الناس إيمانًا وأكملهم توحيدًا يخاف على نفسه، فيدعو ويقول: ((يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك)) فتقول له عائشة < : "تخاف على نفسك؟" فيقول الرسول ﷺ: ((يا عائشة وما يؤمنني وقلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن)).

فإذا كان الخليلان إبراهيم ومحمد -صلوات الله وسلامه عليهما- خافَا على دينهما، فالواجب ممن هو دونهما أن يخاف أكثر، والخوف وحده لا يكفي فلا بد أن يكون مع الخوف من عمل يقيه من هذه الفتنة، ولا ينجو المرء من فتنة الشبهات والشهوات إلا بالتعلم؛ لأن الجاهل قد يقع في هذه النواقض وهو لا يدري فيقلد الناس ومن يحسن بهم الظن فيفعل مثل فعلهم، وأما العالم الرباني فإنه ينفعه علمه بإذن الله ويتجنب هذه الأمور، ومن كان بالله أعرف كان من الله أخوف، فلابد من تعلم التوحيد والعمل به وتعلم نواقض الإسلام حتى يتجنبها ولا يقع فيها، كما قال حذيفة بن اليمان < : "كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني".

والله ﷻ جعل للإسلام بابًا يدخل منه الناس، وهو النطق والإقرار بالشهادتين، والتزام شروطهما، فمن دخل من هذا الباب كان مسلمًا، ولا يخرج من الإسلام

إلا أن يصدر عنه قول أو عمل أو اعتقاد يناقض إقراره السابق، فمن قصد قولًا أو فعلًا يطعن في ربوبية الله، أو في ألوهيته، أو في أسمائه وصفاته، أو يطعن في الرسول ﷺ أو في شيء مما جاء به واتفق عليه الصحابة والتابعون، فقد نقض بذلك إقراره السابق، وخرج من دين الله تعالى.

فكل قول أو اعتقاد فيه إنكار أو جحد أو نقض لخصائص الربوبية التي يختص بها الله ﷻ أو بعضها كالخلق والرزق والتدبير والإحياء والإماتة، ونحوها، أو فيه إلحاد في أسماء الله وصفاته، فهو من نواقض الإيمان.

ومن أشرك مع الله تعالى غيره في العبادة، وجعل له أندادًا يحبهم ويخافهم ويرجوهم كحب الله وخوفه ورجائه، أو صرف شيئًا من العبادات لغير الله ﷻ أو قال قولًا أو فعل فعلًا أو اعتقد شيئًا يتضمن إنكار هذا الحق المختص بالله ﷻ فهو من نواقض الإيمان.

ومثل ذلك من طعن في رسالة محمد ﷺ أو أنكرها أو جحدها، أو انتقصها، أو أنكر البعث والنشور، أو الملائكة، أو الجنة والنار، أو نحوها مما هو معلوم من هذا الدين بالضرورة، فهو من نواقض الإيمان.

وكذلك من أنكر ما أرسل الله به محمدًا ﷺ وأعرض عن الكتاب والسنة جحودًا واستكبارًا، أو أنكر معلومًا من الدين بالضرورة، فهو من نواقض الإيمان.

على أنه ينبغي أن يعلم أن هذا الباب من دقائق العلوم الشرعية، حيث لا ينبغي المسارعة بالحكم والكفر والردة، بل هو موكول لأهل العلم الربانيين، الذين لهم قدم صدق في العلم والاجتهاد، فالمسلم لا يجوز إخراجه من الملة إلا بدليل بين وواضح، وبرهان قاطع من الله تعالى.

كما يجب التنبه إلى أن بعض النواقض لا يكفي فيها الإجمال المذكور هنا عند التعيين؛ لأنه يجب التفريق بين التكفير المطلق، أو الإجمالي، وبين التكفير العيني، الذي يستوجب لإجرائه وتحقيقه إيفاء شروطه، وانتفاء موانعه، وهذا من مسائل الأسماء والأحكام التي زلت فيها قدم كثير من الناس، وجرت الويلات والفتن على هذه الأمة، نسأل الله السلامة.

وينقض إيمان الشخص، ويخرج من الملة بالكفر والنفاق الاعتقادي، والشرك الأكبر. فمن وقع في شيء من أنواع الكفر كالشك والإعراض والجحود والتكذيب والإباء والاستكبار، أو وقع في شيء من الشرك، بأن يصرف شيئًا من أنواع العبادة لغير الله تعالى، أو أظهر الإسلام وأبطن الكفر، فقد كفر وخرج من الملة، وهو خالد مخلد في النار إن مات على ذلك، وسيأتي ذكر أنواع الشرك وأحكامه.

والنواقض من حيث الإجمال عشرة:

أولًا: الشرك في عبادة الله ومن ذلك دعاء الأموات والاستغاثة بهم.

ثانيًا: من جعل بينه وبين الله وسائط يدعوهم ويسألهم الشفاعة ويتوكل عليهم.

ثالثًا: من لم يكفر المشركين أو شك في كفرهم أو صحح مذهبهم فقد كفر.

رابعًا: من اعتقد أن هدي غير النبي ﷺ أكمل من هديه، أو أن حكم غيره أحسن من حكمه، كالذين يفضلون حكم الطواغيت على حكمه فقد كفر.

خامسًا: من أبغض شيئًا مما جاء به الرسول ﷺ ولو عمل به فقد كفر، كما قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [محمد: ٩].

سادسًا: من استهزأ بشيء من دين الرسول أو ثوابه أو عقابه فقد كفر، والدليل قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ﴾ [التوبة: ٦٥، ٦٦].

سابعًا: السحر ومنه الصرف والعطف فمن فعله أو ارتضى به كفر، والدليل قوله: ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾ [البقرة: ١٠٢].

ثامنًا: مظاهرة المشركين ومعاونتهم على المسلمين، والدليل قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [المائدة: ٥١].

تاسعًا: من اعتقد أن بعض الناس يسعه الخروج عن شريعة محمد ﷺ لقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥].

عاشرًا: الإعراض عن دين الله لا يتعلمه ولا يعمل به، والدليل قوله ﷻ: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾ [السجدة: ٢٢].

ذكر النواقض العشرة على سبيل التفصيل

سبق أن بينا أن نواقض شهادة أن لا إله إلا الله كثيرة، ولكن يجمعها هذه العشرة التي سنذكرها تفصيلًا:

الأول: الشرك بالله، والمراد به هنا: الشرك الأكبر المخرج من الملة الذي لا يغفره الله لمن مات عليه، وهو جعل شريك مع الله في حقه تعالى من العبودية والربوبية، بل وفي أسمائه وصفاته، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ

﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ [النساء: ١١٦]، وقال: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الزمر: ٦٥، ٦٦]

ومن الشرك الذبح لغير الله والنذر لغير الله؛ لأنهما عبادتان لا يجوز صرفهما لغير الله.

فمن ذبح لغير الله على وجه التعبد والنسك والتقرب فقد أشرك به غيره، قال تعالى: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴾ [الكوثر: ٢]، وقال: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]، والنسك هو الذبح على وجه التعبد والتقرب، وقال ﷺ: ((لعن الله من ذبح لغير الله)) رواه مسلم، وقال أيضًا: ((من نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصيه فلا يعصه، فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله))، وقال تعالى عن عباده: ﴿ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ ﴾ [الإنسان: ٧] أي: الذي يتعبدون به لله رب العالمين.

والشرك الأكبر ينقسم بدوره إلى أربعة أقسام:

أولًا: شرك الدعاء: أي الدعاء والدليل قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٥] يخبر تعالى عن الكفار المشركين به أنهم إذا كانوا في البحر على السفن، التي سخرها الله لهم تسير بهم حيث شاءوا بسهولة، فإذا جاءتهم ريح عاصف، وجاءهم الموج من كل مكان، وتيقنوا بالهلاك لجئوا حينئذ إلى الله وحده في كشف كربتهم؛ لعلمهم أنه لا ينجيهم إلا هو وحده، فيخلصون له الدين والدعاء

بالتضرع والبكاء ويتركون آلهتهم كلها، ويقولون: لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين، فيستجيب دعاءهم الذي يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويوصلهم إلى مطلوبهم سالمين، فإذا نزلوا عن السفينة عادوا إلى شركهم وكفرهم ودعوا غير الله.

ثانيًا: شرك النية والإرادة والقصد: والدليل قوله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝١٥ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [هود: ١٥، ١٦].

ثالثًا: شرك الطاعة: والدليل قوله تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣١].

وقال تعالى: ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢١] فطاعتهم في اتخاذ الأنداد، والمعبودات من دون الله تعالى لا ريب أنه شرك مخرج من الملة، وعلى هذا المعنى جاء قول الله ﷻ: ﴿ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٢٦].

رابعًا: شرك المحبة، والدليل قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وهذه الأنواع سيأتي تفصيلها، وإنما ذكرناها هنا على سبيل التمثيل والاختصار.

الثاني: من جعل بينه وبين الله وسائطَ يدعوهم، ويسألهم الشفاعة ويتوكل عليهم. كفرَ إجماعًا كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية فمن جعل وسائط من الخلق يقربونه إلى الله، وهو يتقرب إليهم بالعبادة من دعاء واستغاثة وتقرب بذبح

وسؤال شفاعة، أي وساطة عند الله أو يتوكل عليهم في شئونه، ويعتقد بهم النفع والضر فقد كفر. قال الله ﷻ: ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ [الزمر: ٣]، وقال سبحانه: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـٰٓؤُلَآءِ شُفَعَـٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [يونس: ١٨]، وقال سبحانه: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٦].

الثالث: من لم يكفر المشركين، أو شك في كفرهم، أو مذهبهم كفر، لأنه في ذلك شاك فيما هو عليه من الإسلام الذي لا يرتضي الله غيره فمن شك في كفر من عبد غير الله، أو صرف له شيئًا من العبادة، أو شك في كفر اليهود والنصارى والوثنيين، أو أنهم في النار إن ماتوا على ذلك، أو صحح شيئًا من مذاهب المشركين وأعمالهم التي نص الدليل على كفر فاعليها من علمهم بذلك، فقد كفر.

ولا بد أولًا أن نعرف معنى الكفر وأنواعه، فمن لم يعلم من هو الكافر كيف يكفره فالأولى أن يتعلم من هو الكافر أولًا.

والتكفير حكم شرعي فلا نكفر إلا من حكم الله له بالكفر من فوق سبع سموات، فمن اعتقد أو قال أو فعل ما حكم به الله ﷻ كفر، فهو كافر ولا يحق لشخص أن يكفر شخصًا آخر على حسب هواه أو غضبًا لنفسه، وإنما نكفِّر كلَّ مَن حكَمَ عليه الشارع بالكفر.

وجِماع الكفر خمسة أقسام:

أولًا: كفر التكذيب، وهو الذي أخبر الله عنه في قوله: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٨].

ثانيًا: كفر الإباء والاستكبار مع التصديق القلبي، وذلك الذي في قول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٣٤].

ثالثًا: كفر الشك، وهو الذي في قول الله تعالى: ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ۝٣٥ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ۝٣٦ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴾ [الكهف: ٣٥- ٣٧].

رابعًا: كفر الإعراض، وهو الذي في قول الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ﴾ [الأحقاف: ٣]، وقوله: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾ [السجدة: ٢٢].

خامسًا: كفر النفاق، وهو الذي في قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ [المنافقون: ٣]، وقوله سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾ [النساء: ١٤٥].

الرابع: من اعتقد أن غير هدي النبي ﷺ أكمل من هديه، وأن حكمه أحسن من حكمه، فقد كفر، كالذي يفضل حكم القوانين، أو الأعراف العشائرية على حكم شريعة الإسلام، أو يعتقد جواز الحكم بها، أو أنها مثل الشريعة

الإسلامية، كل هذا كفر بالله العظيم لقول الله ﷻ: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥]، وقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ [النساء: ٦٠].

الخامس: من أبغض شيئًا مما جاء به الرسول ﷺ ولو عمل به كفر، كما قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥]، فمن أبغض الصلاة كفر، ولو عمل بها؛ لأنه لم يُجب ما أمر الله به، ومن شروط لا إله إلا الله المحبة لكل ما جاء عن لا إله إلا الله من مقتضيات وأوامر وشرائع، وشروطها القبول أيضًا، فمن أبغض ما جاء به الرسول ﷺ لم يحقق معنى شهادة أن محمدًا رسول الله؛ لأن مقتضاها التسليم لِمَا جاء به الرسول ﷺ وانشراح الصدر به، ولما جاء في الحديث: ((لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده، وولده، والناس أجمعين)) متفق عليه، ومحبته تقتضي اتباعه، والانقياد له، والتسليم لأمره، فمن أبغض شيئًا من الشريعة كفر، ولو عمل بها.

السادس: من استهزأ بشيء من دين الرسول ﷺ أو بثوابه، أو بعقابه كفر؛ لأنه لم يوقر هذا الدين الذي يجب عليه توقيره وتوقير من جاء به، لأن الله حكم على أناس -كانوا مؤمنين- بالكفر لما استهزءوا برسول الله ﷺ وأصحابه، وقالوا: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطونًا وأكذب ألسنة وأجبن عند اللقاء، فأنزل الله فيهم: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا

تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡۚ ﴾ [التوبة: ٦٥، ٦٦] فالله حكم بكفرهم مع أنهم كانوا قبل ذلك مؤمنين، ويدل عليه قوله: ﴿ لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡۚ ﴾ فأثبت لهم إيمانًا قبل أن يقولوا ما قالوا، وكفرهم مع أنهم قالوها على وجه اللعب والمزاح والهزل، ويريدون أن يقطعوا بها عناء الطريق.

وأمر الله تعالى بالإعراض عن من بدر منه هذا الاستهزاء، أو عن المجلس الذي يقع فيه هذا الاستهزاء، وذلك في قوله: ﴿ وَقَدۡ نَزَّلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أَنۡ إِذَا سَمِعۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكۡفَرُ بِهَا وَيُسۡتَهۡزَأُ بِهَا فَلَا تَقۡعُدُواْ مَعَهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦٓۚ إِنَّكُمۡ إِذٗا مِّثۡلُهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ [النساء: ١٤٠].

السابع: السحر، والسحر كفر، وهو عزائم ورقى وعقد تؤثر في القلوب والأبدان، فيقتل ويفرق بين المرء وزوجه كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشۡتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖ ﴾ [البقرة: ١٠٢] أي: نصيب، وقال قبلها: ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنۡ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحۡنُ فِتۡنَةٞ فَلَا تَكۡفُرۡ ﴾ [البقرة: ١٠٢].

وقال ﷺ: ((اجتنبوا السبع الموبقات. قالوا: يا رسول الله وما هن؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات)). متفق عليه من حديث أبي هريرة. وقال ﷺ: ((مَن عقَد عقدةً ثم نفث فيها فقد سحر، ومن سحر فقد أشرك)). رواه النسائي من حديث أبي هريرة.

ومن السحر التنجيم، والاستدلال بالأفلاك على الحوادث الأرضية، لما روى أبو داود بسند صحيح عن ابن عباس > أن رسول الله ﷺ قال: ((من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر، زاد ما زاد))، وقال تعالى: ﴿ وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ ﴾ [طه: ٦٩]. قال شيخ الإسلام ابن تيمية في (الاختيارات):

"والتنجيم كالاستدلال بأحوال الفلك على الحوادث الأرضية، وهو من السحر ويحرم إجماعًا". ومن السحر الصرف والعطف؛ صرف المتحابين عن بعضهما وعطفهما على بعضهما.

الثامن: مظاهرة المشركين، ومعاونتهم ضد المسلمين، وهو التولي المذكور في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [المائدة: ٥١]، والتولي غير الموالاة، فإن الموالاة هي في الميل والصحبة والمحبة وهي من كبائر الذنوب ودون الكفر، أما التولي فهو النصرة ضد المسلمين، والكيد معهم ضد المسلمين كحال المنافقين، ويدل عليه أيضًا قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةٗ وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلٗا ﴾ [النساء: ٩٧، ٩٨].

التاسع: مَن ظن أن أحدًا يسعه الخروج عن شريعة محمد ﷺ كما وسع الخضر الخروج عن شريعة موسى، كفر، لأن شريعة الإسلام التي بعث بها محمد ﷺ مهيمنة على الشرائع كلها ناسخة لها، والله لا يقبل إلا ما كان من الإسلام، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقال: ﴿ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥]، وقال: ﴿ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣١﴾ قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٣١، ٣٢]. وقال ﷺ: ((والله لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم لا يؤمن بي إلا دخل النارَ)).

فما يزعمه غلاة الصوفية من خروج الأولياء -عندهم- عن اتباع محمد ﷺ هو عين الكفر والخروج عن الإسلام، ومثلهم مَن يدعي من أهل هذا العصر ممن يقول: إن هذه الشريعة لا تصلح لهذا الزمن، ولا فائدةَ منها في هذا الوقت، وإنما هي تشريعات ولى عهدها، ومضت فائدتها!!

العاشر: مَن أعرضَ عن دين الله جملةً ولم يعمل به، فقد كفر إذا كان إعراضه كليًّا عن تعلم الإسلام وتفهمه، وأعرض عن العمل بالإسلام كليًّا، واستغنى بما هو عليه من الكفر، وإذا دعي للإسلام، أو لتعليمه إياه أعرض وكفر، أو علم، ثم أعرض عن العمل به وقبوله كفر، كما قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴾ [الكهف: ٥٧]، وقال سبحانه: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾ [السجدة: ٢٢].

(العبادةُ أنواعها، وأركانها، ومراتبها)

عناصر الدرس

تعريـف العبـادة لغـةً وشـرعًا

العبادة في اللغة يدور معناها على الذلّ والخضوع والسهولة. قال الزجاج: "ومعنى العبادة في اللغة: الطاعة مع الخضوع".

قال الجوهري في (الصحاح): "تقول: عبد بين العبودة والعبودية، وأصل العبودية الخضوع والذل، والتعبيد: التذليل، يقال: طريق معبّد، والبعير المعبّد المهنوء بالقطران: المذلل... إلى أن قال: والعبادة: الطاعة، والتعبد: التنسك".

وقال الراغب في (مفردات القرآن): "العبودية: إظهار التذلل، والعبادة أبلغ منها؛ لأنها غاية التذلل، ولا يستحقها إلّا من له غاية الإفضال، وهو الله تعالى، ولهذا قال: ﴿ ک ک گ گ ﴾ [يوسف: ٤٠]، ويقال: طريق معبّد، أي: مذلل بالوطء، وبعير معبد: مذلل بالقطران، وعبّدت فلانًا إذا ذللته، وإذا اتخذته عبدًا، وقال تعالى: ﴿ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الشعراء: ٢٢].

وقال الفيومي في (المصباح المنير): "عبدتُ الله أعبده عبادة، وهي الانقياد والخضوع، والفاعل عابد، والجمع عبادة وعَبَدَة، مثل كافر، وكفار، وكَفَرَة، ثم استعمل فيمن اتخذ إلها غير الله، وتقرّب إليه، فقيل: عابد الوثن والشمس، وغير ذلك".

الفرق بين العبادة والطاعة:

قال العسكري في (الفروق): "الفرق بين العبادة والطاعة: أن العبادة غاية الخضوع، ولا تستحق إلّا بغاية الإنعام، ولهذا لا يجوز أن يعبد غير الله تعالى، ولا تكون العبادة إلّا مع المعرفة بالمعبود. والطاعة: الفعل الواقع على حسب ما

أراده المريد، متى كان المريد أعلى رتبةً ممن يفعل ذلك، وتكون للخالق والمخلوق، والعبادة لا تكون إلّا للخالق، والطاعة في مجاز اللغة تكون اتباع المدعو الداعي إلى ما دعاه إليه، وإن لم يقصد التبع كالإنسان، ويكون مطيعًا للشيطان وإن لم يقصد أن يطيعه، ولكنه اتبع دعاءه وإرادته.

ومجاز الطاعة الذي ذكره العسكري لا يختص بها، بل تستعمل فيه العبادة أيضًا، ففي الكتاب العزيز: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [يس: ٦٠]، وفي قوله: ﴿ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴾ [مريم: ٤٤]، وقال الأعشى:

.... ❖ ولا تعبد الشيطان والله فاعبدا

تحرير القول في العبادة لغةً وشرعًا:

ودل كلام هؤلاء الأئمة:

أولًا: أنّ العبادة كيفما عبر عنها، وكيفما تصرفت في الاستعمال، تحمل معنى الذل والسهولة، فالعبد المملوك ذليل بالرق، والطريق المعبّد سهل على المارة، وتفسير العبادة بالانقياد والخضوع؛ لأنهما لازمان للذل والسهولة، وتفسيرها بالطاعة توسع. والعبارة المعربة عن العبادة هي ما يعبر عنه الجمع بين كلام (المصباح)، أوله وآخره، وهو الانقياد والخضوع على وجه التقريب.

ثانيًا: أنّ سببها الذي تُستحق به هو الإنعام والإفضال.

ثالثًا: أنّ شرطها معرفة المعبود.

رابعًا: أن مستحقها هو الله وحده.

والتعريف الذي استخلصناه من (المصباح) يتضمن ذلك كله ؛ فإن الانقياد والخضوع إلى أحد يبعث عليهما الرغبة، فيما يملك من نعمة، والتقرب إليه يستدعي معرفته، ثم من اعتقد انفراد الله بالنعم، تقرب إليه وحده بالعبادة، ومن جهل فظنّ غير الله منعمًا بشيء، اعتقد استحقاقه أيضًا للعبادة فوقع في الشرك، فكان هذا التعريف أصدق عبارة عن معنى العبادة.

ويمكن أن نسوق بعض التعريفات للعلماء نستشف من خلالها تعريفًا جامعًا شاملًا للعبادة، مع مراعاة مختلف الاعتبارات الشرعية التي تتضمنها هذه التعريفات:

فقيل: العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.

وقيل: هي كمال المحبة مع كمال الخضوع.

وقيل: العبادة روحُها وحقيقتُها تحقيقُ الحبِّ والخضوع لله ؛ فالحب التام والخضوع الكامل لله هو حقيقة العبادة، فمتى خلت العبادة من هذين الأمرين، أو من أحدهما فليست عبادة ؛ فإن حقيقتها الذل والانكسار لله، ولا يكون ذلك إلا مع محبته المحبة التامة التي تتبعها المحاب كلها.

وقيل في تعريفها أيضًا: العبادة والعبودية لله اسم جامعٌ لكل ما يحبه الله ويرضاه من العقائد، وأعمال القلوب، وأعمال الجوارح، فكل ما يقرب إلى الله من الأفعال والتروك فهو عبادة، ولهذا كان تارك المعصية لله متعبدًا متقربًا إلى ربه بذلك. وهذا أشبه ما يكون للتفصيل للتعريف الأول.

وقيل في تعريفها أيضًا: التذلل لله محبة وتعظيمًا بفعل أوامره، واجتناب نواهيه على الوجه الذي جاءت به شرائعه.

إطلاقـــــات العبـــــادة

بناء على ما سبق يكون للعبادة إطلاقان: الفعل الذي هو التَّعَبُّد، والمفعول وهو المُتَعَبَّدُ به أو القربة.

مثال ذلك: الصلاة، ففعلها عبادة وهو التعبد، وهي نفسها عبادة وهي المتعبَّد به. فعلى الإطلاق الثاني تُعَرَّف العبادة بتعريف الأول، وعلى الإطلاق الأول تُعَرَّف بالتعريف الأخير.

وباقي التعريفات -كما تقدمت الإشارة إليه- هو كالتفصيل والبيان للتعريف الأول والأخير.

الفرق بين العبادة وتوحيد العبادة:

الفرق بينهما ظاهر؛ فالعبادة هي ذات القربة أو فعلها، أما توحيدها فصرفها لله وحده لا شريك له.

أنـــــواع العبـــــادة

اعلم أن العبادة نوعان:

النوع الأول: عبادة عامة كونية.

النوع الثاني: عبادة خاصة شرعية.

أمّا العبادة العامة الكونية، وهي عبادة القهر والملك، المتضمنة الخضوع لأمر الله تعالى الكوني، وهي شاملة لجميع الخلق مؤمنهم وكافرهم، لا يخرج عنها أحد، فالجميع عبيد مربوبون لله تعالى، كما قال ﷻ: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ﴾ [مريم: ٩٣]، فهذا شامل للمؤمن والكافر، والبر والفاجر.

وقد عدّد ابن القيم في كتابه (مدارك السالكين) الأوجه والتصاريف التي يأتي عليها هذا النوع في القرآن الكريم، وهي خمسة أوجه:

أولًا: أن يأتي منكّرًا، كما في الآية السابقة.

ثانيًا: أو معرَّفًا باللام، كقوله تعالى: ﴿ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ﴾ [غافر: ٣١].

ثالثًا: أو مقيدًا بإشارة أو نحوها، كقوله تعالى: ﴿ وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمۡ أَضۡلَلۡتُمۡ عِبَادِي هَٰٓؤُلَآءِ أَمۡ هُمۡ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴾ [الفرقان: ١٧].

رابعًا: أو أن يذكروا في عموم عباده، فيندرجوا مع أهل طاعته في الذكر، كقوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ عَٰلِمَ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴾ [الزمر: ٤٦].

خامسًا: أن يذكروا موصوفين بفعلهم كقوله تعالى: ﴿ قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ ﴾ [الزمر: ٥٣].

قال ابن القيم في (مدارج السالكين) في الوجه الخامس هذا: "وقد يقال: إنما سماهم عباده إذا لم يقنطوا من رحمته، وأنابوا إليه، واتبعوا أحسن ما أنزل إليهم من ربهم، فيكونون من عبيد الإلهية والطاعة"، انتهى كلامه.

وأما العبادة الخاصة الشرعية: فهي عبادة الطاعة، وهي الاستسلام والانقياد لأمر الله الشرعي، المتضمنة الخضوع والذل، وكمال المحبة الاختيارية، وهذه خاصة بمن وفقه الله تعالى للطاعة، واتباع ما جاءت به الرسل، وذلك كما جاء في قول الله تعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾ [الفرقان: ٦٣]، وقوله سبحانه: ﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ [الزخرف: ٦٨]، وقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الزمر: ١٧، ١٨]، والآيات في هذا المعنى كثيرة.

وأنواع العبادة التي أمر الله بها تتضمن الدين كله، وهو مقتضى الإسلام والإيمان والإحسان، كما في حديث جبريل # المشهور حيث سأل النبي ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان، وفي آخره قول النبي ﷺ لأصحابه الذين كانوا معه: ((هذا جبريل جاء يعلمكم دينكم)).

اعلم أن العبادة تدور رحاها على أنواع، ألا وهي: قول القلب، وقول اللسان، وعمل القلب، وعمل الجوارح، والعبادة المالية، وهذه الأخيرة وإن كانت داخلة في العموم في عمل الجوارح، إلّا أننا نخصها بالذكر لكونها ليست عملًا جسديًّا محضًا، إلا من جهة كون الجسد وسيلة لإيصالها إلى غايتها.

أما قول القلب: فهو الإيمان بما أخبر الله سبحانه به عن نفسه، وأسمائه وصفاته، وأفعاله، وملائكته، والبعث، وغير ذلك من أمور الغيب على لسان رسله.

وأما قول اللسان: فكالنطق بالشهادتين، وتلاوة القرآن، والتلفظ بالأذكار؛ كالتسبيح والتحميد والتهليل، وأنواع الأدعية، والنصيحة، والأمر بالمعروف،

والنهي عن المنكر، وتعليم الجاهل، وإرشاد الضال، وأداء الشهادة، ورد السلام، وتشميت العاطس، ونحو ذلك من العبادات المتعلقة باللسان.

وأما عمل القلب: كالإخلاص، والتوكل، والمحبة، والإنابة، والصبر، والرضا، والخوف، والرجاء، والصدق، والتواضع، والحياء، والنية في العبادة وغيرها.

وأعمال القلوب على اختلاف أنواعها أشرف وأعظم من أعمال الجوارح، كيف وهي أصلها، وقطب رحاها، وهي بمثابة شرف المقاصد على الوسائل.

وأما أعمال الجوارح: فكالصلاة، والصيام، والحج، والجهاد في سبيل الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإغاثة الملهوف، ونصر المظلوم، وإعانة المحتاج، ونحوها.

وأما العبادات المالية: فكثير أيضًا؛ كالزكاة المفروضة، والصدقات العامة، والإنفاق في سبيل الله كالحج، والجهاد، والقرض الحسن، والنذور والكفّارات، وإن كانت من باب العقوبات فهي أيضًا من جهة أخرى عبادة يتقرب بها إلى الله تعالى.

فعلم مما سبق أنّ جميع أمور الدين من الاعتقادات والأقوال والأعمال داخلة في مسمى العبادة، وقد دل صريح القرآن والسنة على أن الله تعالى إنما خلق الخلق لعبادته الجامعة لكمال محبته، مع الخضوع له والانقياد لأمره، ويحصل لنا من ذلك أمران، هما كالركنين للعبادة:

الركن الأول: كمال الخضوع والذل، مع كمال الانقياد والاستسلام للمعبود.

أما الذل والخضوع، فقد ذكر ابن القيم لهما في (مدارج السالكين) أربع مراتب:

المرتبة الأولى: مشتركة بين الخلق، وهي ذل الحاجة والفقر إلى الله، فأهل السموات والأرض جميعا محتاجون إليه فقراء إليه، وهو وحده الغني عنهم، وكل أهل السموات والأرض يسألونه، وهو لا يسأل أحدًا.

المرتبة الثانية: ذل الطاعة والعبودية، وهو ذل الاختيار، وهذا خاص بأهل طاعته، وهو سر العبودية.

المرتبة الثالثة: ذل المحبة، فإن المحب ذليل بالذات، وعلى قدر محبته له يكون ذله.

المرتبة الرابعة: ذل المعصية والجناية.

فإذا اجتمعت هذه المراتب الأربع كان الذل لله، والخضوع له أكمل وأتم؛ إذ يذل له خوفًا وخشية، ومحبة وإنابة، وطاعة وفقرًا وفاقة.

وأما الانقياد والاستسلام فهو من دواعي ومقتضيات المحبة، وذلك أن أصل العبادة محبة، بل إفراده تعالى بالمحبة، فلا يحب معه سواه، وإنما يحب ما يحبه لأجله وفيه، كما يحب أنبياءه ورسله وملائكته؛ لأن محبتهم من تمام محبته، وليست كمحبة من اتخذ من دونه أندادًا يحبهم كحبه، وإذا كانت المحبة له هي حقيقة عبوديته وسرها، فهي إنما تتحقق باتباع أمره، واجتناب نهيه، فعند اتباع الأمر والنهي تتبين حقيقة العبودية والمحبة، ولهذا جعل سبحانه وتعالى اتباع رسوله ﷺ علمًا عليها، وشاهدًا لها، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١]، فجعل اتباع رسوله مشروطًا بمحبتهم لله تعالى، وشرطًا لمحبة الله لهم، ووجود المشروط بدون تحقق شرطه ممتنع، فعلم انتفاء المحبة عند انتفاء المتابعة للرسول، ولا يكفي ذلك حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومتى كان عنده شيء أحب إليه منهما، فهو الإشراك الذي لا يغفره الله، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ

ﭐقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٢٤].

وكل من قدّم قول غير الله على قول الله، أو حكم به، أو حاكم إليه، فليس ممن أحبه.

الركن الثاني: كمال المحبة مع كمال الخوف والرجاء:

تقدم أن ذكرنا أنّ الدين كله داخل في العبادة، فمن عرّفها بالحب مع الخضوع؛ فلأن الحب التام مع الذل التام يتضمّنان طاعة المحبوب، والانقياد له؛ فالعبد هو الذي ذلّله الحب والخضوع لمحبوبه، فبحسب محبة العبد لربه وذلّه له تكون الطاعة؛ فمحبة البعد لربه وذلُّه له يتضمنان عبادته له وحده لا شريك له.

فالعبادة المأمور بها تتضمّن معنى الذل ومعنى الحب، وهو مستلزم لكمال الخوف والرجاء، فمجموعها ثلاثة أمور لا تتم إلا باستكمالها، فمن تعلق بواحد منها فقط لم يكن عابدًا لله تمام العبادة، فعبادة الله بالحب فقط هي طريقة بعض غلاة الصوفية، وعبادته بالرجاء وحده طريقة المرجئة، وعبادته بالخوف فقط طريقة الخوارج.

والمحبة المنفردة عن الخضوع لا تكون عبادة، فمن أحب شيئًا ولم يخضع له لم يكن عابدًا، وذلك كما يحب الإنسان ولده وصديقه، كما أن الخضوع المجرّد عن المحبة لا يكون عبادة، كمن يخضع لسلطان أو ظالم اتقاءً لشره، ولهذا لا يكفي أحدهما عن الآخر في عبادة الله تعالى، بل يجب أن يكون الله أحب إلى العبد من كل شيء، وأن يكون الله عنده أعظم من كل شيء.

ونظرًا لأهمية المحبة والخوف والرجاء بالنسبة للعبادة، لا بد من إفراد كل منها ببيان وشرح وجيز.

أولًا: المحبة:

محبة الله تعالى من أشرف مراتب الدين، وأعلى منازل العبادة، فهي قوت القلوب، وروح الأعمال، وبها تحصل حلاوة الإيمان، وينال العبد محبة الرحمن، قال الله تعالى: ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ [المائدة: ٥٤]، وقال النبي ﷺ: ((ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما...)) الحديث، رواه البخاري.

ومحبة الله -تبارك وتعالى- تكون لكماله وجماله وجلاله، وهو سبحانه أهل أن يحب لذاته وصفاته، وتكون أيضًا لإحسانه إلى عباده وإنعامه عليهم ظاهرًا وباطنًا؛ ونعمه تعالى لا تحصى كما قال: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ [النحل: ١٨]، والقلوب مجبولة على حب من أنعم عليها وأحسن إليها، وكلما زاد علم الإنسان بربه، زادت محبته له.

ومحبة الله تعالى توجب معرفته، وطاعته، والانقياد لأمره، والتسليم لشرعه.

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [آل عمران: ٣١] وقال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ﴾ [المائدة: ٥٤].

قال المبارك الميلي في (رسالة الشرك ومظاهره): "ومجموع ما أفادته آيتا آل عمران والمائدة خمس صفات، هي الدلائل على صدق المحبة، وهي: اتباع الرسول، والتراحم مع الإخوان في الدين، والشدة على الأعداء فيه، والقيام بكل ما يؤيد الدين، وعدم التقصير في الصدع بالحق مراعاة للناس". انتهى كلامه.

ثانيًا: الخوف:

والخوف من الله تعالى من أفضل العبادات، وأعلاها مقامًا، وأشرفها منزلة، وأنفعها للقلب، وهو من فروض الأعمال القلبية التي أوجبها الله تعالى على عباده المؤمنين، وهو مقام الأنبياء والمرسلين كما قال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠] فالرغب هو الرجاء، والرهب هو الخوف والخشية.

وقال ﷻ عن ملائكته الذين قد أمَّنَهُم من عذابه: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٥٠].

وقال عن القوم الصالحين، وخواص عباده المحسنين: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [النور: ٣٧].

وقال رسول الله ﷺ: ((إني أعلَمُكم بالله، وأشدُّكم له خشيةً)) رواه مسلم.

والخوف المشروع الصادق هو ما كان منه في غير غلوٍّ ولا تفريط، وهو ما حال بين صاحبه وبين محارم الله تعالى، ودعا صاحبه إلى مراعاة وامتثال أوامر الله، ولم يجرّه إلى اليأس والقنوط.

والخوف من الله تعالى شرط في حصول الإيمان، كما قال الله ﷻ: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

ثالثًا: الرجاء:

يعتبر الرجاء من أشرف منازل الإيمان، وأقوى دعائم الدين، وهو أحد الجناحين، والآخر الخوف اللّذَيْن لا يتم السير في طريق الأبرار إلا بهما، وقد دلّ

على فضله وشرف منزلته نصوص كثيرة دلالةً ظاهرةً أو مستنبطةً، من ذلك قول الله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١]، وقوله: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ ﴾ [الكهف: ١١٠]، وقوله: ﴿ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ ﴾ [الإسراء: ٥٧].

ومن النصوص المستنبطة ما كان فيها بشارة أو ترغيب أو جزاء أو ذكر الجنة والنجاة من النار. وفي الرجاء إظهار لأخصِّ معاني العبودية: الذل والخضوع، ففيه الطمع في المرجوّ، وتعلق الأمل به، وحسن الظن به، والافتقار إليه، وطلب الحاجة منه، فيكون القلب معلقًا كله بالله، لا ينصرف عنه طرفة عين، وبذلك تنتفي دقائق الشرك الخفي والجليّ.

والرجاء من الإيمان، وهو ضد اليأس والقنوط الّذَيْنِ هما كفر وخسران كما قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿ إِنَّهُ لَا يَأْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [يوسف: ٨٧]، وقال: ﴿ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴾ [الحجر: ٥٦].

وأعلى مراتب الرجاء رجاء لقاء الله الباعث على الاشتياق، كما قال تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ١١١]، وقال: ﴿ مَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ ﴾ [العنكبوت: ٥].

قال ابن القيم في (مدارج السالكين): "وهذا الرجاء هو محض الإيمان وزبدته، وإليه شخصت أبصار المشتاقين، ولذلك سلاهم الله تعالى بإتيان أَجَلِ لقائه، وضرب لهم أجلًا يسكنهم ويطمئنهم"، انتهى كلامه.

والرجاء ضروري للعبد، يدور معه حيث دار، ولا ينفك عنه لحظة؛ فإنه دائر بين ذنب يرجو غفرانه، وعيبٍ يرجو إصلاحه، وعملٍ صالحٍ يرجو قبوله،

واستقامةٍ يرجو حصولها ودوامَها، وقربٍ من الله ومنزلةٍ عنده يرجو وصولَه إليها، ولا ينفك أحد عن هذه الأمور أو بعضها.

وتأمّل قول علي > : "ألا أخبركم بالفقيه حق الفقيه، الذي لا يقنّط الناسَ من رحمة الله". فجعل الرجاء متعلقًا بالفقه والعلم؛ فإنه كلما كان العبد أعلم بالله وأسمائه وصفاته، كان أكثر رجاء وأشد رغبة إليه.

وهو عابد له متقرب إليه بأسمائه: المحسن، البر، الرحيم، المعطي، الحليم، الغفور، الجواد، الكريم، الرزاق، العليم.

والله سبحانه يحب من عبده أن يرجوه، ولذلك كان عند رجاء العبد وظنه به.

وكيف يحسنُ الظنَّ بربه مَنْ جحد صفاته، وأساء الظنّ بما وصف الله به نفسه، ووصفه به رسوله ﷺ وظنّ بجهله أن ظاهر ذلك ضلالٌ وكفرٌ.

وكيف يحسن الظن بمن يزعم أنه لا يتكلم ولا يأمر ولا ينهى ولا يرضى ولا يغضب، وقد قال الله تعالى في حق من شك في تعلق سمعه ببعض الجزئيات، وهو السر من القول: ﴿ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [فصلت: ٢٣].

فهؤلاء لّما ظنوا أن الله لا يعلم كثيرًا مما يعملون كان هذا إساءةَ ظن بربهم، فأرداهم ذلك الظن، وهذا شأن كل من جحد صفات كماله ونعوت جلاله، ووصفه بما لا يليق به. كما قرره شيخ الإسلام ابن القيم في (الداء والدواء).

ولا ريب أن الرجاء وحسنَ الظن الصحيح هو الذي يحمل صاحبه على العمل، ويحثه على الإحسان، ويسوقه للطاعة وترك العصيان، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ ﴾ [البقرة: ٢١٨]، فجعل رجاءَهم إتيانَهم بهذه الطاعات.

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٦]، فقرن الرحمة المرجوة بالإحسان وهو العمل الصالح.

وقال سبحانه: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأٓخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ﴾ [الزمر: ٩]، فوصف الراجين بالاجتهاد في الطاعة، ولزوم العمل الصالح.

قال ابن القيم في (الداء والدواء): "وسر المسألة أن الرجاء وحسن الظن بالله إنما يكون مع الإتيان بالأسباب التي اقتضتها حكمة الله في شرعه وقدره وثوابه وكرامته، فيأتي العبد بها ثم يحسن ظنه بربه، ويرجوه أن لا يكله إليها، وأن يجعلها موصلة لما ينفعه، ويصرف عنه ما يعارضها ويبطل أثرها".

وقد تعلق الرجاء طوائف من الناس شتّى تعلقًا خاطئًا، وأجروه بجهلهم على غير بابه الشرعي، وولجوا فيه بهواهم وما تملي عقولهم مولجًا يصادم مقاصد الدين وموارد النصوص.

فمنهم من تعلق بمسألة الجبر، وزعم أن العبد لا فعل له ألبتة ولا اختيار، وإنما هو مجبور على فعل المعاصي.

ومنهم من تعلق بمسألة الإرجاء، وزعم أنّ الإيمان هو مجرد التصديق، والأعمال ليست من الإيمان، وزعموا أن إيمان أفسق الناس كإيمان أتقاهم.

ومنهم من يغتر بآبائه وأسلافه، وما لهم عند الله من مكانة وصلاح، فلا يدعونه بزعمه حتى يخلصوه، فظنوا ظن السوء وكانوا قومًا بورًا.

ومن أكثر أسباب التعلق الخاطئ بالرجاء وضعفه في القلب أمور منها:

الأول: ضعف العلم ونقصان اليقين.

الثاني: عدم استحضاره في القلب في كل وقت لاشتغاله بما يضاده.

الثالث: استحكام الهوى في القلب، واستيلاء الشهوة وغلبة الطباع وإلف العوائد عليه.

الرابع: تسويل النفس، وطول الأمل، وقسوة الغفلة، واستبطاء الوعد، وحب العاجلة.

الخامس: غرور الشيطان، ورخص التأويل.

ولأجل هذه الأسباب يتفاوت الناس في الإيمان والأعمال، حتى ينتهي إلى أدنى أدنى مثقال ذرة في القلب.

والرجاء الذي أمر الله به وحثّ عليه يستلزم أمورًا؛ أهمها:

أولًا: تحقيق العبادة لله تعالى على وجه الكمال، مع عدم الإشراك به شيئًا.

ثانيًا: محبة ما يرجوه.

ثالثًا: خَوْفه من فواته.

رابعًا: سَعْيه في تحصيله بحسب الإمكان. وأما رجاء لا يقارنه شيء من ذلك، فهو من باب الغرور والأماني.

مراتب العبادة

للعبودية مراتب بحسب العلم، وهما في الجملة مرتبتان:

المرتبة الأولى: العلم بالله:

ويتحقق ذلك بخمسة أمور: العلم بذاته، وصفاته، وأفعاله، وأسمائه، وتنزيهه عمّا لا يليق به.

والعلم بالله هو أفضل العلوم على الإطلاق، وأشرفها منزلة، ولم تصل إلى العباد نعمة أفضل من العلم بالله، ومعرفة أسمائه وصفاته، وقد أمر الله عباده بذلك فقال: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد: ١٩]. وهذا العلم هو الذي يورث لصاحبه الصدق مع الله تعالى سرًّا وعلانية، والتفاني في حبه وخشيته، ولزوم طاعته، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ ﴾ [فاطر: ٢٨].

قال ابن القيم في (الفوائد): "ومعرفة الله سبحانه نوعان: معرفة إقرار؛ وهي التي اشترك فيها الناس البر والفاجر، والمطيع والعاصي. والثاني: معرفة توجب الحياء منه، والمحبة له، وتعلق القلب به، والشوق إلى لقائه، وخشيته، والإنابة إليه، والأنس به، والفرار من الخلق إليه. وهذه هي المعرفة الخاصة الجارية على لسان القوم، وتفاوتهم فيها لا يحصيه إلا الذي عرفهم بنفسه، وكشف لقلوبهم عن معرفة ما أخفاه عن سواهم، وكل من أشار إلى هذه المعرفة بحسب مقامه، وما كشف له منها.

وقد قال أعرفُ الخلقِ به: ((لا أحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيتَ على نفسك)). وأخبر أنه سبحانه يفتح عليه يوم القيامة من محامده بما لا يحسنه الآن، ولهذه المعرفة بابان واسعان:

الباب الأول: باب التفكر والتأمل في آيات القرآن كلها، والفهم الخاص عن الله ورسوله.

الباب الثاني: التفكر في آياته المشهودة، وتأمّل حكمته فيها وقدرته ولطفه وإحسانه وعدله وقيامه بالقسط على خلقه.

وجماع ذلك الفقه في معاني أسمائه الحسنى، وجلالها وكمالها، وتفرده بذلك، وتعلقها بالخلق والأمر، فيكون فقيهًا في أوامره ونواهيه، فقيهًا في قضائه وقدره،

فقيهًا في أسمائه وصفاته، فقيهًا في الحكم الديني الشرعي، والحكم الكوني القدري، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم".

المرتبة الثانية: العلم بدين الله تعالى:

وذلك أن العمل بالشيء يتوقف على تصوره، والله ﷻ يقول: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦]، والجهل بالحكم مآله إما تعطيل العمل، أو الوقوع في البدعة ومخالفة ما شرع الله تعالى منه.

فلا حصول للعمل إلّا بالعلم به، ولا يقع موافقًا للشرع إلّا بالعلم بحكمه، واتباع أوامر الله تعالى فيه، واجتناب نواهيه.

وأوامر الله ونواهيه هي دينه الذي أنزله على رسوله ﷺ ولا يمكن أن تتحقق المتابعة لدينه إلّا بعد معرفته، ولذلك كانت معرفة دين الله شرطًا في التعبد، والعلم بدين الله تعالى مرتبتان:

إحداهما: دينه الأمري الشرعي، وهو الصراط المستقيم الموصل إليه.

الثانية: دينه الجزائي، المتضمن ثوابه وعقابه، ودخل في هذا العلم العلمُ بملائكته، وكتبه، ورسله.

استحقاق الله للعبادة

عبادة الله تعالى وحده لا شريك له حقّ الله على عباده، فلا يجوز أن يُصرف شيء منها لغير الله تعالى، لا لملك مقرّب، ولا لنبي مرسل، وهو تحقيق معنى لا إله إلّا الله، وهي متركبة من نفي وإثبات؛ فمعنى النفي فيها: خلع جميع أنواع

المعبودات غير الله تعالى كائنة ما كانت في جميع أنواع العبادات كائنًا ما كانت، ومعنى الإثبات منها إفراد الله ﷻ وحده بجميع أنواع العبادات بإخلاص على الوجه الذي شرعه على ألسنة رسله -عليهم الصلاة والسلام- وأكثر آيات القرآن في هذا النوع من التوحيد، وهو الذي فيه المعارك بين الرسل وأممهم: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص: ٥].

والعبادة هي الغاية التي لأجلها خلق الله الخلق، قال الله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقد أمر الله تعالى جميع خلقه بأن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، قال تعالى: ﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ ﴾ [النساء: ٣٦]، وقال: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء: ٢٣]، وقال: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣١]، وقال: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴾ [البينة: ٥]، وقال ﷻ: ﴿ إِنَّ هَـٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٩٢]، وقال سبحانه: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴾ [الرعد: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾ [الزمر: ١١]، إلى قوله: ﴿ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ﴾ [الزمر: ١٤، ١٥].

وقال سبحانه: ﴿ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [الأنعام: ٥٦]، وقال سبحانه: ﴿ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَـٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [غافر: ٦٦]، وقال ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال سبحانه: ﴿ وَمَآ

أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال: ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٤٥].

وعن معاذ بن جبل > قال: ((كنت رَدِيفَ النبي ﷺ على حمار، فقال لي: يا معاذ، أتدري ما حق الله على العباد، وما حق العباد على الله؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئًا. قلت: يا رسول الله، أفلا أبشر الناسَ؟ قال: لا تبشرهم فيتكلوا)) رواه البخاري ومسلم.

وعن طارق بن أشيم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((مَن قال لا إله إلا الله، وكفر بما يعبد من دون الله، حرم ماله ودمه وحسابه على الله)) فعلق عصمة المال والدم بأمرين:

الأول: قول لا إله إلّا الله.

الثاني: الكفر بما يعبد من دون الله.

وهذه النصوص وغيرها كثير جدًّا واضحة الدلالة على أنه لا يجوز صرفُ شيء من العبادة مطلقًا لغير الله تعالى، وأنه ﷻ هو وحده المستحق لِأَن يعبد ولا يشرَك به شيء.

(الانحراف عن التوحيد، والتعريف بالشرك، وبدايته، وأقسامه)

عناصر الدرس

تمهيد في بيان مبدا وقوع الشرك في البشرية، وسببه

أول ما ظهر الشرك في قوم نوح على المشهور وقد كان بنو آدم على ملة أبيهم # نحو عشرة قرون كما قدمنا، وبه قال ابن عباس وغيره في تفسير قوله ﷻ: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة: ٢١٣].

ومضت تلك المدة التي ذكرنا والناس كلهم علي شريعة من الحق كما جاء في تفسير الآية الكريمة قول عبد الله بن عباس { : "كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق فاختلفوا فبعث الله النبيين".

فزيّن لهم الشيطان -لعنه الله- عبادة الأصنام، وكان أول ذلك أن زيّن لهم عظيم القبور، والعكوف عليها، وذلك كما أخبر الله عنهم في كتابه حيث قال: ﴿ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ ﴾ [نوح: ٢٣، ٢٤].

قال ابن عباس { : "هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابًا وسموها بأسمائهم ففعلوا، فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك، ونسخ العلم عبدت".

فلو جاءهم الشيطان وأمرهم بعبادتهم لم يقبلوا ولم يطيعوه، بل أمر الأوّلين بنصب الصور؛ لتكون ذريعةً للصلاة عندها ممن بعدهم، ثمّ تكون عبادة الله

عندها ذريعة إلى عبادتها ممن يأتي بعدهم، ممن لم يعرف مقصد الأوّلين، وهذا شأن الشيطان في جميع ما يغوي به بني آدم، حيث يستدرجهم بما يألفون، ولا يتفطنون إلى مآله من الشرّ والفساد.

فلما أرسل الله سبحانه إليهم نوحًا # فلبث فيهم ما لبث يدعوهم إلى الله تعالى وهم مستكبرون عن الحق حتى أهلكهم الله تعالى بالطوفان، ثم بعدهم عاد، عبدوا آلهة مع الله منها هدًّا وصدى وصمودًا، فأرسل الله ﷻ إليهم هودًا # فلبث فيهم ما لبث يدعوهم إلى توحيد الله ﷻ فلما حق عليهم العذاب أهلكهم الله تعالى بالريح، ثم ثمود كذلك، وأرسل الله إليهم صالحًا # كذبوه فأهلكوا بالصيحة، ثم قوم إبراهيم، وعبدوا الشمس والقمر والنجومَ، وعبدوا الأصنام وغير ذلك، وقد قص الله تعالى في كتابه كل ذلك مفصلًا عن الأمم ورسلهم.

وعبد أول بني إسرائيل العجل، وآخرهم عبدوا عزيزًا، وعبدت النصارى المسيح، وعبدت المجوس النار، وعبد قوم الماء، وعبد كل قوم ما زينه الشيطان لهم على قدر عقولهم، هذا في الأمم الأولى، وكل منها له وارث من الأمم المتأخرة، فالأصنام التي في قوم نوح قد انتقلت إلى العرب في زمن عمرو بن لحيّ -قبحه الله تعالى- كما ذكره ابن عباس فيما رواه البخاري عنه > قال: "أما وَد فكانت لكلب بدومة الجندل، وسواع كانت لهذيل، وأما يغوث فكانت لمراد، ثم لبني غطيف بالجوف عند سبأ، وأما يعوق فكانت لهمدان، وأما نسر فكانت لحمير لآل ذي الكلاع".

واتخذوا حول الكعبة نحو ثلاثمائة وستين صنمًا، وصار لكل أهل قبيلة صنم، بل اتخذ أهل كل دار في دارهم صنمًا يعبدونه.

فلما بعث الله محمدًا ﷺ بالتوحيد، قالت قريش: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص: ٥].

وللشيطان في تلاعبه بالمشركين طرق وأساليب، وسبله عديدة؛ حيث تلاعب بكل قوم على قدر عقولهم؛ فطائفة دعاهم إلى عبادتها من جهة تعظيم الموتى الذين صوروا تلك الأصنام على صورهم كما تقدّم عن قوم نوح # ولهذا لعن النبي ﷺ المتخذين على القبور المساجد والسرج، ونهى عن الصلاة إلى القبور، وسأل ربه سبحانه أن لا يجعل قبره وثنًا يعبد، ونهى أمته أن يتخذوا قبره عيدًا، وقال: ((اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبورَ أنبيائهم مساجدَ)) وأمر بتسوية القبور وطمس التماثيل.

فأبَى المشركون إلا خلافه في ذلك كله، إمّا جهلًا وإمّا عنادًا لأهل التوحيد، ولم يضرهم ذلك شيئًا، وهذا السبب هو الغالب على عوام المشركين، وأمّا خواصهم فإنهم اتخذوها بزعمهم على صور الكواكب المؤثرة في العالم عندهم، وجعلوا لها بيوتًا وسدنة وحجابًا وحجًّا وقربانًا، ولم يزل هذا في الدنيا قديمًا وحديثًا، وأشد الأمم في هذا النوع من الشرك الهند.

ويرجع هذا النوع من الشرك إلى مشركي الصابئة، وهم قوم إبراهيم # الذين ناظرهم في بطلان الشرك وكسر حجتهم بعلمه وآلهتهم بيده، فطلبوا تحريقه، وهذا مذهب قديم في العالم، وأهله طوائف شتى، فمنهم عباد الشمس، زعموا أنها ملك من الملائكة، لها نفس وعقل وهي أصل نور القمر والكواكب، وتكون الموجودات السفلية كلها عندهم منها، وهي عندهم ملك الفلك يستحق التعظيم والسجود والدعاء.

وطائفة أخرى اتخذت للقمر صنمًا، وزعموا أنه يستحق التعظيم والعبادة، وإليه تدبير هذا العالم السفلي.

ومنهم من يعبد أصنامًا اتخذوها على صور الكواكب وروحانياتها بزعمهم وبنوا لها هياكل ومتعبدات، لكل كوكب منها هيكل يخصه وصنم يخصه وعبادة تخصه.

وكل هؤلاء مرجعهم إلى عبادة الأصنام، فإنهم لا تستمر لهم طريق إلا بشخص خاص على شكل خاص ينظرون إليه ويعكفون عليه ومن هنا اتخذ أصحاب الروحانيات والكواكب أصنامًا زعموا أنها على صورها فوضع الصنم إنما كان في الأصل علي شكل معبود غائب، فجعلوا الصنم على شكله وهيأته وصورته ليكون نائبًا منابه، وقائمًا مقامه، وإلا فمن المعلوم أن عاقلًا لا ينحت خشبة أو حجرًا بيده ثم يعتقد أنه إلهه ومعبوده.

ومن أسباب عبادتها أيضًا: أن الشياطين تدخل فيها وتخاطبهم منها، وتخبرهم ببعض المغيبات عنهم، وتدلهم على بعض ما يخفى عليهم، وهم لا يشاهدون الشيطان، فبعضهم يظن أن الصنم نفسه هو المتكلم، وبعضهم يضيفون ذلك إلى بعض من يعظمونهم، ومنهم لا يسأل عمّا عهد، بل إذا سمع الخطاب من الصنم اتخذه إلهًا ولا يسأل عمّا وراء ذلك.

وبالجملة فأكثر أهل الأرض مفتونون بعبادة الأصنام والأوثان، ولم يتخلص منها إلا الحنفاء أتباع ملة إبراهيم # كما قال الله عنه: ﴿ وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [إبراهيم: ٣٥، ٣٦].

والأمم التي أهلكها الله تعالى بأنواع الهلاك كلهم يعبدون الأصنام كما قص الله ﷻ ذلك عنهم في القرآن، وأنجى الرسل وأتباعهم من الموحدين، ويكفي في معرفة كثرتهم وأنهم أكثر أهل الأرض قول الله تعالى: ﴿ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا

كُفُورًا ﴾ [الإسراء: ٨٩]، وقال تعالى: ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [الأنعام: ١١٦]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٣].

تعريف الشرك الأكبر

أولًا: الشرك في اللغة:

تقول: شركته في الأمر أشركه من باب: تعب، شركًا وشركة بفتح الأول، وكسر الثاني فيهما، ويخففان بكسر الأول، وسكون الثاني. وذلك إذا صرت له شريكًا، وشاركته كذلك وأشركته، فجعلته شريكًا، قال تعالى: ﴿ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴾ [طه: ٣٢]، أي: اجعله شريكي فيه، وشركت بينهما في المال تشريكًا، واشتركنا وتشاركنا.

ومرجع مادة الشرك إلى الخلط والضم؛ فإذا كان بمعنى الحصة من الشيء يكون لواحد، وباقيه لآخر أو آخرين، كما في قوله تعالى: ﴿ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ﴾ [فاطر: ٤٠].

فالشريك مخالط لشريكه، وحصته منضمة لنصيب الآخر.

ثم اجتماع الشركاء في شيء لا يقتضي تساوي أنصبائهم منه، ولا يمنع زيادة قسط على آخر، فموسى يسأل ربه إشراك أخيه له في الرسالة، وقد أجيب سؤاله لقوله تعالى: ﴿ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ ﴾ [طه: ٣٦]، وضروري أن حظ هارون من الرسالة دون حظ موسى.

جاء في معجم (مقاييس اللغة) أن مادة الشرك لها أصلان: أحدهما يدل على مقارنة وخلاف انفراد، والآخر يدل على امتداد واستقامة.

وفي (لسان العرب): طريق مشترك: يستوي فيه الناس، واسم مشترك: تستوي فيه معان كثيرة.

ثانيًا: الشرك في الشرع:

الشرك من الألفاظ التي شاع استعمالها في الكتاب والسنة، متضمنة المعنى الشرعي لهذه الكلمة، وهي تفصح عن موافقتها لأصل المعنى اللغوي، سنة الحقائق الشرعية في انبنائها على الحقائق اللغوية.

فالشرك ضد التوحيد، وهو أن تجعل لله ندًّا في ألوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته.

قال المقريزي في (تجريد التوحيد): "اعلم أن حقيقة الشرك تشبيه الخالق بالمخلوق، وتشبيه المخلوق بالخالق. أما الخالق، فإن المشرك شبه المخلوق بالخالق في خصائص الإلهية، وهي التفرد بملك الضر والنفع، والعطاء والمنع، فمن علق ذلك بمخلوق، فقد شبهه بالخالق تعالى، وسوى بين التراب ورب الأرباب، فأيّ فجور وذنب أعظم من هذا. واعلم أن من خصائص الإلهية الكمال المطلق من جميع الوجوه الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه، وذلك يوجب أن تكون العبادة له وحده عقلًا وشرعًا وفطرة، فمن جعل ذلك لغيره فقد شبه الغير بمن لا شبيه له، لشدة قبحه، وتضمنه غاية الظلم، ذكر الله ﷻ في القرآن الكريم نصوصًا كثيرة جدًّا في ذمه والتنفير منه، أخبر من كتب على نفسه الرحمة أنه لا يغفره أبدًا".

وقال ابن القيم في تعريف الشرك الأكبر: "هو أن يتخذ من دون الله ندًّا، يحبه كما يحب الله، وهو الشرك الذي تضمن تسوية آلهة المشركين برب العالمين".

وقال: سليمان بن عبد الله: "هو أن يجعل لله ندًّا يدعوه كما يدعو الله، ويسأله الشفاعة كما يسأل الله، ويرجوه كما يرجو الله، ويحبه كما يحب الله، ويخشاه كما يخشى الله، وبالجملة فهو أن يجعل لله ندًّا يعبده كما يعبد الله".

وكما أنه لا تقتضي الشركة لغة تساوي الشركاء في الحصص، كما تقدم سابقًا، كذلك الشرك شرعًا لا يقتضي مساواة الشريك لله في جميع صفاته، أو في صفة منها، بل يسمى المرء مشركًا عند الشارع بإثباته شريكًا لله، ولو جعله دونه في القدرة والعلم مثلًا، فأما حكايته تعالى عن المشركين قولهم: ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء: ٩٧، ٩٨].

فالتسوية فيه تسوية في العبادة والطاعة والانقياد، لا في القدرة على الخلق والإيجاد، فهي كآية "البقرة": ﴿ يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥].

إن الله تعالى لا يقبل أن يشرك به الأبرار ولا الفجار، ولا الأشجار ولا الأحجار، لا يرضى شركة عظيم في القدر والمنزلة، كمن أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، ولا شركة عظيم في الخلق والحجم، كالشمس والقمر، وسائر الكواكب، وقد رد القرآن كل شرك، كيفما كان اعتباره من القوة والضعف.

أقســــــــام الشــــــــرك

للشرك تقسيمات كثيرة وذلك بحسب ما يتعلق به، فهو قسمان من جهة قدره: أكبر، وأصغر، ومن جهة متعلقه فهو ثلاثة أقسام: في الألوهية، والربوبية،

والأسماء والصفات، وباعتبار فعل العبد فهو ثلاثة أقسام أيضًا: شرك في النيات، والأقوال، والأعمال، وسيأتي تفصيلها فيما يلي.

ولابن القيم كلام سديد في تقسيم الشرك في كتاب (الجواب الكافي) حيث قال: "الشرك شركان: شرك يتعلق بذات المعبود وأسمائه وصفاته وأفعاله، وشرك في عبادته ومعاملته، وإن كان صاحبه يعتقد أنه سبحانه لا شريك له في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، والشرك الأول نوعان:

أحدهما: شرك التعطيل وهو أقبح أنواع الشرك؛ كشرك فرعون؛ إذ قال: ﴿ وَمَا رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء: ٢٣]، وقال تعالى مخبرًا عنه أنه قال: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴾ [غافر: ٣٦، ٣٧]، فالشرك والتعطيل متلازمان، فكل مشرك معطل، وكل معطل مشرك، لكن لا يستلزم أصل التعطيل، بل قد يكون المشرك مقرًّا بالخالق سبحانه وصفاته، ولكن عطّل حق التوحيد، وأصل الشرك وقاعدته التي ترجع إليها هو التعطيل، وهو ثلاثة أقسام: تعطيل المصنوع عن صانعه وخالقه، وتعطيل الصانع سبحانه عن كماله المقدس بتعطيل أسمائه وصفاته وأفعاله، وتعطيل معاملته عمّا يجب على العبد من حقيقة التوحيد، ومن هذا شرك طائفة أهل وحدة الوجود الذين يقولون: ما ثَمّ خالق ومخلوق، ويقولون ها هنا شيئًا بل الحق المنزه، وهو عين الخلق المشبه، ومنه شرك الملاحدة القائلين بقدم العالم وأبديته، وأنه لم يكن معدومًا أصلًا، بل لم يزل ولا يزال، والحوادث بأسرها مستندة عندهم إلى أسباب ووسائط اقتضيت إيجادها ليسمونها العقول والنفوس، ومن هذا شرك من

عظم أسماء الرب تعالى وأوصافه وأفعاله من غلاة الجهمية والقرامطة، فلم يثبتوا اسمًا ولا صفة، بل جعلوا المخلوق أكمل منه إذا كمال الذات بأسمائها وصفاتها.

النوع الثاني: شرك من جعل معه إلهًا آخر ولم يعطل أسماءه وربوبيته وصفاته؛ كشرك النصارى الذي جعلوه ثلاثة، فجعلوا المسيح إلهًا، وأمه إلهًا، ومن هذا شرك المجوس القائلين بإسناد حوادث الخير إلى النور، وحوادث الشر إلى الظلمة، ومن هذا شرك القدرية القائلين بأن الحيوان هو الذي يخلق أفعال نفسه، وأنها تحدث بدون مشيئة الله وقدرته وإرادته، ولهذا كانوا من أشباه المجوس، ومن هذا شرك الذي حاجّ إبراهيم في ربه: ﴿ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، فهذا جعل نفسه ندًّا لله يحيي ويميت بزعمه كما يحيي الله ويميت، فألزمه إبراهيم ﷺ ورحمة الله وبركاته- إن طرد قولك أنّ تقدر علي الإتيان بالشمس من غير الجهة التي يأتي الله بها منها، وليس هذا انتقالًا كما زعم بعض أهل الجدل، بل إلزامًا على طرد الدليل إن كان حقًّا، ومن هذا شرك كثير ممن يشرك بالكواكب العلويات ويجعلها أربابًا مدبرة لأمر هذا العالم، كما هو مذهب مشركي الصابئة وغيرهم، ومن هذا شرك عباد الشمس وعباد النار وغيرهم، ومن هؤلاء من يزعم أن معبوده هو الإله على الحقيقة، ومنهم من يزعم أنه أكبر الآلهة، ومنهم من يزعم أنه إله من جملة الآلهة، وأنه إذا خصه بعبادته والتبتل إليه والانقطاع إليه أقبل عليه واعتني به، ومنهم من يزعم أن معبودهم الأدنى يقربه إلى المعبود الذي هو فوقه، والفوقاني يقربه إلى من هو فوقه، حتى تقربه تلك الآلهة إلى الله سبحانه، فتارة تكثر الوسائط وتارة تقل.

فصل: وأما الشرك في العبادة فهو أسهل من هذا الشرك وأخف أمرًا، فإنّه يصدر ممن يعتقد أنه لا إله إلا الله، وأنه لا يضر ولا ينفع ولا يعطي ولا يمنع إلا الله، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه، ولكن لا يخلص لله في معاملته وعبوديته، بل يعمل لحظ نفسه تارة وطلب الدنيا تارة، ولطلب الرفعة والمنزلة والجاه عند الخلق تارة، من عمله وسعيه نصيب لنفسه، ولنفسه وحظه وهواه نصيب، وللشيطان نصيب، وللخلق نصيب، هذا حال أكثر الناس، وهو الشرك الذي قال فيه النبي ﷺ فيما رواه ابن حبان في صحيحه: ((الشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل. قالوا: وكيف ننجوا منه يا رسول الله؟ قال: اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم وأستغفرك لما لا أعلم))، فالرياء كله شرك، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [الكهف: ١١٠]، أي كما أنه إله واحد لا إله سواه، فكذلك ينبغي أن تكون العبادة له وحده، فكما تفرد بالألوهية يجب أن يفرد بالعبودية.

فالعمل الصالح هو الخالي من الرياء المقيد بالسنة، وكان من دعاء عمر بن الخطاب > : "اللهم اجعل عملي كله صالحًا، واجعله لوجهك خالصًا، ولا تجعل لأحدٍ فيه شيئًا" وهذا الشرك في العبادة يبطل ثوابَ العمل، وقد يعاقب عليه إذا كان العمل واجبًا، فإنه ينزله منزلة من لم يعلمه، فيعاقب على ترك الأمر، فإنّ الله سبحانه إنما أمر بعبادته خالصة، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ﴾ [البينة: ٥]، فمن لم يخلص لله في عبادته لم يفعل ما أمر به، بل الذي أتى به شيء غير المأمور به، فلا يصح ولا يقبل منه، ويقول الله تعالى في الحديث القدسي: ((أنا أغنى الشركاء عن الشرك، فمن عمل عملًا أشرك معي فيه غيري، فهو للذي أشرك به وأنا منه بريء)).

وهذا الشرك ينقسم إلى مغفور وغير مغفور، وأكبر وأصغر، والنوع الأول ينقسم إلى كبير وأكبر، وليس شيء منه مغفور، فمنه الشرك بالله في المحبة والتعظيم، بأن يحب مخلوقًا كما يحب الله، فهذا من الشرك الذي لا يغفره الله، وهو الشرك الذي قال سبحانه فيه: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا ﴾ [البقرة: ١٦٥] الآية، وقال أصحاب هذا الشرك لآلهتهم وقد جمعتهم الجحيم: ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء: ٩٧، ٩٨]، ومعلوم أنهم ما سووهم به سبحانه في الخلق والرزق والإماتة والإحياء والملك والقدرة، وإنما سووهم به في الحب والتأله والخضوع لهم والتذلل، وهذا غاية الجهل والظلم، فكيف يسوّى من خلق من التراب برب الأرباب، وكيف يسوّى العبيد بمالك الرقاب، وكيف يسوّى الفقير بالذات الضعيف بالذات العاجز بالذات المحتاج بالذات الذي ليس له من ذاته إلا العدم، بالغنى بالذات القادر بالذات، الذي غناه وقدرته وملكه وجوده وإحسانه وعلمه ورحمته وكماله المطلق التام من لوازم ذاته، فأي ظلم أقبح من هذا، وأي حكم أشد جورًا منه؛ حيث عدل من لا عدل له بخلقه كما قال تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَـٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأنعام: ١].

فعدل المشرك من خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور بمن لا يملك لنفسه ولا لغيره مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، فيا لك من عدل تضمن أكبر الظلم وأقبحه"، انتهى كلامه.

ثم استطرد في بيان أقسام الشرك من حيث تعلقه بالأفعال والأقوال والإرادات والنيات.

وللشيخ سليمان بن عبد الله تقسيم آخر في كتابه النفيس (تيسير العزيز الحميد) قال: "فاعلم أن الشرك ينقسم ثلاثة أقسام بالنسبة إلى أنواع التوحيد وكل منها قد يكون أكبر وأصغر مطلقًا، وقد يكون أكبر بالنسبة إلى ما هو أصغر منه، وقد يكون أصغر بالنسبة إلى ما هو أكبر منه.

القسم الأول: الشرك في الربوبية، وهو نوعان:

أحدهما: شرك التعطيل، وهو أقبح أنواع الشرك، كشرك فرعون؛ إذ قال: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣]، ومن هذا شرك الفلاسفة القائلين بقدم العالم وأبديته، وأنه لم يكن معدوما أصلًا، بل لم يزل ولا يزال والحوادث بأسرها مستندة عندهم إلى أسباب ووسائط اقتضت إيجادها يسمونها العقول والنفوس.

ومن هذا: شرك طائفة أهل وحدة الوجود كابن عربي وابن سبعين والعفيف التلمساني وابن الفارض ونحوهم من الملاحدة الذين كسوا الإلحاد حلية الإسلام ومزجوه بشيء من الحق حتى راج أمرهم على خفافيش البصائر.

ومن هذا: شرك من عطل أسماء الرب وأوصافه من غلاة الجهمية والقرامطة.

النوع الثاني: شرك من جعل معه إلها آخر ولم يعطل أسماءه وصفاته وربوبيته، كشرك النصارى الذين جعلوه ثالث ثلاثة وشرك المجوس القائلين بإسناد حوادث الخير إلى النور وحوادث الشر إلى الظلمة.

ومن هذا: شرك كثير ممن يشرك بالكواكب العلويات ويجعلها مدبرة لأمر هذا العالم، كما هو مذهب مشركي الصابئة وغيرهم.

قلت: ويلتحق به من وجه شرك غلاة عباد القبور الذين يزعمون أن أرواح الأولياء تتصرف بعد الموت، فيقضون الحاجات، ويفرجون الكربات، وينصرون

من دعاهم، ويحفظون من التجأ إليهم ولاذ بحماهم، فإن هذه من خصائص الربوبية، كما ذكره بعضهم في هذا النوع.

القسم الثاني: الشرك في توحيد الأسماء والصفات، وهو أسهل مما قبله، وهو نوعان:

أحدهما: تشبيه الخالق بالمخلوق كمن يقول: يد كيدي، وسمع كسمعي، وبصر كبصري، واستواء كاستوائي، وهو شرك المشبهة.

الثاني: اشتقاق أسماء للآلهة الباطلة من أسماء الإله الحق، قال الله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

قال ابن عباس يلحدون في أسمائه يشركون، وعنه سموا اللات من الإله والعزى من العزيز.

القسم الثالث: الشرك في توحيد الألوهية والعبادة، قال القرطبي: أصل الشرك المحرم اعتقاد شريك لله تعالى في الإلهية وهو الشرك الأعظم، وهو شرك الجاهلية، ويليه في الرتبة اعتقاد شريك لله تعالى في الفعل، وهو قول من قال: إن موجودًا ما غير الله تعالى يستقل بإحداث فعل وإيجاد وإن لم يعتقد كونه إلهًا، هذا كلام القرطبي، وهو نوعان:

أحدهما: أن يجعل لله ندًّا يدعوه كما يدعو الله، ويسأله الشفاعة كما يسأل الله، ويرجوه كما يرجو الله، ويحبه كما يحب الله، ويخشاه كما يخشى الله، وبالجملة فهو أن يجعل لله ندًّا يعبده كما يعبد الله، وهذا هو الشرك الأكبر، وهو الذي قال الله فيه: ﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ ﴾ [النساء: ٣٦]، وقال: ﴿ وَلَقَدْ

بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [يونس: ١٨]، وقال تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ [السجدة: ٤].

والآيات في النهي عن هذا الشرك وبيان بطلانه كثيرة جدًّا.

الثاني: الشرك الأصغر، كيسير الرياء، والتصنع للمخلوق، وعدم الإخلاص لله تعالى في العبادة، بل يعمل لحظ نفسه تارة ولطلب الدنيا تارة، ولطلب المنزلة والجاه عند الخلق تارة، فلله من عمله نصيب ولغيره منه نصيب، ويتبع هذا النوع الشرك بالله في الألفاظ، كالحلف بغير الله، وقول ما شاء الله وشئت، وما لي إلا الله وأنت، وأنا في حسب الله وحسبك ونحوه، وقد يكون ذلك شركًا أكبر بحسب حال قائله ومقصده، هذا حاصل كلام ابن القيم وغيره، انتهى كلامه.

والشرك في الجملة نوعان:

شرك أكبر مخرج من الملة، وشرك أصغر غير مخرج من الملة. وقد ينقسم إلى ثلاثة أنواع: شرك أكبر، وشرك أصغر، وشرك خفي.

وجعل شيخ الإسلام ابن تيمية الشرك الأكبر نوعين:

النوع الأول: الشرك في الإلهية فهو أن يجعل لله ندًّا -أي: مثلًا- في عبادته أو محبته أو خوفه أو رجائه أو إنابته، فهذا هو الشرك الذي لا يغفره الله إلا بالتوبة منه كما قال تعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ ﴾

[الأنفال: ٣٨]، وهذا هو الذي قاتل عليه رسول الله ﷺ مشركي العرب؛ لأنهم أشركوا في الإلهية، قال الله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ ﴾ [البقرة: ١٦٥] الآية، وقالوا: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [الزمر: ٣] الآية، وقالوا: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص: ٥]، وأما الربوبية فكانوا مقرين بها قال الله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [الزمر: ٣٨]، وقال: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾ [المؤمنون: ٨٤، ٨٥] إلى قوله: ﴿ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٨٩]، وما اعتقد أحد منهم قط أن الأصنام هي التي تنزل الغيث وترزق العالم وتدبره، وإنما كان شركهم -كما ذكرنا- اتخذوا من دون الله أندادًا يحبونهم كحب الله، وهذا المعنى يدل على أن من أحب شيئًا من دون الله كما يحب الله تعالى فقد أشرك، وهذا كقوله: ﴿ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء: ٩٦- ٩٨]، وكذا من خاف أحدًا كما يخاف الله، أو رجاه كما يرجو الله وما أشبه ذلك.

النوع الثاني: فالشرك في الربوبية، فإن الرب سبحانه هو المالك المدبر المعطى المانع الضار النافع الخافض الرافع المعز المذل، فمن شهد أن المعطى أو المانع أو الضار أو النافع أو المعز أو المذل غيره فقد أشرك بربوبيته". انتهى كلامه.

بيان خطورة الشرك، والآثار المترتبة عليها

الشرك أعظم الذنوب، وأكبر الكبائر، وأقبح الظلم، ولهذا كان جزاؤه ألا يغفره الله تعالى، إذا لم يتب ويقلع صاحبه عنه، وإذا مات عليه أوجب له الخلود في

النار، قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٤٨] وقال تعالى: ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ [النساء: ١١٦]، وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ [المائدة: ٧٢]، وقال تعالى: ﴿ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ [الحج: ٣٠، ٣١]، وقال لصفوة خلقه -وهم الرسل -عليهم الصلاة والسلام- بعد أن أثني عليهم-: ﴿ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ٨٨]، وقال لخاتمهم محمد ﷺ: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الزمر: ٦٥، ٦٦].

فالشرك أعظمُ ذنبٍ عُصِيَ الله به، ولهذا أخبرنا سبحانه أنه لا يغفره، وأنه لا أضل من فاعله، وأنه مخلد في النار أبدًا لا نصير له ولا حميم ولا شفيع يطاع، وأنه لو قام لله تعالى قيام السارية ليلًا ونهارًا ثم أشركَ مع الله تعالى غيره لحظةً من اللحظات ومات على ذلك، فقد حبطَ عملُه كله بتلك اللحظة التي أشرك فيها، ولو كان نبيًّا رسولًا، ولو كان محمدًا ﷺ وهذا من تقدير وقوع المحال، وهو كثير في اللغة العربية، أي: لو قدر وقوع ذلك من ملك أو رسول لكان كغيره من المشركين في حبوط عمله وحلول غضب الله عليه، وإلا فلم يرسل الله تعالى رسولًا إلا معصومًا من جميع المعايب، فضلًا عن الشرك والله أعلم حيث يجعل

رسالته، والآيات في بيان عظم الشرك ووعيد فاعله أكثر من أن يحيط بها هذا المختصر، وفي معناها من الأحاديث ما لا يحصى.

ولنذكر من ذلك ما تيسر فنقول -وبالله التوفيق-:

في الصحيح عن عبد الله بن مسعود > قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((من مات يشرك بالله شيئًا دخل النار)) وقلت أنا: "ومن مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة".

وفيه عن جابر بن عبد الله > قال: ((أتى النبي ﷺ رجل فقال: يا رسول الله ما الموجبتان؟ فقال: من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة، ومن مات يشرك بالله شيئًا دخل النار)).

وعن عبد الله بن مسعود > قال: ((سألت رسول الله ﷺ: أي الذنب أعظم عند الله؟ قال: أن نجعل لله ندًّا وهو خلقك)) الحديث.

وفيه عن أبي بكرة > قال: كنا عند رسول الله ﷺ فقال: ((ألا أنبئكم بأكبر الكبائر -ثلاثًا- الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وشهادة الزور)) الحديث.

ولأحمد عن أبي ذر > عن رسول الله ﷺ قال: ((إن الله تعالى يقول: يا عبدي ما عبدتني ورجوتني فإني غافرٌ لك على ما كان منك يا عبدي، إنك إن لقيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا، لقيتك بقرابها مغفرةً)).

وفي الصحيحين عن معاذ بن جبل > قال: ((كنت رديف النبي ﷺ علي حمار فقال لي: يا معاذ، أتدري ما حق الله على العباد، وما حق العباد على الله ﷻ؟

قلت: الله ورسوله أعلم، قال: حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئًا)).

وللبخاري عن سعيد بن المسيب عن أبيه > قال: "لما حضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه النبي ﷺ وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية، فقال النبي ﷺ: ((أي عم، قل لا إله إلا الله، أحاج لك بها عند الله)) فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب، وقال النبي ﷺ: ((لأستغفرن لك ما لم أنه عنك)) فنزلت: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴾ [التوبة: ١١٣]".

والأحاديث في عظم ذنب الشرك وشدة وعيده أكثر من أن تحصى.

وأما الآثار المترتبة على الشرك فتتمثل في أنه يحبط الأعمال، كما قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ [الزمر: ٦٥]، وأن صاحبه إن مات عليه فإنه لا يغفر له، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ ﴾ [النساء: ٤٨]، وأن الذي مات على الشرك خالد مخلد في نار جهنم، كما قال الله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ﴾ [المائدة: ٧٢].

(من أنواع الشرك في الألوهية: شركُ الدعاء)

عناصر الدرس

الـــــــدعاء وأنواعـــــــه

استكمالًا للمسائل المتعلقة بالشرك لا بد من بيان بعض أنواعه، ومنها الدعاء، وسنذكر أنواعه وعلاقته بالعبادة، ووقوع الشرك فيه.

الدعاء هو العبادة، وهو من أفضل القربات عند الله، وهو مفتاح كل خير، ووسيلة العبد إلى مرضاة الله تعالى، وهو سلاحه في الدنيا، وفلاحه في الآخرة.

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ﴾ [الفرقان: ٧٧].

قال ابن كثير في تفسيره: "أي: لا يبالي ولا يكترث بكم إذا لم تعبدوه، فإنه إنما خلق الخلق ليعبدوه، ويسبحوه بكرةً وأصيلًا". وقال سبحانه عن نبيه زكريا ﷺ: ﴿ وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾ [مريم: ٤]. وقال عن إبراهيم ﷺ: ﴿ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴾ [مريم: ٤٨]. وعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: ((ليس شيء أكرمَ على الله من الدعاء)). رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجه، وقال الترمذي: "هذا حديث حسن غريب". وحسنه الألباني في صحيح (الأدب المفرد).

أقسام الدعاء:

الدعاء قسمان:

أحدهما: دعاء ثناء وعبادة، وهو كل ما تقرب به العبد إلى الله تعالى من الأقوال، والأعمال الظاهرة والباطنة؛ لأن العبد في حاله هذه راج القبول والثواب، وخائف من الرد والعقاب، فهو في حقيقة أمره لم يخرج عن كونه طالبًا سائلًا.

الثاني: دعاء طلب وسؤال. والقسمان متلازمان.

قال ابن القيم في (بدائع الفوائد): "قوله ﷻ: ﴿ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ۝٥٥ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٥، ٥٦] هاتان الآيتان مشتملتان على آداب نوعي الدعاء: دعاء العبادة، ودعاء المسألة؛ فإن الدعاء في القرآن يراد به هذا تارة، وهذا تارة، ويراد به مجموعهما، وهما متلازمان؛ فإن دعاء المسألة هو طلب ما ينفع الداعي، وطلب كشف ما يضره أو دفعه، وكل من يملك الضر والنفع فإنه هو المعبود حقًّا، والمعبود لا بد وأن يكون مالكًا للنفع والضر، ولهذا أنكر الله تعالى على مَن عبَدَ من دونه ما لا يملك ضرًّا ولا نفعًا، وذلك كثير في القرآن كقوله تعالى: ﴿ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ ﴾ [يونس: ١٨]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ﴾ [يونس: ١٠٦].

ثم قال: فنفى سبحانه عن هؤلاء المعبودين من دونه النفع والضر القاصر والمتعدي فلا يملكونه لأنفسهم، ولا لعابديهم، وهذا في القرآن كثير بين أن المعبود لا بد أن يكون مالكًا للنفع، والضر؛ فهو يُدعى للنفع والضر دعاء المسألة، ويدعى خوفًا ورجاءً دعاء العبادة، فعلم أن النوعين متلازمان، فكل دعاء عبادة مستلزم لدعاء المسألة، وكل دعاء مسألة متضمن لدعاء العبادة، وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ ﴾ [البقرة: ١٨٦]، يتناول نوعيَ الدعاء، وبكل منهما فُسرت الآيةُ، قيل: أعطيه إذا سألني، وقيل: أثيبه إذا عبدني، والقولان متلازمان.

حكم الدعاء:

أمر الله تعالى بالدعاء في كتابه فقال: ﴿ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾ وتوعد بالعقوبة والغضب من أعرض عنه فقال: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر: ٦٠]. وقال النبي ﷺ: ((مَن لم يدع اللهَ غضِبَ الله عليه)). رواه الإمام أحمد في (المسند)، والترمذي، وابن ماجه. وقال ابن كثير في تفسيره: "وهذا إسناد لا بأس به". وحسنه الألباني في (السلسلة الصحيحة)، وقال تعليقًا عليه: "وقد غفل عن هذه الأحاديث بعض جهلة الصوفية أو تجاهلوها، بزعمهم أن دعاء الله سوء أدب مع الله، متأثرين في ذلك بالأثر الإسرائيلي: "عِلمه بحالي يغني عن سؤاله"! فجهلوا أن دعاء العبد لربه تعالى ليس من باب إعلامه بحاجته إليه ﷻ: ﴿ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى ﴾ [طه: ٧] وإنما من باب إظهار عبوديته، وحاجته إليه وفقره".

بيان أن الدعاء عبادة:

قال الله تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾.

عن النعمان بن بشير، أن رسول الله ﷺ قال: ((إن الدعاء هو العبادةُ))، ثم قرأ: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي ﴾ الآية.

وقال ابن عباس: "أفضل العبادة الدعاء" وقرأ: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ ﴾. رواه الحاكم وصحح إسناده.

قال العلامة ابن باديس في (مجالس التذكير): "فلا يدعو المؤمن الموحد غير الله، ولا أحدًا مع الله، إذ الدعاء عبادة، كما في حديث النعمان بن بشير، وكل عبادة لا تكون إلا لله فالدعاء لا يكون إلا لله، وإنما كان للدعاء من العباد من العبادة هذه المنزلة؛ لأن حقيقة العبادة هي التذلل والخضوع، وهو حاصل في الدعاء غايةَ الحصول، وظاهر فيه أشد الظهور". انتهى كلامه

وقال الشيخ سليمان بن عبد الله في (تيسير العزيز الحميد): "فثبت بهذا أن الدعاء عبادة من أجل العبادات، بل هو أكرمها على الله كما تقدم، فإن لم يكن الإشراك فيه شركًا، فليس في الأرض شرك، وإن كان في الأرض شرك، فالشرك في الدعاء أولى أن يكون شركًا من الإشراك في غيره من أنواع العبادة، بل الإشراك في الدعاء هو أكبر شرك المشركين الذين بُعث إليهم رسول الله ﷺ". انتهى كلامه.

النصوص الصريحة الدالة على أن دعاء غير الله شرك

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٤٠ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام: ٤١، ٤٢].

وقال سبحانه: ﴿ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴾ [الرعد: ١٦].

وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ۝٥٣ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [النحل: ٥٣، ٥٤].

وقال سبحانه: ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٦٨].

وقال -تبارك وتعالى-: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴾ [الأحقاف: ٥، ٦].

قال عبد الرحمن بن حسن في (قرة عيون الموحدين): "فدلت أيضًا -أي: الآية- على أن دعاء غير الله عبادة له، وأن الداعي له في غاية الضلال، وقد وقع من هذا الشرك في هذه الأمة ما طمّ وعمّ، حتى أظهر الله من يبينه بعد أن كان مجهولًا عند الخاصة والعامة إلاّ مَن شاء الله تعالى، وهو في الكتاب والسنة في غاية البيان، لكن القلوب انصرفت إلى ما زين لها الشيطان".

وقال الشيخ العلامة سليمان بن عبد الله في كتاب (تيسير العزيز الحميد) بعد أن تكلم على دعاء المسألة ودعاء العبادة، قال: "إذا تبين ذلك، فاعلم أن العلماء أجمعوا على أن من صرف شيئًا من نوعي الدعاء لغير الله فهو مشرك ولو قال: لا إله إلا الله محمد رسول الله، وصلى وصام؛ إذ شرط الإسلام مع التلفظ بالشهادتين أن لا يعبد إلا الله، فمَن أتى بالشهادتين وعبد غيرَ الله ما أتى بهما حقيقةً، وإن تلفظ بهما كاليهود الذين يقولون: لا اله إلا الله وهم مشركون، ومجرد التلفظ بهما لا يكفي في الإسلام بدون العمل بمعناهما واعتقاده إجماعًا".

وذكر محمد بن مبارك الميلي في كتابه (رسالة في الشرك ومظاهره)، أن الدعاء الديني ثلاثة أقسام: دعاؤك الله وحده، ودعاء آخر لك، ودعاء غير الله.

ثم قال: "القسم الثالث دعاء غير الله، وهو في مقابلة القسم الأول، فهو شرك صريح، وكفر قبيح، وله نوعان:

أحدهما: دعاء غير الله مع الله، كالذي يقول: يا ربي وشيخي، يا ربي وجدي، يا ألله وناسه، يا ألله يا سيدي عبد القادر... وإطلاق الشرك على هذا النوع

واضح ؛ لأن الداعي عطف غير الله بالواو ثابتة أو محذوفة ، وهي تقتضي مشاركة ما بعدها لما قبلها في الحكم ، والحكم المشترك فيه هنا هو عبادة الدعاء.

النوع الثاني: دعاء غير الله ، كالذي يقول : يا رجل الدالة ، يا ديوان الصالحين ، وإطلاق الشرك على هذا النوع باعتبار أن الداعي وإن اقتصر على المخلوق في اللفظ ، لم ينكر الله ، ولم يبرأ منه في العقد ، فكأن الله في كلامه مضمر ، ويصح في النوع الأول إطلاق أنه دعاء غير الله من دون الله أيضًا ؛ لأن الداعي لما أشرك بالله في دعائه ، لم يكن داعيًا على الوجه المشروع ، فكأنه لم يذكر الله لفظًا ؛ لأن المعدوم شرعًا كالمعدوم حسًّا ، والمعدوم هنا هو ذكر الله مشركًا بسواه.

إنكار القرآن لدعاء غير الله : كان القسم الثالث معهودًا بنوعيه عند العرب في جاهليتهم ، فعالجهم الكتاب العزيز ليصرفهم عنه ، تارة بتوجيههم إلى سؤال الله ، وأخرى بتعجيز المسئولين من دون الله ، وأحيانًا بتذكيرهم بما كمن في نفوسهم من توحيد الله ، وظهور ذلك في ألسنتهم عند اشتداد الخطب ، وغلبة اليأس ، وتارات بالأخبار عن تعاديهم عند البعث مع أوليائهم الذين يدعونهم اليوم ، آتاهم الكتاب من هذه الجهات الأربع ليقتلع من نفوسهم جذور الشرك".

ثم استطرد -رحمه الله- في بيان هذه الأساليب القرآنية في إبطال دعاء غير الله ، وهذا ملخص كلامه :

فمما جاء في توجيه الداعي إلى الله تعالى قوله ﷻ : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وقوله : ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

ومما جاء في تعجيز المسئولين قول الله تعالى : ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا

هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ﴾ [يونس: ١٠٧، ١٠٨]، وقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ [النحل: ٢١، ٢٠].

ومما جاء في تذكير السائلين بالتوحيد قول الله ﷻ: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام: ٤١، ٤٠].

ومما جاء في تعادي السائلين والمسئولين قول الله تعالى: ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

هذا بعض ما جاء في القرآن الكريم. وأما الأحاديث فنكتفي بحديث عبد الله بن عباس } قال: كنت خلفَ رسول الله ﷺ فقال: ((يا غلام، إني أعلمك كلماتٍ؛ احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل اللهَ، وإذا استعنتَ فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف)) رواه الترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح.

شـــــرك الطاعــــــة

من الشرك في الألوهية طاعةُ غير الله تعالى في تحليل ما حرم الله، وتحريم ما أحل الله، والدليل قول الله تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن

دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣١].

روى الترمذي عن عدي بن حاتم قال: ((أتيت النبيَّ ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب، فقال: يا عدي، اطرح عنك هذا الوثنَ، وسمعته يقرأ في سورة براءة: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ قال: أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئًا استحلوه، وإذا حرموا عليهم شيئًا حرموه)).

وقد فسر النبي ﷺ اتخاذَ الأحبار والرهبان أربابًا من دون الله بأنه ليس معناه الركوع والسجود لهم، وإنما معناه طاعتهم في تغيير أحكام الله، وتبديل شريعته، بتحليلهم الحرام، وتحريمهم الحلال، وأن ذلك يعتبر عبادةً لهم من دون الله؛ حيث نصبوا أنفسهم شركاءَ لله في التشريع، فمن أطاعهم في ذلك فقد اتخذهم شركاء لله في التشريع والتحليل والتحريم، وهذا من الشرك الأكبر، لقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾.

ومثل هذه الآية قول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٞۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢١].

وقال سبحانه: ﴿ أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةُ ٱلۡفَصۡلِ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ [الشورى: ٢١].

قال محمد الأمين الشنقيطي في (أضواء البيان): "وقوله تعالى: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾، فقد سمَّى تعالى الذين يشرعون من الدين ما لم يأذن به الله شركاء، ومما يزيد ذلك إيضاحًا أن ما ذكره الله عن الشيطان يوم القيامة من أنه يقول للذين كانوا يشركون به في دار الدنيا: ﴿ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ﴾ [إبراهيم: ٢٢] أن ذلك الإشراك المذكور ليس فيه شيء زائد على أنه دعاهم إلى طاعته، فاستجابوا له كما صرح بذلك في قوله تعالى عنه: ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾ [إبراهيم: ٢٢] وهو واضح كما ترى".

وقال ابن كثير: "وقوله ﷻ: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ أي: هم لا يتبعون ما شرع الله لك من الدين القويم، بل يتبعون ما شرع لهم شياطينهم من الجن والإنس من تحريم ما حرموا عليهم من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، وتحليل أكل الميتة، والدم والقمار، إلى نحو ذلك من الضلالات والجَهالة الباطلة التي كانوا قد اخترعوها في جاهليتهم من التحليل والتحريم، والعبادات الباطلة، والأقوال الفاسدة، وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: ((رأيت عمروَ بنَ لحي بن قمعة يجر قصبه في النار؛ لأنه أوّل مَن سيّب السوائب)) وكان هذا الرجل أحد ملوك خزاعة، وهو أول من فعل هذه الأشياء، وهو الذي حمل قريشًا على عبادة الأصنام لعنه الله وقبحه". انتهى كلام ابن كثير.

وطاعة الله بابٌ من أبواب التوحيد، ولوازم تحقيق شهادة أن لا إله إلاّ الله، وأن شهادة التوحيد تستلزم كون العبد مطيعًا لله تعالى فيما أحل وحرم، محلًّا للحلال، محرمًا للحرام، لا يتحاكم إلاّ إليه، ولا يحكم في الدين إلا شرع الله.

والعلماء وظيفتُهم بيان حكم الله الذي أنزله في كتابه، وعلى لسان رسوله ﷺ وليس لهم أن يحللوا ويحرموا تبعًا لأهوائهم أو مشتهياتهم، ولذلك كانت طاعتهم تبعًا لطاعة الله ورسوله ﷺ فطاعة العلماء والأمراء إنما هي من باب الوسائل حيث الغاية منها طاعة الله ﷻ بل حتى طاعة الرسول ﷺ فَأَمْرُها كذلك كما قال الله تعالى: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ [النساء: ٨٠] وأما طاعة الله تعالى فهي من باب المقاصد، فهذه هي الطاعة الاستقلالية التي تعد نوعًا من أنواع العبادة، فيجب إفراد الله تعالى بها.

وطاعة غير الله تعالى في تحليل الحرام وتحريم الحلال، وتشريع ما لم ينزله الله به سلطانًا، قد تصل إلى حد الشرك الأكبر كما في الآية السابقة: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾، وذلك إذا كانت طاعتهم في تبديل الدين تعظيمًا لهم، وجعل طاعتهم كطاعة الله.

أما طاعتهم في غير ذلك فهي طاعة عملية تستوجب العصيان، ولا تصل إلى حد الكفران. قال شيخ الإسلام ابن تيمية في (الفتاوى): "وهؤلاء الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا؛ حيث أطاعوهم في تحليل ما حرم الله، وتحريم ما أحل الله، يكونون على وجهين:

أحدهما: أن يعلموا أنهم بدلوا دينَ الله، فيتبعونهم على التبديل، فيعتقدون تحليل ما حرم الله، وتحريم ما أحل الله؛ اتباعًا لرؤسائهم، مع علمهم أنهم خالفوا دين الرسل، فهذا كفر، وقد جعله الله ورسولُه شركًا، وإن لم يكونوا يصلون لهم ويسجدون لهم، فكان من اتبع غيره في خلاف الدين مع علمه أنه خلاف الدين، واعتقد ما قاله ذلك دون ما قاله الله ورسوله مشركًا مثل هؤلاء.

الثاني: أن يكون اعتقادهم وإيمانهم بتحريم الحلال وتحليل الحرام ثابتًا، لكنهم أطاعوهم في معصية الله كما يفعل المسلم ما يفعله من المعاصي التي يعتقد أنها معاص، فهؤلاء لهم حكم أمثالهم من أهل الذنوب، كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: ((إنما الطاعةُ في المعروف)).

وقال ﷺ: ((على المسلم السمع والطاعة فيما أحب أو كره، ما لم يؤمر بمعصية))، وقال: ((لا طاعةَ لمخلوق في معصية الخالق))، وقال: ((من أمركم بمعصية الله فلا تطيعوه))، ثم ذلك المحرم للحلال، والمحلل للحرام إن كان مجتهدًا قصده اتباع الرسول ﷺ لكن خفي عليه الحق في نفس الأمر، وقد اتقى الله ما استطاع، فهذا لا يؤاخذه الله بخطئه، بل يثيبه على اجتهاده الذي أطاع به ربه، ولكن مَن علِمَ أن هذا خطأ فيما جاء به الرسول ﷺ ثم اتبعه على خطئه، وعدل عن قول الرسول ﷺ فهذا له نصيب من هذا الشرك الذي ذمه الله، لا سيما إن اتبع في ذلك هواه، ونصره باللسان واليد، مع علمه بأنه مخالف للرسول ﷺ فهذا شِرك يستحق صاحبه العقوبة عليه". انتهى كلامه.

(الشرك في الشفاعة)

عناصر الدرس

الشـــــرك في الشـــــفاعة

سنفصل ذلك في النقاط التالية:

أولًا: تعريف الشفاعة:

الشفاعة لغةً: اسم من شفع يشفع، إذا جعل الشيء اثنين، والشفع ضد الوتر، قال تعالى: ﴿ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ﴾ [الفجر: ٣].

وقد تنوعت تعريفاتها في الشرع، والمآل واحد:

١. سؤال الشافع الخيرَ لغيره.

٢. توسط الشافع لغيره بجلب نفع أو دفع ضر، أو رفعه.

فمثال جلب المنفعة: شفاعة النبي ﷺ لأهل الجنة بدخولها. ومثال دفعة المضرة: شفاعة النبي ﷺ لمن استحق النار أن لا يدخلها.

٣. وقيل في تعريف الشفاعة أيضًا: هي السؤال في التجاوز عن الذنوب والجرائم.

ثانيًا: بيان كيف يقع الشرك فيها:

إن المشركين عبَّاد الأوثان كانوا يقولون: إن أصنامهم تشفع لهم عند الله، وهم يشركون بالله ﷻ فيها بالدعاء والاستغاثة وما أشبه ذلك. وهم بذلك يظنون أنهم معظمون لله، ولكنهم منتقصون له؛ لأنه عليم بكل شيء، وله الحكم التام المطلق والقدرة التامة، فلا يحتاج إلى شفعاء. ويقولون: إننا نعبدهم ليكونوا

شفعاءَ لنا عند الله، فيقربونا إلى الله، وهم ضالُّون في ذلك، فهو سبحانه عليم وقدير وذو سلطان، ومَن كان كذلك فإنه لا يحتاج إلى شفعاء.

والمشركون قديمًا وحديثًا إنما وقعوا في الشرك؛ لتعلقهم بشوائب الشفاعة، كما قال تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [يونس: ١٨]، وقال سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ [الزمر: ٣]، وكذلك قطع الله أطماع المشركين منها، وأخبر أنه شِرك، ونزه نفسه عنه، ونفى أن يكون للخلق من دونه ولي ولا شفيع، كما قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ [السجدة: ٤].

وقال: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [الزمر: ٤٣- ٤٤]، وقال: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٤]، وقال سبحانه: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ ﴾ [سبأ: ٢٢، ٢٣].

قال الشيخ العلامة سليمان بن عبد الله في (تيسير العزيز الحميد): "فإن اتخاذ الشفعاء والأنداد من دون الله هضم لحق الربوبية، وتنقص للعظمة الإلهية، وسُوء ظن برب العالمين، كما قال تعالى: ﴿ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ [الفتح: ٦] فإنهم ظنوا به ظن السوء، حتى أشركوا به، ولو أحسنوا به الظن لوحّدوه حق توحيده، ولهذا أخبر ﷻ عن المشركين أنهم ما قدروه حق قدره، وكيف يقدره حق قدره مَن اتخذ من دونه نِدًّا أو شفيعًا؛ يحبه ويخافه ويرجوه، ويذل له ويخضع له، ويهرب من سخطه، ويؤثر مرضاته، ويدعوه ويذبح له، وينذر، وهذه هي التسوية التي أثبتها المشركون بين الله وبين آلهتهم، وعرفوا وهم في النار أنها كانت باطلًا وضلالًا، فيقولون وهم في النار: ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء: ٩٨، ٩٧].

ومعلوم أنهم ما ساووهم به في الذات والصفات والأفعال ولا قالوا: إن آلهتكم خلقت السماوات والأرض، وإنها تحيي وتميت، وإنما ساووهم به في المحبة والتعظيم والعبادة، كما ترى عليه أهل الإشراك ممن ينتسب إلى دين الإسلام، وإنما كان ذلك هضمًا لحق الربوبية، وتنقصًا لعظمة الإلهية، وسوءَ ظنٍّ برب العالمين؛ لأن المتخذ للشفعاء والأنداد إما أن يظن أن الله سبحانه يحتاج إلى مَن يدبر أمر العالم معه مِن وزير أو ظهير أو معين، وهذا أعظم التنقّص لمن هو غني عن كل ما سواه بذاته، وكل ما سواه فقيرٌ إليه بذاته، وإما أن يظن أن الله سبحانه إنما تتم قدرته بقدرة الشفيع، وإما أن يظن أنه لا يعلم حتى يعلمه الشفيع، أو لا يرحم حتى يجعله الشفيع يرحم، أو لا يكفي وحده، أو لا يفعل ما يريد العبد

حتى يشفع عنده كما يشفع عند المخلوق، أو لا يجيب دعاء حتى يسألوا الشفيع أن يرفع حاجتهم إليه كما هو حال ملوك الدنيا.

وهذا أصل شر الخلق، أو يظن أنه لا يسمع حتى يرفع الشفيع إليه ذلك، أو يظن أن للشفيع عليه حقًّا، فهو يقسم عليه بحقه، ويتوسل إليه بذلك الشفيع كما يتوسل الناس إلى الأكابر والملوك بمن يعز عليهم، ولا تمكنهم مخالفته، وكل هذا تنقص للربوبية وهضم لحقها. ذكر معناه ابن القيم.

فلهذه الأمور وغيرها أخبر ﷻ أن ذلك شرك ونزه نفسه عنه، فقال: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [يونس: ١٨].

فإن قلت: إنما حكم ﷻ بالشرك على من عبد الشفعاء، أما من دعاهم للشفاعة فقط فهو لم يعبدهم، فلا يكونَ ذلك شركًا؟

قيل: مجرد اتخاذ الشفعاء ملزوم للشرك، والشرك لازم له، كما أن الشرك ملزوم لتنقص الرب ﷻ والتنفص لازم له ضرورة شاء المشرك أم أبى، وعلى هذا فالسؤال باطل من أصله، لا وجودَ له في الخارج، وإنما هو شيء قدَّره المشركون في أذهانهم، فإن الدعاء عبادة بل هو مخ العبادة، فإذا دعاهم للشفاعة فقد عبدهم وأشرك في عبادة الله شاء أم أبى". انتهى كلامه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "فنفى عما سواه كل ما يتعلق به المشركون، فنفى أن يكون لغيره مُلك أو قسط من الملك، أو يكونوا عونًا لله، ولم يبق إلّا الشفاعة، فبين أنها لا تنفع إلّا لمن أذن له الرب، كما قال تعالى: ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى

يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وقال تعالى عن الملائكة: ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ ﴾ [الأنبياء: ٢٨] وقال: ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴾ [النجم: ٢٦] فهذه الشفاعة التي يظنها المشركون هي منتفية يوم القيامة كما نفاها القرآن، وأمّا ما أخبر به النبي ﷺ فأخبر أنه يأتي فيسجد لربه ويحمده، لا يبدأ بالشفاعة أولًا، فإذا سجَدَ وحمِدَ ربه بمحامد يفتحها عليه، يقال له -أي محمد-: ((ارفع رأسك، وقل تسمع، وسل تعط، واشفع تشفع، فيقول: أي رب، أمتي، فيحد له حَدًا فيدخلهم الجنة. وكذلك في الثانية، وكذلك في الثالثة)).

وقال له أبو هريرة: ((مَن أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ قال: من قال لا اله إلّا الله خالصًا من قلبه)) فتلك الشفاعة هي لأهل الإخلاص بإذن الله، ليست لمن أشرك بالله، ولا تكون إلا بإذن الله، وحقيقته أنّ الله هو الذي يتفضل على أهل الإخلاص والتوحيد، فيغفر لهم بواسطة دعاء الشافع الذي أذن له أن يشفع؛ ليكرمه بذلك، وينال به المقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرون، كما كان في الدنيا يستسقي لهم ويدعو لهم، وتلك شفاعة منه لهم، فكان الله يجيب دعاءه وشفاعته.

وإذا كان كذلك، فالظلم ثلاثة أنواع: فالظلم الذي هو شرك لا شفاعة فيه، وظلم الناس بعضهم بعضًا لا بد فيه من إعطاء المظلوم حقه، لا يسقط حق المظلوم لا بشفاعة ولا غيرها، ولكن قد يُعطَى المظلوم من الظالم، كما قد يغفر لظالم نفسه بالشفاعة، فالظالم المطلق ما له من شفيع مُطاع، وأمّا الموحد فلم يكن ظالمًا مطلقًا، بل هو موحد مع ظلمه لنفسه، وهذي وهذا إنما نفعه في الحقيقة إخلاصُه لله، فبه صار من أهل الشفاعة.

ومقصود القرآن بنفي الشفاعة نفي الشرك، وهو أن أحدًا لا يعبد إلّا الله، ولا يدعو غيره، ولا يسأل غيره، ولا يتوكل على غيره لا في شفاعة ولا غيرها، فليس له أن يتوكل على أحد في أن يرزقه، وإن كان الله يأتيه برزقه بأسباب. كذلك ليس له أن يتوكل على غير الله في أن يغفر له ويرحمه في الآخرة، وإن كان الله يغفر له ويرحمه بأسباب من شفاعة وغيرها، فالشفاعة التي نفاها القرآن مطلقًا ما كان فيها شرك، وتلك منتفية مطلقًا، ولهذا أثبت الشفاعة بإذنه في مواضع، وتلك قد بين الرسول ﷺ أنها لا تكون إلّا لأهل التوحيد والإخلاص، فهي من التوحيد، ومستحقها أهل التوحيد". انتهى كلام شيخ الإسلام ابن تيمية. وهناك شفاعة عادية، فالملوك في الدنيا يحتاجون إلى شفعاء، إما لقصور علمهم، أو لنقص قدرتهم، فيساعدهم الشفعاء في ذلك، أو لقصور سلطانهم، فيتجرأ عليهم الشفعاء، فيشفعون بدون استئذان، ولكن الله ﷻ كامل العلم والقدرة والسلطان، فلا يحتاج لأحد أن يشفع عنده، ولهذا لا تكون الشفاعة عنده سبحانه إلا بإذنه؛ لكمال سلطانه وعظمته. ثم الشفاعة لا يراد بها معونة الله سبحانه في شيء مما شفع فيه، فهذا ممتنع، ولكن يقصد بها أمران، هما:

١. إكرام الشافع.

٢. ونفع المشفوع له.

ثالثًا: أقسام النّاس في الشفاعة:

النّاس في الشفاعة على ثلاثة أقسام:

١. **قسم غَلَا في إثباتها:** وهم النصارى المشركون، وغلاة الصوفية، والقبوريون؛ حيث جعلوا شفاعة من يعظمونه عند الله يوم القيامة كشفاعته في الدنيا، حيث اعتقدوا أنّ هؤلاء المعظمين يشفعون استقلالًا.

٢. **قسم أنكر الشفاعة:** كالمعتزلة والخوارج؛ حيث أنكروا شفاعة النبي ﷺ وغيره لأهل الكبائر، وقصروا الشفاعةَ على التائبين من المؤمنين؛ لأنّ إثبات الشفاعة للفسّاق ينافي مبدأ الوعيد في مذهبهم الباطل، فهم يرون وجوب إنفاذ الوعيد لمن استحقه، ولا يرون الشفاعة له، لا من النبي ﷺ ولا من غيره.

٣. **قسم توسط:** وهم أهل السنة والجماعة؛ فلم ينفوا كل شفاعة، ولم يثبتوا كل شفاعة، بل أثبتوا من الشفاعة ما دلّ عليه الدليل من الكتاب والسنة، ونفوا منها ما نفاه الدليل؛ فالشفاعة المثبتة عندهم، هي التي تطلب من الله ﷻ وهي التي تكون للموحدين بعد إذن الله للشافع ورضاه عن المشفوع له؛ فلا تطلب من غير الله، ولا تكون إلّا بعد إذنه ورضاه.

فهذه الشفاعة يثبتها أهل السنة بأنواعها، بما في ذلك الشفاعة لأهل الكبائر، أما الشفاعة المنفية عند أهل السنة، فهي التي نفاها الشرعُ، وهي التي تطلب من غير الله استقلالًا، ولم تتوافر فيها شروط الشفاعة، كما تقدم ذكره في سياق الكلام السابق.

رابعًا: الشفاعة نوعان: مثبتة ومنفية:

١. مثبتة: وهي التي توافرت فيها شروط الشفاعة.

٢- منفية: وهي التي لم تتوافر فيها تلك الشروط.

خامسًا: شروط الشفاعة:

للشفاعة المثبتة شرطان، وهما:

١ - إذن الله للشافع، قال تعالى: ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

٢ - رضاه عن المشفوع له، قال الله تعالى: ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

وبعضهم يزيد شرطين وهما:

٣- قدرة الشافع على الشفاعة، كما قال تعالى في حق الشافع الذي يطلب منه: ﴿ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [الزخرف: ٨]، فعلم أنّ طلبها من الأموات طلب ممن لا يملكها.

٤ - إسلام المشفوع له، قال تعالى: ﴿ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ [غافر: ١٨] والمراد بالظالمين هنا الكافرون، ويستثنى منهم أبو طالب.

وهذان الشرطان -في الحقيقة- يدخلان في الشرطين الأولين؛ فلا يَقْدر على الشفاعة إلّا من أذن له الله، ولا يُشفع إلّا لمسلم.

سادسًا: أنواع الشفاعة المثبتة:

قال الله تعالى: ﴿ لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ﴾ [الزمر: ٤٤]، فهذه الآية تدل على أنّ للشفاعة أنواعًا متعددة، وفيما يلي ذكر تلك الأنواع:

الأول: الشفاعة الكبرى التي يتأخر عنها أولوا العزم من الرسل، حتى تنتهي إلى النبي ﷺ فيقول: ((أنا لَهَا))، حتى تهرعَ الخلائق إلى كل الأنبياء؛ ليشفعوا لهم عند ربّهم، ليريحهم من مقامهم في الموقف، ويقضي بينهم، وهذه الشفاعة خاصة بالنبي ﷺ.

الثاني: شفاعة النبي ﷺ لأهل الجنّة بدخولها، وهذه -أيضًا- خاصة بالنبي ﷺ.

الثالث: شفاعة النبي ﷺ لعمه أبي طالب بأن يخفف عنه من عذاب النّار، وهذه خاصة بالنبي ﷺ.

الرابع: الشفاعة لقوم من العُصاة من أمة محمد ﷺ قد استوجبوا النّار، فيشفع لهم النبي ﷺ ألّا يدخلوها، وهذه للنبي ﷺ ولغيره من الملائكة، والمؤمنين.

الخامس: الشفاعة للعصاة من أهل التوحيد، الذين يدخلون النّار بذنوبهم بأن يخرجوا منها، وهذه للنبي ﷺ ولغيره.

السادس: الشفاعة لقوم من أهل الجنّة في زيادة ثوابهم، ورفع درجاتهم، وهذه للنبي ﷺ وغيره.

السابع: شفاعة الأفراط لوالديهم المؤمنين.

الثامن: شفاعة الشهداء لذويهم من المؤمنين.

التاسع: شفاعة المؤمنين بعضهم لبعض.

شرك المحبة

شِرك المحبة، وسنفصل الكلام في المحبة من خلال النقاط التالية:

أولًا: أقسام المحبة:

المحبة قسمان:

القسم الأول: مشتركة: وهي التي تصلح للخلق بعضهم من بعض، وهي ثلاثة أنواع:

١- محبة طبيعية مشتركة ؛ كحب النبي ﷺ الحلواء والعسل ، كما روى البخاري عنه.

٢- محبة إشفاق ورحمة ؛ كحب الوالد لولده.

٣- محبة أنس وألفة ؛ كمحبة الإخوة بعضهم بعضًا.

القسم الثاني: المحبة الخاصة ، وهي التي لا يجوز صرفها إلّا لله تعالى ، ومتى أحب العبد بها غيره كان ذلك شركًا.

قال الشيخ العلامة سليمان بن عبد الله في (تيسير العزيز الحميد) عند ذكر هذا القسم : "القسم الثاني : المحبة الخاصة ، التي لا تصلح إلّا لله ، ومتى أحب العبد بها غيره كان شركًا لا يغفره الله ، وهي محبة العبودية المستلزمة للذل والخضوع ، والتعظيم ، وكمال الطاعة ، وإيثاره على غيره ، فهذه المحبة لا يجوز تعلقها بغير الله أصلًا -كما حققه ابن القيم- وهي التي سوى المشركون بين الله تعالى وبين آلهتهم فيها ، كما قال تعالى في قوله : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥].

قال ابن كثير: "يذكر تعالى حالَ المشركين به في الدنيا ، وما لهم في الآخرة من العذاب والنكال ؛ حيث جعلوا لله أندادًا ، أي : أمثالًا ونظراء يحبونهم كحبه ، ويعبدونهم معه ، وهو الله الذي لا إله إلا هو ، ولا ضدَّ له ، ولا ند له ، ولا شريكَ معه ، وقوله : ﴿ يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾ أي : يساوونهم بالله في المحبة والتعظيم ، ولهذا يقولون لأندادهم وهم في النار : ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ فهذا هو مساواتهم برب العالمين ، وهو العدل المذكور في قوله : ﴿ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأنعام: ١].

أما مساواتهم بالله في الخلق والرزق وتدبير الأمور، فما كان أحد من المشركين يساوون أصنامهم بالله في ذلك، وهذا القول رجحه شيخ الإسلام، والثاني: أن المعنى يحبون أندادهم كما يحب المؤمنون الله، ثم بين أن محبة المؤمنين لله أشد من محبة أصحاب الأنداد لأندادهم، قال شيخ الإسلام: "وهذا متناقض وهو باطلٌ، فإن المشركين لا يحبون الأنداد مثل محبة المؤمنين الله، ودلت الآية على أن مَن أحب شيئًا كحب الله، فقد اتخذه ندًّا لله، وذلك هو الشرك الأكبر" قاله المصنف.

وعلى وجوب إفراد الله بالمحبة الخاصة التي هي توحيد الإلهية، بل الخلق والأمر والثواب والعقاب إنما نشأ عن المحبة ولأجلها، فهي الحق الذي خُلقت به السموات والأرض، وهي الحق الذي تضمنه الأمر والنهي، وهي سِر التأله، وتوحيدها هو شهادة أن لا إله إلا الله، أو ليس كما زعم المنكرون أن الإله هو الرب الخالق، فإن المشركين كانوا مقرين بأنه لا ربَّ إلا الله، ولا خالق سواه، ولم يكونوا مقرين بتوحيد الإلهية الذي هو حقيقة لا إله إلا الله، فإن الإله الذي تألهه القلوب حبًّا وذلًّا وخوفًا ورجاءً وتعظيمًا وطاعةً، إله بمعنى مألوه، أي: محبوب، معبود، وأصله من التأله، وهو التعبد الذي هو آخر مراتب الحب، فالمحبة حقيقة العبودية، ودلت أيضًا على أن المشركين يعرفون الله ويحبونه، وإنما الذي أوجب كفرهم مساواتهم به الأنداد في المحبة، فكيف بمن أحب الأنداد أكثر من حب الله، فكيف بمن لم يحب الله أصلًا، ولم يحب إلا الندّ وحده، فالله المستعان"، انتهى كلامه.

وقال ابن القيم في (طريق الهجرتين): "وأما المحبة الخاصة التي لا تصلح إلا لله وحده، ومتى أحب العبد بها غيره كان شركًا لا يغفره الله، فهي محبة العبودية المستلزمة للذل والخضوع والتعظيم وكمال الطاعة، وإيثاره على غيره، فهذه

المحبة لا يجوز تعلقها بغير الله أصلًا، وهي التي سوى المشركون بين آلهتهم وبين الله فيها، كما قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥] وأصح القولين أن المعنى: يحبونهم كما يحبون الله، وسووا بين الله وبين أندادهم في الحب، ثم نفى ذلك عن المؤمنين فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ فإن الذين آمنوا وأخلصوا حبهم لله لم يشركوا به معه غيره، وأما المشركون فلم يخلصوا لله".

ثانيًا: حكم المحبة:

ومحبة الله تعالى على درجتين، فمنها فرض واجب على العباد، ومنها مستحب، وذلك حسب مقتضاها.

قال ابن رجب في (فتح الباري): "ومحبة الله على درجتين: إحداهما فرض، وهي المحبة المقتضية لفعل أوامره الواجبة، والانتهاء عن زواجره المحرمة، والصبر على مقدوراته المؤلمة، فهذا القدر لا بد منه في محبة الله، ومن لم تكن محبته على هذا الوجه فهو كاذب في دعوى محبة الله". ثم قال: "والدرجة الثانية من المحبة: وهي فضل مستحب، أن ترتقي المحبة من ذلك إلى التقرب بنوافل الطاعات، والانكفاف عن دقائق الشبهات والمكروهات، والرضا بالأقضية المؤلمات".

قال ابن دقيق العيد: "سألَنا يومًا أبو العباس بن سريج بشيراز، ونحن نحضر مجلسه للفقه، فقال: أمحبة الله فرض أو لا؟ فقلنا: فرض، قال: ما الدليل؟ فما فينا من أجاب بشيء، فسألناه، فقال: قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ ﴾ [التوبة: ٢٤] إلى قوله: ﴿ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ [التوبة: ٢٤]، قال: فتوعدهم الله على تفضيل محبتهم لغيره على محبته، والوعيد لا يقع إلّا على فرض لازم".

وقال سليمان بن عبد الله في (تيسير العزيز الحميد): "﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي: في إيثار ذلك على فعل أمر الله وأمر رسوله، الذي ينشأ من المحبة، لا في الحب الذي يوجب قصد المحبوب بالتأله؛ فإن مَن ساوَى بين الله وبين غيره في هذا الحب فهو مشرك، فكيف إذا كان غير الله أحب إليه، كما هو الواقع من عباد القبور، فإنهم يحبون أندادهم أعظم من حب الله".

ثالثًا: الفرق بين المحبة في الله والمحبة مع الله:

لا بد من التفريق بين المحبتين؛ لأن إحداهما محمودة، والأخرى مذمومة.

قال المبارك الميلي في (رسالة الشرك ومظاهره): "محبة غير الله، إما تكون في الله أو مع الله؛ فالمحبة في الله أن تحب من يحبه الله، والله يحب المحسنين والمتقين والتوابين والمتطهرين، وإذًا تكون محبة غير الله من معنى محبة الله، مقوية لها غير متنافية معها. والمحبة مع الله: أن يتعلق قلبك بسواه، فتغفل عن الله، وتتوجه إلى غيره بالرغبة والرهبة، فتكون محبتك هذه مغنية عن محبة الله منافية لها. فالمحبة في الله محمودة متعدية إلى كل داعٍ إلى الله من الأنبياء والمرسلين، والأولياء والصالحين، والعلماء العاملين، والمحبة مع الله ذميمة، حاملة لكل ما في الشرك من مساوئ وأضرار".

رابعًا: موجبات المحبة وأسبابها:

ومحبة الله -تبارك وتعالى- تكون لكماله وجماله وجلاله، وهو سبحانه أهل أن يُحب لذاته وصفاته، وتكون أيضًا لإحسانه إلى عباده، وإنعامه عليهم ظاهرًا وباطنًا؛ ونعمه تعالى لا تُحصَى كما قال: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ [النحل: ١٨]، والقلوب مجبولة على حب من أنعم عليها وأحسن إليها.

قال ابن رجب في (فتح الباري): "ومحبة الله تنشأ تارةً من معرفته، وكمالُ معرفته تحصل من معرفة أسمائه وصفاته وأفعاله الباهرة، والتفكر في مصنوعاته، وما فيها من الإتقان والحكم والعجائب؛ فإن ذلك كله يدل على كماله وقدرته وحكمته وعلمه ورحمته، وتارة تنشأ من مطالعة النعم".

وعلى هذا فكلما كان العبد بالله وأسمائه وصفاته أعرف، كان أشد حبًّا له، وأكثر اشتياقًا إليه، والمعطلة والجهمية هم أبعد الناس عن محبة الله تعالى.

قال ابن القيم في (مدارج السالكين): "ولذلك ضربت قلوبهم -أي: الجهمية والمعطلة- بالقسوة، وضربت دونهم ودون الله حُجب على معرفته ومحبته، فلا يعرفونه ولا يحبونه، ولا يذكرونه إلا عند تعطيل أسمائه وصفاته، فذكرهم أعظم آثامهم وأوزارهم، وحسب ذي البصيرة وحياة القلب ما يرى على كلامهم من القسوة والمقت، والتنفير عن محبة الله ﷻ ومعرفته وتوحيده والله المستعان".

خامسًا: لوازم المحبة:

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [آل عمران: ٣١]، وقال سبحانه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ﴾ [المائدة: ٥٤].

قال المبارك الميلي في (رسالة الشرك ومظاهره): "ومجموع ما أفادته آيتا آل عمران والمائدة خمس صفات، هي الدلائل على صدق المحبة، وهي: اتّباع الرسول، والتراحم بين الإخوان في الدين، والشدة على الأعداء فيه، والقيام بكل ما يؤيد الدين، وعدم التقصير في الصدع بالحق مراعاة للناس".

الشـــــرك في الخـــــوف

الخوف من الله تعالى من أفضل العبادات، وأعلاها مقامًا، وأشرفها منزلة، وأنفعها للقلب، وهو من فروض الأعمال القلبية التي أوجبها الله تعالى على عباده المؤمنين، وهو مقام الأنبياء والمرسلين كما قال الله تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ﴾ [الأنبياء: ٩٠]، فالرغب هو الرجاء، والرهب هو الخوف والخشية. وقال ﷻ عن ملائكته الذين قد أَمَّنَهُم من عذابه: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [النحل: ٥٠]. وقال عن القوم الصالحين، وخواص عباده المحسنين: ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴾ [النور: ٣٧].

وقال رسول الله ﷺ: ((إني أعلَمُكم بالله، وأشدُّكم له خشيةً)) رواه مسلم.
وقال ﷺ: ((إني أخوفُكم لله، وأعلمُكم بما أتقي)) رواه مسلم.

والخوف المشروع الصادق هو ما كان منه في غير غلو ولا تفريط، وهو ما حال بين صاحبه وبين محارم الله تعالى، ودعا صاحبه إلى مراعاة وامتثال أوامر الله، ولم يجرّه إلى اليأس والقنوط. إن الخوف من الله تعالى من أعظم العبادات وأشرفها منزلة عند الله تعالى كما تقدّم، وهو شرط في حصول الإيمان، كما قال الله ﷻ: ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

قال ابن القيم في (طريق الهجرتين): "فجعل الخوف منه شرطًا في تحقيق الإيمان، وإن كان الشرط داخلًا في الصيغة على الإيمان، فهو المشروط في المعنى، والخوف شرط حصوله وتحققه؛ وذلك لأنّ الإيمان سبب الخوف الحاصل عليه، وحصول المسبب شرط في تحقق السبب، كما أنّ حصول السبب موجب لحصول مسببه،

فانتفاء الخوف عند انتفاء الإيمان انتفاء للمشروط عند انتفاء شرطه، وانتفاء الخوف عند انتفاء الإيمان، انتفاءٌ للمعلول عند انتفاء علته فتدبره. والمعنى: إن كنتم مؤمنين فخافوني. فأداة الشرط قد دخلت على السبب المقتضي للخوف وهو الإيمان، وكل منهما مستلزم للآخر، لكن الاستلزام مختلف، وكل منهما منتفٍ عند انتفاء الآخر، لكن جهة الانتفاء مختلفة كما تقدّم، والمقصود أنّ الخوف من لوازم الإيمان وموجباته، فلا تختلف عنه".

والخوف من الله تعالى متعلق بالعلم، لازم له من حيث كماله ونقصانه، فكلما كان العبد بالله أعلم كان له أطوع وأخوفَ، كما قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ [فاطر: ٢٨].

ونقصان الخوف في العبد من الله إنما هو ناشئ عن قلة معرفته به، وعلى هذا فكلما كان العبدُ لربه أقربَ، وكانت منزلتُه عنده أعلى، كان له أشدَّ خشيةً؛ لأنه حينئذٍ يكون أحرصَ على الإيفاء بحقوق العبودية، وأدائها على وجه الكمال.

وأيضًا فإن العبد مهما اجتهد فإنه يتعذر عليه الإتيانُ بكل ما طُلِبَ منه، بل هو معرض في كل لحظة للتقصير، فهو مشفق من هذا النقص؛ لمعرفته بالحق المطلوب.

ووجه آخر من دواعي الخوف: أنّ من عرف حق الله تمام المعرفة، علم بأن أعماله لو بلغت الكمال، فالذي ينبغي لله تعالى أضعاف أضعاف ذلك؛ لأنّ الذي يأتي به منها لا يقابل أقل النعم. وكذلك فإن العبد إذا علم أن الله يحول بين المرء وقلبه، وأنه هو مقلبُ القلوب، يهدي من يشاء ويضل من يشاء، لم يأمن على نفسه مكرَ الله، وأن يحول بينه وبين قلبه، أو يُزيغه بعد هدايته، والقلوب

بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، ولهذا كان من دعاء الراسخين في العلـــم: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾ [آل عمران: ٨]. والخوف من الله تعالى له تعلق بذنب العبد، وعاقبته التي هي جزاؤه ومصيره.

قال ابن القيم في (مدارج السالكين): "والخوف مسبوق بالشعور والعلم، فمحال خوف الإنسان مما لا شعور له به، وله متعلقان؛ أحدهما: نفس المكروه المحذور وقوعه، والثاني: السبب والطريق المفضي إليه. فعلى قدر شعوره بإفضاء السبب إلى المخوف، وبقدر المخوف يكون خوفه، وما نقص شعوره بأحد هذين نقص من خوفه بحسبه، فمَن لم يعتقد أن سبب كذا يفضي إلى محذور كذا، لم يخف من ذلك السبب، ومن اعتقد أنه يفضي إلى مكروه ما، ولم يعرف قدره، لم يخف منه ذلك الخوف، فإذا عرف قدر المخوف، وتيقن إفضاء السبب إليه حصل له الخوف".

والخوف مقصود لغيره قصد الوسائل؛ ولهذا فإنه يزول لزوال المخوف، ويبدل به أهل الجنة أمنًا، فإنهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وللوسائل شرف المقاصد، فكونه يزول في الآخرة لا يدل على أنه مقام نقص؛ لأنّ من العبادات ما يزول في الآخرة، وهو من أشرف المنازل، كالإيمان بالغيب، والجهاد في سبيل الله، والصلاة والزكاة وغيرها من الأعمال، فكلها تزول في الآخرة، ولا يدل ذلك على نقصانها. وإنما يُزال الخوف في الآخرة؛ لأن تعلقه إنما هو بالأفعال لا بالذات، وقد أَمَّنَهم ما كانوا يخافون منه، ومن أن يفعل بهم ربهم ما يخيفهم، فأَمِنُوا بطشه ومكره وعذابه؛ لأَمْنِهم من أن يفعلوا ما يخافون منه؛ فإن الآخرة ليست دار سعي وعمل، ولهذا جاء اقتران الخوف بالعمل الصالح في قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٥٧ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ

﴿ وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٧ ـ ٦١].

والخوف أنفع لصاحبه في الدنيا؛ إذ به وصوله إلى الأمن التام، فالله تعالى لا يجمع على العبد مخافتين اثنتين، فمن خافه في الدنيا أمنه يوم القيامة، ومن أمنه في الدنيا ولم يخفه، أخافه في الآخرة، وناهيك شرفًا وفضلًا بمقام ثمرته الأمن الدائم المطلق.

والخوف من الله تعالى عبودية القلب؛ كالمحبة والتوكل والإنابة والرجاء وغيرها؛ فلا يجوز صرفه لغير الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال: ﴿ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾ [النحل: ٥١] وقال: ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ [النور: ٥٢]، فجعل الطاعة لله ولرسوله، والخشية والتقوى له وحدَه لا شريك له. فتعلُّقُ الخوف بالله -تبارك وتعالى- من أعظم العبادات والقُربات عند الله، وتعلُّقُه بغير الله شرك، وهو من أكبر الكبائر، وأعظم الذنوب المنافية للتوحيد.

قال الشيخ سليمان بن عبد الله آل الشيخ في (تيسير العزيز الحميد) بعد ذكره لأنواع العبادات، وأنه يجب إخلاصها لله تعالى، وأن صرفها لغير الله تعالى شرك، قال: "ومنها الخوف، فلا يخاف خوف السر إلّا من الله، ومعنى خوف السر هو أن يخاف العبد من غير الله تعالى أن يصيبه مكروه بمشيئته وقدرته، وإن لم يباشره فهذا شرك أكبر؛ لأنه اعتقاد للنفع والضر في غير الله، قال الله تعالى: ﴿ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾ [النحل: ٥١] وقال تعالى: ﴿ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا ﴾ وقال تعالى: ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [يونس: ١٠٧]".

(أنواع الشِّرك في الألوهية)

عناصر الدرس

من الشرك اعتقاد أن الأنبياء أو أن بعض الأولياء والصالحين يعلمون الغيب

معنى الغيب: قال مبارك الميلي في رسالته في (الشرك ومظاهره)، وفي (مفردات الراغب): أن ما غاب عن الحاسة، وعلم الإنسان فهو غيب، وفي منتقى الباجي: الغيب هو المعدوم، وما غاب عن الناس، وفي أحكام ابن العربي: حقيقة الغيب ما غاب عن الحواس، مما لا يوصَل إليه إلا بالخبر دون النظر.

إن مما استأثر الله تعالى به علم الغيب فلا يُظهر على غيبه أحدًا، وليس عند أحد سواه شيء من علم الغيب، لا رسول ولا ولي ولا صالح، فهو مختص بالله ﷻ إلا من ارتضى من رسول مما أعلمه بوحيه كما قال: ﴿ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧]، وقال ﷻ: ﴿ قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ﴾ [النمل: ٦٥]، وقوله ﷻ لنبيه ﷺ في سورة الأعراف: ﴿ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

وعِلْم الغيب من خصائص الربوبية المستلزمة لتوحيد الألوهية، كما قال الله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِ ﴾ [هود: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿ قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ﴾ [النحل: ٦٥]، وقال -جل ذكره-: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ ﴾ [لقمان: ٣٤].

أخرج البخاري عن ابن عمر { قال: قال النبي ﷺ: ((مفاتيح الغيب خمس، ثم قرأ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾ الآية)). وفي رواية عند البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة: ((في خمس لا يعلمهن إلا الله، ثم تلا النبي ﷺ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾)) في حديث جبريل الطويل. وعلى هذا جاء قول الله تعالى: ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام: ٥٩].

قال الشوكاني في (فتح القدير): وقوله: ﴿ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ﴾ جملة مؤكدة لمضمون الجملة الأولى، وأنه لا علم لأحد من خلقه بشيء من الأمور الغيبية التي استأثر الله بعلمها، ويندرج تحت هذه الآية علم ما يستعجله الكفار من العذاب كما يرشد إليه السياق اندراجًا أوليًّا، وفي هذه الآية الشريفة ما يدفع أباطيل الكهان والمنجمين والرمليين وغيرهم من المدعين ما ليس من شأنهم، ولا يدخل تحت قدرتهم، ولا يحيط به علمُهم، وقد ابتلي الإسلامُ وأهلُه بقوم سوء من هذه الأجناس الضالة والأنواع المخذولة، ولم يربحوا من أكاذيبهم وأباطيلهم.

وقال مبارك بن محمد الميلي في رسالة (الشرك ومظاهره): حكم إضافة علم الغيب للمخلوق: وقد بسط القول في تحليل مفاتح الغيب أبو بكر بن العربي في أحكامه أول سورة "الأنعام"، وحكم بكفر من ادَّعى علم واحدة منها، إلا من استند في الساعة إلى أماراتها التي أخبر بها النبي ﷺ أو من جرى في تعيين ما في الرحم من ذكر أو أنثى على تجربة عادية لم يوجبها في الخلقة، أو من أخبر بالكسوف والخسوف، اعتمادًا على الحساب، لكن هذا الحاسِب يؤدّب ويسجن لإدخاله الشك على العامة في تعليق العلم بالغيب المستأنف، وهم لا يدرون قدر

الفرق بين هذا وغيره، فتشوش عقائدهم في الدين. هذا تحصيل كلامه - رحمه الله.

وحكى ابن الحاج في حاشيته على "صغير ميارة" الاتفاق على كفر من يقول: إن الأنبياء يعلمون ما كان وما يكون إلى يوم القيامة.

قال أبو إسحاق في (الموافقات): وقد تعاضدت الآيات والأخبار، وتكررت في أنه لا يعلم الغيب إلا الله، وهو يفيد صحة العموم من تلك الظواهر، حسبما مر في باب العموم من هذا الكتاب. فإذا كان كذلك خرج من سوى الأنبياء من أن يشتركوا مع الأنبياء -صلوات الله عليهم- في العلم بالمغيبات، ومراده بعلم الأنبياء بالغيب ما كان عن طريق الوحي كما لا يخفى.

فالغيب عند الله ﷻ ومختص به ﷻ يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون، يعلم ما يكون في الآخرة وما في الجنة والنار ويعلم الناجين من الهالكين، ويعلم أهل الجنة ويعلم أهل النار ويعلم كل شيء ﷻ والرسل إنما يعلمون ما جاءهم به الوحي، فما أوحى الله به إليهم يعلمونه، كما في الآية السابقة: ﴿ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾. فالله يوحي إلى الرسل ما شاء كما أوحى إلى نبينا ﷺ أشياء كثيرة من أمر الآخرة، وأمر القيامة، وأمر الجنة والنار، وما يكون في آخر الزمان من الدجال، ومن المسيح، وأمر الكعبة، ويأجوج ومأجوج، وغير ذلك مما يكون آخر الزمان، كل هذا من علم الغيب، أوحى الله به إلى نبينا ﷺ وعلمنا إيَّاه وصار معلومًا للناس، وهكذا ما يعمله الناس من أمور الغيب عند وقوعه في بلادهم أو في غير بلادهم ويكون معلومًا لهم بعد وقوعه وكان لا علم لهم قبل ذلك.

أما ما وقع في كتب بعض أهل العلم من قولهم: "الله ورسوله أعلم" فهذا فيما يتعلق بأمور الشرع وأحكام الشرع، ومرادهم في حياته يعلم هذه الأشياء ﷺ.

فعلم الغيب مما استأثر الله تعالى بعلمه كما دلت على ذلك النصوص السابقة، وكما في قوله سبحانه: ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام: ٥٩]. وقد فسر النبي ﷺ هذه المفاتيح بالأمور الخمسة التي وردت في سورة "لقمان" في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾ [لقمان: ٣٤]، وروى البخاري في صحيحه، عن عائشة < أنها قالت: ((من حدثك أنه يعلم ما في غد فقد كذب، ثم قرأت: ﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ ﴾".

ولكن من المهم في هذه المسألة أن نعلم ما هو الغيب الذي استأثر الله تعالى بعلمه، فإن الغيب معناه ما كان غائبًا؛ وهذا الغائب إما أن يكون غائبًا عن الخلق كلهم -أهل السماء وأهل الأرض، فهذا النوع من الغيب لا يعلمه إلا الله سبحانه وهو الذي يسمى بالغيب المطلق. وإما أن يكون هذا الغائب غائبًا عن بعض الخلق ومعلومًا لخلق آخرين، فهذا إنما يسمى غيبًا بالنسبة للجاهل به، وليس هو غيبًا عن جميع الخلق، فلا يختص الله ﷻ بعلمه.

قال الشيخ ابن عثيمين -رحمه الله- في (شرح العقيدة الواسطية): المراد بالغيب: ما كان غائبًا، والغيب أمر نسبي، لكن الغيب المطلق علمه خاص بالله، انتهى كلامه.

وما يُخبر به الكهان مما سيقع في المستقبل ليس من علم الغيب في شيء، وليس من علم ما في غد، بل هم كذابون في دعواهم؛ لكن قد أخبرنا النبي ﷺ أنهم سرقوا علم ذلك، مما أوحاه الله على ملائكته، فعن عائشة < قالت: ((سَأَلَ أُنَاسٌ النَّبِيَّ عَنْ الْكُهَّانِ، فَقَالَ: إِنَّهُمْ لَيْسُوا بِشَيْءٍ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَإِنَّهُمْ يُحَدِّثُونَ بِالشَّيْءِ يَكُونُ حَقًّا، قَالَ: فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: تِلْكَ الْكَلِمَةُ مِنْ الْحَقِّ يَخْطَفُهَا الْجِنِّيُّ فَيُقَرْقِرُهَا فِي أُذُنِ وَلِيِّهِ كَقَرْقَرَةِ الدَّجَاجَةِ فَيَخْلِطُونَ فِيهِ أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ كَذْبَةٍ)) رواه البخاري.

وقد بين لنا النبي ﷺ كيفية استراق الجن لهذه الكلمة، فقال: ((وَلَكِنْ رَبُّنَا -تَبَارَكَ وَتَعَالَى اسْمُهُ- إِذَا قَضَى أَمْرًا سَبَّحَ حَمَلَةُ الْعَرْشِ، ثُمَّ سَبَّحَ أَهْلُ السَّمَاءِ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، حَتَّى يَبْلُغَ التَّسْبِيحُ أَهْلَ هَذِهِ السَّمَاءِ الدُّنْيَا، ثُمَّ قَالَ الَّذِينَ يَلُونَ حَمَلَةَ الْعَرْشِ لِحَمَلَةِ الْعَرْشِ: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ، فَيُخْبِرُونَهُمْ مَاذَا قَالَ. قَالَ: فَيَسْتَخْبِرُ بَعْضُ أَهْلِ السَّمَوَاتِ بَعْضًا حَتَّى يَبْلُغَ الْخَبَرُ هَذِهِ السَّمَاءَ الدُّنْيَا، فَتَخْطَفُ الْجِنُّ السَّمْعَ، فَيَقْذِفُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ وَيُرْمَوْنَ بِهِ، فَمَا جَاءُوا بِهِ عَلَى وَجْهِهِ فَهُوَ حَقٌّ، وَلَكِنَّهُمْ يَقْرِفُونَ فِيهِ وَيَزِيدُونَ)) رواه مسلم.

فتبين من هذا أن الجن لا يعلمون الغيب، وإنما يسترقون السمع من الكلام الذي تردده الملائكة، والملائكة أنفسهم لم يكن عندهم شيء من علم ذلك، إلا بعد أن أعلمهم الله ﷻ به، وبعد علمهم به لم يعد غيبًا مطلقًا، وأما قبل ذلك فإنهم كغيرهم من الخلق لا يعلمون من الغيب شيئًا، فرجع هذا إلى إخبار الله، وإعلامه لهم، قال تعالى: ﴿ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ [الجن: ٢٦].

قال الشيخ ابن عثيمين -رحمه الله-: إن أشرف الرسل الملكي -وهو جبريل- سأل أشرف الرسل البشري وهو محمد ﷺ قال: ((أخبرني عن الساعة؟ قال: ما

المسئول عنها بأعلم من السائل))، والمعنى: كما أنه لا علم لك بها، فلا علم لي بها أيضًا. انتهى.

ومن صفات الحي القيوم، الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، أنه بكل شيء عليم يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور. أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد، يحصي عليه ثم يبدئ ويعيد: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]. لو أن نملة سوداء، على صفحة ملساء في ليلة ظلماء، لعلم الله حالها وشأنها، لا تخفى عليه خافية، فالسر عنده علانية، ما من ثلاثة إلا هو رابعهم، ولا خمسة إلا هو سادسهم، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا، يعلم سبحانه قطرات المطر، ويعلمُ سبحانه ما في البر والبحر، ويعلم سبحانه دفقات الرياح العاتية، وقطرات الأمطار والأنهار والعيون الجارية، سبحان من لا يخفى عليه خافية، يعلمُ ما كان وما لم يكن، أن لو كان كيف يكون، ويعلم ما هو كائن ﷻ، كل ذلك عِلِمَه ربُّنا.

ومن عقيدة المسلم في ربه أن يعلمَ علم اليقين أن علم الغيب له ﷻ لا يعلم الغيب إلا الله، ولا يعلم الأحداث والأخطار والأخبار وما سيكون في ظلمات الليل وضياء النهار غير الواحد القهار، لذلك لا يجوز لمسلم أن ينسب هذا العلم لغير الله، أو يعتقده في أي شيء سواه، لا يعلم الغيب إلا الله، فلا يعلمه السحرة، ولا المشعوذون، ولا الكهنة، ولا العرافون، يعلمه سبحانه وحده هو المطلع على الأمور، الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، فإذا علم المؤمن ذلك كله اطمأن قلبه بالله، وقويت عقيدته في الله، وفر من الله إلى الله، قال: ((لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك)).

فمن اعتقد في غير الله فقد خَسِرَ وضل ضلالًا مبينًا، من اعتمد على السحرة والمشعوذين ووقف بباب الكهنة والعرافين خذله الله في الدنيا والآخرة، وألبسه الله لباس الخوف، ولباس الضيعة، ولباس الخسارة في الدنيا والآخرة. وقد أشار النبي ﷺ إلى هذه العاقبة الوخيمة فقال: ((من أتى عرافًا فصدقه فيما يقول؛ فقد كفر بما أنزل على محمد)) أي: ضل الضلال البعيد كأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق. ذلك بأن الله لم يكن مغيرًا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم. حتى يغيروا العقيدة في الله ولا يتعلق بما سواه، وإذا تعلقوا بما سواه فعندها يكون الخذلان والخسارة من الله.

إذًا حين إتيان الكهان، والسحرة، والمشعوذين، ومن يدعي علم الغيب من غيرهم، وتصديقهم في جميع ذلك، يعتبر كفرًا بالله ورسوله، لا يشترط أن يقف على باب الساحر أو المشعوذ، بل إن الإنسان ربما يقف هذا الموقف الوخيم بعقيدته، حينما يفتح صفحة من المجلة؛ لكي ينظر إلى برجه وطالعه، فإذا نظرت إلى الطوالع، والبروج، وما يذكرون فيها من الأمور، يقولون إذا كنت من مواليد برج كذا وكذا، فسيكون من أمرك كذا وكذا، فإن صدقت كلمة واحدة فقد كفرت بما أنزل على محمد ﷺ وإن وقفت أمام إنسان لكي يقرأ الكف أو الفنجان، فاعلم أنها الخسارة العظيمة في الدنيا والآخرة، إن وقفت أمام إنسان يقرأ الكف أو الفنجان، فاعلم أنك أمام عدو لله ورسوله، فإن وقع في قلبك شيء مما يقول فإنها الخسارة الأبدية، والعاقبة الوخيمة السرمدية، فلا بد من التوبة حينئذٍ إلى الله ﷻ.

لقد كانت نصوص الكتاب والسنة صريحة واضحة في موقفها ممن يدعي علم الغيب سوى الله، فبينت أن لا أحد في السموات ولا في الأرض يعلم الغيب إلا

الله، كما سبق من قوله ﷻ: ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ [النمل: ٦٥]، ونفى سبحانه علم الغيب عن أقرب الخلق إليه، وأطوعهم له، وهم الملائكة والأنبياء، فقال للملائكة وقد تساءلوا: كيف يستخلف في الأرض من يفسد فيها ويسفك الدماء؟ فقال: ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٣٠]. وتبرأ الأنبياء أنفسهم من ادعاء علم الغيب، فنوح # كان يقول لقومه: ﴿ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ ﴾ [هود: ٣١]. ونبينا ﷺ أمره ربه أن يقول: ﴿ لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ ﴾ [الأنعام: ٥٠]. وحتى الجن الذين يعتقد الكثير فيهم معرفة الغيب، بيَّن سبحانه أنهم لا يملكون هذه القدرة.

وذكر كيف أنهم ظلوا مسخرين في الأعمال الشاقة التي استعملهم لها سليمان حتى بعد وفاته، ولم يعلموا بموته، إلا بعد سقوطه حين أكلت الأرضة عصاه التي يتكئ عليها، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴾ [سبأ: ١٤].

فعلم الغيب هو من اختصاص الله سبحانه، ولا طريق لمعرفته والاطلاع عليه إلا عن طريقه سبحانه، قال تعالى: ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧]. ولترسيخ هذا المعنى في نفوس الناس أبطل الإسلام كل طريق يدعي البشر أنهم يعلمون الغيب من خلاله. فأبطل الطيرة، وهي: محاولة استكشاف الغيب عن طريق تهييج الطير من أعشاشها فإن ذهبت يمينًا ظن المتشائم أن في سفره خيرًا فيمضي فيه، وإن ذهبت يسارًا ظن أن في سفره شرًّا فيرجع عنه فقال ﷺ: ((الطيرة شرك، الطيرة شرك)) رواه أحمد.

وأبطل الإسلام الكهانة، وهي: ادّعاء علم الغيب عن طريق الشياطين، فقال: ((من أتى كاهنًا أو عرّافًا فصدَّقه بما يقول، فقد كفَرَ بما أنزل على محمد)) رواه أحمد. ورَوَى الشيْخان البخاري ومسلم: ((أنَّ ناسًا سألوا النبي ﷺ عن الكاهن أو الكُهّان؛ فقال: ليسوا بشيء. فقالوا: يا رسول الله، إنهم ليُحدِّثوننا أحيانًا بشيء أو بالشيء فيكُون حقًّا. فقال رسول الله: تلك الكلمة من الوَحْي يَخطِفها الجِنّيُّ فيُقِرُّها -أي: يُلقِيها- في أُذُنِ وَلِيِّه، فيَخْلِطُ معها مائة كذبة)).

وأبطل الإسلام التنجيم: وهو الاستدلال بأحوال الكواكب في اجتماعها وافتراقها على أحوال الخلق والأرض من جفاف، وخصب، ومطر، وموت وحياة، فقال: ((من اقتبس علمًا من النجوم، اقتبس شعبةً من السحر، زاد ما زاد)) رواه أبو داود وابن ماجه.

ومن التنجيم الباطل ما يُسمى بعلم الأبراج، والاستدلال به على مستقبل الإنسان وما يحصل له من خير أو شر أو نجاح أو فشل، وقد ولع الناس بهذا اللون من التنجيم وتسامحوا في تعاطيه؛ رغبةً في إشباع تطلعهم لمعرفة المستقبل.

وأبطل الإسلام ما يعرف بالطَّرْقَ، وهو: ادّعاء علم الغيب عن طريق رسم خطوط على الأرض، ويسمى أيضًا ضرب الرمل، وبيَّن أنها من جنس السحر والكهانة، فقال: ((العيافة والطيرة والطرق من الجبت)) رواه أبو داود.

ونص العلماء على حرمة ما يفعله الجهلة من قراءة الكف والفنجان لمعرفة الغيب واستكشاف المستقبل، وبينوا أن ذلك كله من طرق الشيطان لإضلال بني آدم، ومن أبوابِ الخرافة التي يجب على الإنسان أن ينزّه عقله عن النزول إلى دركاتها، وأن يعلم أن الغيب باب مقفول لا يمكن أن يُفتح إلا بإذن الله، كوحي من عنده،

أو رؤيا صادقة، أو كرامة يمن الله بها على عبد من عباده، يكشف له بها حجب الغيب، وكل ذلك من عنده سبحانه لا دخلَ للعبد في حصول شيء منه، وما عداه مما يخترعه البشر فهو باطل وضلال.

وبهذا يظهر بوضوح تام كيف حمى الإسلام العقل وحرره من الخرافات التي سيطرت عليه طويلًا فجعلته أسير تطلعه لغيب لا يعلمه إلا الله.

من الشرك: الاستعاذة بغير الله

الاستعاذة: طلب العياذ، يقال: استعاذ إذا طلب العياذ، والعياذ طلب ما يؤمِّن من الشر، والفرار من شيء مخوِف إلى ما يؤمن منه، أو إلى من يؤمن منه، ويقابلها اللياذ، وهو الفرار إلى طلب الخير أو التوبة والاعتصام، والإقبال لطلب الخير، ومادة استفعل مثل ما هنا استعاذ، وكما سيأتي استغاث استعان ونحو هذه المادة هي موضوعة في الغالب للطلب.

فغالب مجيء السين والتاء للطلب: استسقى إذا طلب السقيا، واستغاث إذا طلب الغوث، واستعاذ إذا طلب العياذ. قلنا في الغالب؛ لأنها تأتي أحيانًا للدلالة على كثرة الوصف في الفعل كما في قوله ﷻ: ﴿وَٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ﴾ [التغابن: ٦]، استغنى ليس معناها طلب الغنى، وإنما جاء بالسين والتاء هنا للدلالة على عظم الاتصاف بالوصف الذي اشتمل عليه الفعل، وهو الغنى.

فهذه المادة: استعاذ، استغاث، استعان، وأشباه ذلك فيها طلب. والطلب من أنواع التوجه والدعاء، وإذا طلب فإن هناك مطلوبًا منه، والمطلوب منه لما كان أرفع درجة من الطالب كان الفعل المتوجه إليه يسمى دعاء، ولهذا في حقيقة

اللغة، وفي دلالة الشرع، الاستعاذة طلب العوذ، أو طلب العياذ، وهو الدعاء المشتمل على ذلك، الاستغاثة: طلب الغوث، دعاء مشتمل على ذلك، وهكذا في كل ما فيه طلب نقول: إنه دعاء. وإذا كان دعاء فإنه عبادة والعبادة لله ﷻ بالإجماع.

فالذي يطلب شيئًا إذا طلبه من مقارن، فيقال: هذا التماس. وإذا طلبه ممن هو دونه يقال: هذا أمر، وإذا طلبه ممن هو أعلى منه فهذا دعاء، والمستعيذ والمستغيث لا شك أنه طالب ممن هو أعلى منه؛ لحاجته إليه؛ فلهذا كل دليل فيه ذكر إفراد الله ﷻ بالدعاء أو بالعبادة دليل على خصوص هذه المسألة، وهي أن الاستعاذة عبادة من العبادات العظيمة، وإذا كانت كذلك فإن إفراد الله بها واجب.

قال ابن القيم في (بدائع الفوائد): اعلم أن لفظ عاذ وما تصرف منها يدل على التحرز والتحصن والنجاة، وحقيقة معناها الهروب من شيء تخافه إلى من يعصمك منه، ولهذا يسمى المستعاذ به معاذًا كما يُسمى ملجأً ووزرًا. وفي الحديث أن ابنة الجون لما أدخلت على النبي ﷺ: ((فوضع يده عليها، قالت: أعوذ بالله منك، فقال لها: قد عذتِ بمعَاذ، الحقي بأهلك)) رواه البخاري، فمعنى أعوذ: ألتجئ وأعتصم وأتحرز، وفي أصله قولان: أحدهما: أنه مأخوذ من الستر، والثاني: أنه مأخوذ من لزوم المجاورة، فأما من قال: إنه من الستر، ، قال: العرب تقول للبيت الذي في أصل الشجرة التي قد استتر بها عوذ -بضم العين وتشديد الواو وفتحها- فكأنه لما عاذ بالشجرة واستتر بأصلها وظلها سموه عوذًا، فكذلك العائذ قد استتر من عدوه بمن استعاذ به منه، واستجن به منه، ومن قال هو لزوم المجاورة قال: العرب تقول للحم إذا لصق بالعظم فلم يتخلص

منه عوذ ؛ لأنه اعتصم به واستمسك به ، فكذلك العائذ قد استمسك بالمستعاذ به واعتصم به ، ولزمه ، والقولان حق والاستعاذة تنتظمهما معًا ، فإن المستعيذ مستتر بمعاذه متمسك به معتصم به قد استمسك قلبه به ، ولزمه كما يلزم الولد أباه ، إذا أشهر عليه عدوه سيفًا وقصده به فهرب منه فعرض له أبوه في طريق هربه ؛ فإنه يلقي نفسه عليه ويستمسك به أعظم استمساك ، فكذلك العائذ قد هرب من عدوه الذي يبغي هلاكه إلى ربه ومالكه ، وفر إليه ، وألقى نفسه بين يديه واعتصم به ، واستجار به ، والتجأ إليه.

وبعد : فمعنى الاستعاذة القائم بقلبه وراء هذه العبارات ، وإنما هي تمثيل وإشارة وتفهيم ، وإلا فما يقوم بالقلب حينئذٍ من الالتجاء والاعتصام ، والانطراح بين يدي الرب ، والافتقار إليه ، والتذلل بين يديه أمر لا تحيط به العبارة.

ثم قال : وأصل هذا الفعل أعوذ بتسكين العين وضم الواو ، ثم أُعل بنقل حركة الواو إلى العين وتسكين الواو فقالوا : أعوذ على أصل هذا الباب ، ثم طردوا إعلاله فقالوا في اسم الفاعل : عائذ وأصله : عاوذ ، فوقعت الواو بعد ألف فاعل فقلبوها همزةً ، كما قالوا : قائم وخائف ، وقالوا في المصدر : عياذًا بالله ، وأصله عواذًا كلواذًا ، فقلبوا الواو ياء لكسرة ما قبلها ولم تحصنها حركتها ؛ لأنها قد ضعفت بإعلالها في الفعل وقالوا : مستعيذ وأصله مستعوذ كمستخرج ، فنقلوا كسرة الواو إلى العين قبلها ثم قلبت الواو قبلها كسرة ؛ فقلبت ياء على أصل الباب ، فإن قلت : فلم دخلت السين والتاء في الأمر من هذا الفعل كقوله ﴿ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ ﴾ [الأعراف: ٢٠٠]، ولم تدخل في الماضي والمضارع ، بل الأكثر أن يقال : أعوذ بالله وعذت بالله ، دون أستعيذ واستعذت.

قلت: السين والتاء دالة على الطلب فقوله أستعيذ بالله أي: أطلب العياذ به، كما إذا قلت: أستخير الله أي: أطلب خيرته، وأستغفره أي: أطلب مغفرته، وأستقيله أي: أطلب إقالته، فدخلت في الفعل؛ إيذانًا لطلب هذا المعنى من المعاذ، فإذا قال المأمور: أعوذ بالله؛ فقد امتثل ما طلب منه؛ لأنه طلب منه الالتجاء والاعتصام، وفرق بين نفس الالتجاء والاعتصام، وبين طلب ذلك.

فلما كان المستعيذ هاربًا ملتجئًا معتصمًا بالله أتى بالفعل الدال على ذلك دون الفعل الدال على طلب ذلك فتأمله، وهذا بخلاف ما إذا قيل: أستغفر الله فقال: أستغفر الله، فإنه طلب منه أن يطلب المغفرةَ من الله، فإذا قال: أستغفر الله كان ممتثلًا؛ لأن المعنى أطلب من الله تعالى أن يغفر لي، وحيث أراد هذا المعنى في الاستعاذة فلا ضير أن يأتي بالسين فيقول: أستعيذ بالله تعالى أي: أطلب منه أن يعيذني، ولكن هذا معنى غير نفس الاعتصام والالتجاء والهرب إليه، فالأول يخبر عن حاله وعياذه بربه، وخبره يتضمن سؤاله وطلبه أن يعيذه. والثاني: طالب سائل من ربه أن يعيذه كأنه يقول: أطلب منك أن تعيذني. فحال الأول أكمل لمجيء امتثال هذا الأمر بلفظ الأمر، ولهذا جاء عن النبي ﷺ في امتثال هذا الأمر ((أعوذ بالله من الشيطان الرجيم))، و((أعوذ بكلمات الله التامات))، و((أعوذ بعزة الله وقدرته)) دون أستعيذ الذي علمه الله إياه أن يقول: أعوذ برب الفلق، أعوذ برب الناس دون أستعيذ، فتأمل هذه الحكمة البديعة.

وقال ابن كثير: هي الالتجاء إلى الله والالتصاق بجنابه من شر كل ذي شر، والعياذ يكون لدفع الشر واللياذ لطلب الخير.

وقال العلامة سليمان بن عبد الله في (تيسير العزيز الحميد) عقب كلام ابن القيم وابن كثير: وهذا معنى كلام غيرهما من العلماء، فتبين بهذا أن الاستعاذة بالله

عباده لله، ولهذا أمر الله بالاستعاذة به في غير آية، وتواترت السنن عن النبي ﷺ بذلك قال الله تعالى: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [فصلت: ٣٦]، وقال: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾ [المؤمنون: ٩٧ - ٩٨]، وقال: ﴿ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [غافر: ٥٦]، وقال: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ [الفلق: ١]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ النَّاسِ ﴾ [الناس: ١ - ٣].

فإذا كان تعالى هو ربنا ومالكنا وإلهنا؛ فلا مفزع لنا في الشدائد سواه، ولا ملجأ لنا منه إلا إليه، ولا معبود لنا غيره؛ فلا ينبغي أن يدعى ولا يخاف ولا يرجى ولا يحب غيره، ولا يذل ولا يخضع لغيره، ولا يتوكل إلا عليه؛ لأن من تخافه وترجوه وتدعوه وتتوكل عليه إما أن يكون مربيك والقيم بأمورك ومتولي شأنك، فهو ربك ولا رب لك سواه، وتكون مملوكه وعبده الحق فهو ملك الناس حقًّا، وكلهم عبيده ومماليكه، أو يكون معبودك وإلهك الذي لا تستغني عنه طرفة عين، بل حاجتك إليه أعظم من حاجتك إلى حياتك وروحك، فهو الإله الحق إله الناس، فمن كان ربهم وملكهم وإلههم فهم جديرون أن لا يستعيذوا بغيره، ولا يستنصروا بسواه ولا يلجئوا إلى غير حماه فهو كافيهم وحسبهم، وناصرهم ووليهم، ومتولي أمورهم جميعًا بربوبيته وملكه وإلهيته لهم، فكيف لا يلتجئ العبد عند النوازل ونزول عدوه به إلى ربه، وملكه، وإلهه.

وهذه طريقة القرآن يحتجّ عليهم بإقرارهم بهذا التوحيد على توحيد الإلهية.

هذا معنى كلام ابن القيم، فإذا تحقق العبد بهذه الصفات الرب والملك والإله، وامتثل أمر الله، واستعاذ به؛ فلا ريب أن هذه عبادة من أجل العبادات، بل هو من حقائق الإلهية، فإن استعاذ بغيره فهو عابد لذلك الغير، كما أن من صلى لله وصلى لغيره يكون عابدًا لغير الله، كذلك في الاستعاذة ولا فرق إلا أن المخلوق يطلب منه ما يقدر عليه ويستعاذ به فيه بخلاف ما لا يقدر عليه إلا الله، فلا يستعاذ فيه إلا بالله كالدعاء فإن الاستعاذة من أنواعه.

قال الله ﷻ: ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ [الجن: ٦]، ووجه الاستدلال بالآية أن الله حكى عن مؤمني الجن أنهم لما تبين لهم دين الرسول ﷺ وآمنوا به؛ ذكروا أشياء من الشرك كانوا يعتقدونها في الجاهلية من جملتها الاستعاذة بغير الله.

قال في (تيسير العزيز الحميد): وقد أجمع العلماء على أنه لا تجوز الاستعاذة بغير الله، ولهذا نهوا عن الرقى التي لا يُعرف معناها خشية أن يكون فيها شيء من ذلك.

قال ملا علي القاري الحنفي: ولا تجوز الاستعاذة بالجن، فقد ذمَّ الله الكافرين على ذلك فقال: ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ [الجن: ٦] إلى أن قال: وقال الله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ ﴾ [الأنعام: ١٢٨]، فاستمتاع الإنسي بالجني في قضاء حوائجه وامتثال أوامره، أو إخباره بشيء من المغيبات، واستمتاع الجني بالإنسي تعظيمه إياه، واستعاذته به، واستغاثته، وخضوعه له وفيه؛ أن كون الشيء يحصل به منفعة دنيوية من كفّ شر أو جلب نفع لا يدل على أنه ليس من الشرك. انتهى كلامه.

من الشرك: الاستغاثة بغير الله

قال في (تيسير العزيز الحميد): قال شيخ الإسلام الاستغاثة هي طلب الغوث وهو إزالة الشدة كالاستنصار طلب النصر، والاستعانة طلب العون، وقال غيره: الفرق بين الاستغاثة والدعاء أن الاستغاثة لا تكون إلا من المكروب كما قال تعالى: ﴿ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ ﴾ [القصص: ١٥]، وقال: ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ ﴾ [الأنفال: ٩] والدعاء أعمّ من الاستغاثة؛ لأنه يكون من المكروب وغيره، فعلى هذا عطف الدعاء على الاستغاثة من عطف العام على الخاص.

وقال أبو السعادات: الإغاثة الإعانة فعلى هذا تكون الاستغاثة هي الاستعانة، ولا ريب أن من استغاثك فأغثته فقد أعنته، إلا أن لفظ الاستغاثة مخصوص بطلب العون في حالة الشدة بخلاف الاستعانة.

فالاستغاثة كما ذكرنا في الاستعاذة طلب، والطلب نوع من أنواع الدعاء، والاستغاثة هي طلب الغوث، والغوث إنما يصدر ممن وقع في شدة وكرب، يخشى معه المضرَّة الشديدة، أو الهلاك فيقال: أغاثه إذا فزع إليه، وأعانه على ما به وخلَّصه منه، كما قال جل وعلا في قصة موسى: ﴿ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ ﴾ [القصص: ١٥]، يعني: من كان من شيعة موسى طلب الغوث من موسى على من كان عدوًّا لهما جميعًا؛ فأغاثه موسى # وطلب الغوث بهذا الاعتبار لا يصلح إلا من الله فيما لا يقدر عليه إلا الله ﷻ وأما الاستغاثة فيما يقدر عليه المخلوق فيمكن أن تطلب منه.

وهذه بعض الآيات الدالة صراحةً على أنه من الشرك الاستغاثة بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله؛ فإنه لا يكشف الضر إلاّ الله، وإنه سبحانه هو وحده المتفرد بإجابة المضطرين، كما قال سبحانه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [يونس: ٢٢]، وقال ﷻ: ﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الأنعام: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النمل: ٦٢].

فجعل الله تعالى في سياق هذه الآية إجابة المضطر إذا دعاه، وكشفَ السوء عنه من حقّه الخالص، الذي لا يشاركه فيه أحد، كخلقه السموات والأرض، وإنزاله الماء من السماء، وإنباته به الشجر وجعله الأرض قرارًا، وجعله خلالها أنهارًا، وجعله لها رواسي، وجعله بين البحرين حاجزًا، إلى آخر ما ذكر في تلك الآيات من غرائب صنعه وعجائبه التي لا يشاركه فيها أحد ﷻ عن ذلك علوًّا كبيرًا.

فبان بهذا كله أن الاستغاثة بغير الله شرك. قال ابن خزيمة في كتاب (التوحيد): أفليس العلم محيطًا يا ذوي الحجا أنه غير جائز أن يأمر النبي ﷺ بالتعوذ بخلق الله من شر خلقه؟ هل سمعتم عالمًا يجيز أن يقول الداعي: أعوذ بالكعبة من شر خلق الله. هذا لا يقوله ولا يجيز القول به مسلم يعرف دين الله. وهي والاستعانة والاستعاذة والدعاء من باب واحد، ومعانيها متداخلة.

(وسائل الشرك الأكبر المنافية لكمال التوحيد)

عناصر الدرس

تمهيد في بيان التحذير من الطرق المؤدية إلى الشرك

إن سدَّ الذرائع إلى الشرك، وتحريم الوسائل إليه، وقطع أسبابه من الأصول التي قررتها الشريعة، واعتبرتها في الجملة، والأدلة على ذلك كثيرة متنوعة إجمالًا وتفصيلًا، وهي مبسوطة في كتب الأصول كـ(البحر المحيط)، و(الموافقات)، وغيرهما.

والذي يخصنا في هذا الباب ما يتعلق بالشرك الذي هو أعظم الذنوب وأخطرها. ومن الدالة على ذلك حديث ثابت بن الضحاك > قال: ((نذر رجل أن ينحر إبلًا ببوانة، فسأل النبي ﷺ فقال: هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يُعبد؟ قالوا: لا. قال: فهل كان فيها عيد من أعيادهم؟ قالوا: لا. فقال رسول الله ﷺ: أوف بنذرك؛ فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله، ولا فيما لا يملك ابن آدم)). أخرجه أبو داود. قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن في (فتح المجيد): وفيه سد الذريعة، وترك مشابهة المشركين، والمنع مما هو وسيلة إلى ذلك.

وعن عائشة < قالت: "قال رسول الله ﷺ في مرضه الذي لم يقم منه: ((لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)). قالت: فلولا ذاك أبرز قبره غير أنه خشي أن يتخذ مسجدًا". رواه البخاري ومسلم. قال شيخ الإسلام ابن تيمية في التوسل والوسيلة من (الفتاوَى): واتخاذ المكان مسجدًا هو أن يتخذ للصلوات الخمس، وغيرها كما تُبنى المساجد لذلك، والمكان المتخذ مسجدًا إنما يقصد فيه عبادة الله ودعاؤه لا دعاء المخلوقين، فحرم ﷺ أن تتخذ قبورهم مساجد، يقصد الصلوات فيها كما تقصد المساجد، وإن كان القاصد لذلك إنما

يقصد عبادة الله وحده ؛ لأن ذلك ذريعة إلى أن يقصدوا المسجد لأجل صاحب القبر ودعائه والدعاء به، والدعاء عنده، فنهى رسول الله عن اتخاذ هذا المكان لعبادة الله وحده ؛ لئلا يتخذ ذريعة إلى الشرك بالله.

والفعل إذا كان يفضي إلى مفسدة وليس فيه مصلحة راجحة ينهى عنه، كما نهي عن الصلاة في الأوقات الثلاثة لما في ذلك من المفسدة الراجحة، وهو التشبّه بالمشركين الذي يفضي إلى الشرك، وليس في قصد الصلاة في تلك الأوقات مصلحة راجحة لإمكان التطوع في غير ذلك من الأوقات. ولهذا تنازع العلماء في ذوات الأسباب فسوّغها كثير منهم في هذه الأوقات وهو أظهر قولي العلماء ؛ لأن النهي إذا كان لسدّ الذريعة أبيح للمصلحة الراجحة، بخلاف ما لا سبب له، فإنه يمكن فعله في غير هذا الوقت فلا تفوت بالنهي عنه مصلحة راجحة، وفيه مفسدة توجب النهي عنه. فإذا كان نهيه عن الصلاة في هذه الأوقات لسد ذريعة الشرك لئلا يفضي ذلك إلى السجود للشمس ودعائها وسؤالها -كما يفعله أهل دعوة الشمس والقمر والكواكب الذين يدعونها ويسألونها- كان معلومًا أن دعوة الشمس والسجود لها هو محرم في نفسه أعظم تحريمًا من الصلاة التي نهي عنها ؛ لئلا يفضي إلى دعاء الكواكب. كذلك لما نُهي عن اتخاذ قبور الأنبياء مساجد، فنهَى عن قصدها للصلاة عندها لئلا يفضي ذلك إلى دعائهم والسجود لهم ؛ كان دعاؤهم والسجود لهم أعظم تحريمًا من اتخاذ قبورهم مساجد، ومن هذا الباب الغلو في الصالحين.

التوسـل

التوسل الشرعي مثله مثل سائر العبادات يتوقف التعبد فيه على ما دلَّ عليه الشرع، المتمثل في الكتاب والسنة. فالتوسل المشروع ما وافق الكتاب والسنة، وما خالفهما فهو باطل مردود.

أولًا: معنى التوسل لغةً وشرعًا:

قال الجوهري في (الصحاح): الوسيلة: ما يتقرب به إلى الغير، والجمع: الوسيل والوسائل، والتوسيل والتوسل واحد، وسل فلان إلى ربه وسيلة، وتوسل إليه بوسيلة، أي: تقرب إليه بعمل.

وقال الراغب في (المفردات): الوسيلة التوصل إلى الشيء برغبة، وهي أخص من الوصيلة، لتضمنها لمعنى الرغبة. قال تعالى: ﴿ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ ﴾ [المائدة: ٣٥]، وحقيقة الوسيلة إلى الله تعالى مراعاة سبيله بالعلم والعبادة وتحري مكارم الشريعة، وهي كالقربة. والواسل الراغب إلى الله تعالى.

وقال ابن الأثير في (النهاية): في حديث الأذان: ((اللهم آت محمدًا الوسيلة))، هي في الأصل: ما يتوصل به إلى الشيء، ويتقرب به، وجمعها وسائل، يقال: وسل إليه وسيلة، وتوسّل، والمراد به في الحديث القرب من الله تعالى.

وإذا تأملت هذه المعاني التي أفادها أئمة أهل اللغة وجدتها أساس الاستعمال الشرعي لها المنصوص في الكتاب والسنة.

قال المبارك الميلي في رسالة (الشرك ومظاهره): واستبان من بيان اللغويين للوسيلة أنها تتضمن ثلاثة أشياء: القربة، والرغبة، والتوصل، فهي على هذا قربة موصلة لأمر مرغوب فيه، وعلى هذا يبني المعنى الشرعي في مستعمل الكتاب والسنة. قال الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ ﴾ [المائدة: ٣٥]. وما ورد من أقوال المفسرين في بيان مدلول هذه الآية يتوارد على معنى القربة والطاعة، كما في تفسير ابن جرير، والبغوي.

ولهذا قال ابن كثير في التفسير بعد ذكر من قال: إن الوسيلة هي القربة، ومن قال: هي: طاعته والعمل بما يرضيه، قال: وهذا الذي قاله هؤلاء الأئمة لا خلاف فيه من المفسرين.

والآية الثانية التي ورد فيها لفظ الوسيلة قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ [الإسراء٥٦، ٥٧]. قال البغوي في تفسيره: يبتغون أي: يطلبون إلى ربهم الوسيلة أي: القربة، وقيل الوسيلة: الدرجة العليا. انتهى.

وقال المبارك الميلي في (الرسالة): وليس بين اللفظين تضارب؛ لأن الدرجة العليا، ثمرة الوسيلة والقربة. وفي سبب نزول هذه الآية روى البخاري في صحيحه عن عبد الله بن مسعود قال: ((كان ناس من الإنس يعبدون ناسًا من الجن، فأسلم الجن، وتمسك هؤلاء بدينهم)). قال الحافظ في (الفتح): أي: استمر الإنس الذين كانوا يعبدون الجن على عبادة الجن، والجن لا يرضون بذلك لكونهم أسلموا، وهم الذين صاروا يبتغون إلى ربهم الوسيلة...وهذا هو المعتمد في تفسير هذه الآية. وأما ما يتعلق بحديث دعاء الأذان فقد تقدم في كلام ابن الأثير في (النهاية).

قال المبارك الميلي في (الرسالة): وإذا تأملت معنى الوسيلة في الآيتين والحديث، وجدته متقاربًا متلازمًا، أصله القربة والطاعة التي ينشأ عنها القرب من الله في دار كرامته. ثم قال: وإذا وإذا استعنا بالمعنى اللغوي لتحديد المعنى الشرعي، كان معناها في الشرع قربة مشروعة توصل إلى مرغوب فيه. والتوسل هو التقرب إلى الله بتلك القربة، وتوسل الداعي هو طلبه المبني على تلك القربة، وليس في

الشرع مطلوب ومدعو إلا الله، وليس فيه من قربة إلا ما شرعه في الكتاب والسنة. انتهى.

قال ابن أبي زيد في رسالته: ولا يكمل قول الإيمان إلا بالعمل، ولا قول وعمل إلا بنية، ولا قول ولا عمل ونية إلا بموافقة السنة.

ثانيًا: أنواع التوسل المشروع:

وبعد استقراء نصوص الكتاب والسنة ثبت أن التوسل المشروع ثلاثة أنواع فقط، وهي:

النوع الأول: التوسل إلى الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العليا: قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وقال سبحانه عن نبيه سليمان # : ﴿ وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [النمل: ١٩]. وقال النبي ﷺ: ((من كثر همه فليقل: اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك ناصيتي بيدك ماضٍ في حكمك، عدل في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو أنزلته في كتابك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبي، وجلاء حزني، وذهاب همي، إلا أذهب الله همه وحزنه، وأبدله مكانه فرحًا)). رواه أحمد، وصحح إسناده الألباني في (الصحيحة).

النوع الثاني: توسل العبد إلى الله تعالى بعمله الصالح: قال الله تعالى عن أولي الألباب: ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴾ [آل عمران: ١٩٣، ١٩٤]،

وقـــال ســـبحانه: ﴿ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ [آل عمران: ٥٣]. ومن هذا النوع حديث الثلاثة نفر الذين آواهم المبيت إلى غار فدخلوه، فانحدرت صخرة من الجبل، فسدَّت عليهم الغار، فقالوا: ((إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم))، فدعا الأول بإحسانه لوالديه، ودعا الثاني بعفته عن الوقوع في الفاحشة بعد التمكن منها، ودعا الثالث بحفظه للأمانة حتى أداها لصاحبها، وفي كل مرة تنفرج الصخرة قليلًا حتى أتمَّ الله انفراجها عند دعاء الأخير، وكانوا كلُّهم يقولون عند دعائهم: ((اللهم إن كنتُ فعلتُ ذلك ابتغاء وجهك فأفرج عنا ما نحن فيه)). رواه البخاري ومسلم.

النوع الثالث: التوسل إلى الله تعالى بدعاء الرجل الصالح: وهذا مشهور متواتر في السنة، وقد كان الصحابة } يطلبون من النبي ﷺ الدعاء لهم فكان ﷺ يجيبهم لذلك، وكذلك كان يفعل صحابته من بعده، كاستسقاء عمر بالعباس عم النبي ﷺ بعد وفاة النبي ﷺ.

ثالثًا: بطلان التوسل بما عدا الأنواع السابقة:

والتوسل بالجاه وما في معناه لم يرد النص بمشروعيته، وهو ممنوع، وهو إما ذريعة إلى الشرك، أو شرك صريح على حسب صورته، ومن الثاني كأن يعتقد المتوسل أن للمتوسل به تأثيرًا بذاته، فيجعله فاعلًا مع الله، أو أن له حقًّا على الله في جلب النفع أو دفع الضر فيجعل إرادة الله متأثرة بإرادة غيره.

ومما يدل على المنع من هذا النوع من التوسل أمور:

الأول: أنه عبادة والعبادة لا تكون إلا بدليل من الكتاب والسنة.

الثاني: أن عدول عمر، وكذا معاوية > عن التوسل بالنبي ﷺ إلى التوسل بدعاء العباس والأسود بن يزيد، والصحابة متوافرون لأكبر دليل على عدم مشروعية التوسل بالنبي حال غيابه، فضلًا عن غيره؛ إذ لو كان مشروعًا ما عدلوا عنه إلى غيره، وهو أحب الناس إليهم.

الثالث: أنه لم ينقل عن أحد من السلف الصالح التوسل بالذات والجاه، وما روي عنهم في ذلك فهو إما ضعيف أو موضوع، فلو كان ذلك مشروعًا ما تركوه.

الرابع: أنه لا تناسب بين إجابة الداعي وذات غيره؛ لأن الأسباب إما شرعية وهذه يشترط أن تكون ثابتة في الشرع، وإما كونية ويشترط في هذا أن تكون ثابتة في الشرع، وأن يكون ثبت تحقيقها المطلوب، أو غلب ذلك على الظن.

رابعًا: ذكر الشبهات التي استدل بها المبيحون للتوسل الممنوع والرد عليهم:

للمخالفين في باب التوسل شبهات يروجون بها لرأيهم، ويلبسون بها على الناس، وسنورد في هذا المقام أهم الشبهات التي استندوا إليها مع الرد عليهم فيها، وهما شبهتان:

الشبهة الأولى: احتجوا على جواز التوسل بجاه الأشخاص وحرمتهم بما روى البخاري في صحيحه من حديث أنس > أن عمر بن الخطاب كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب > وقال: "اللهم كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا". هذا زعمهم.

والجواب من وجوه:

الوجه الأول: أن الصحابة لما استسقوا بالنبي في حياته إنما استسقوا بدعائه لا بذاته، كما جاء في حديث عائشة < حيث ذكرت صفة استسقاء الصحابة

بالنبي ﷺ فقالت: ((شكا الناس إلى رسول الله قحوط المطر، فأمر بمنبر، فوضع له في المصلى، ووعد الناس يومًا يخرجون فيه، قالت عائشة: فخرج رسول الله حين بَدَا حاجب الشمس فقعد على المنبر فكبَّر ﷺ وحمد الله ﷻ ثم قال: إنكم شكوتم جدب دياركم، واستئخارَ المطر عن إبان زمانه عنكم، وقد أمركم الله ﷻ أن تدعوه، ووعدكم أن يستجيب لكم. ثم قال: الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، ملك يوم الدين، لا إله إلا الله يفعل ما يريد، اللهم أنت الله لا إله إلا أنت الغني ونحن الفقراء أنزل علينا الغيث، واجعل ما أنزلت لنا قوة وبلاغًا إلى حين، ثم رفع يديه فلم يزل في الرفع حتى بدا بياض إبطيه، ثم حول إلى الناس ظهره وقلب أو حوَّل رداءه وهو رافع يديه. ثم أقبل على الناس، ونزل فصلى ركعتين، فأنشأ الله سحابة فرعَّدت وبرقت، ثم أمطرت بإذن الله، فلم يأتِ مسجده حتى سالت السيول، فلما رأى سرعتهم إلى المكان، ضَحِكَ ﷺ حتى بدت نواجذُه، فقال: أَشهد أن الله على كل شيء قدير، وأني عبد الله ورسوله)). رواه أبو داود وغيره، وقال: هذا حديث غريب إسناده جيد.

وعن أنس بن مالك يذكر: ((أن رجلًا دخل يوم الجمعة من باب كان وجاه المنبر، ورسول الله ﷺ قائم يخطب، فاستقبل رسول الله قائمًا فقال: يا رسول الله، هلكت المواشي وانقطعت السبل فادع الله يغيثنا قال: فرفع رسول الله يديه فقال: اللهم اسقنا اللهم، اسقنا اللهم، اللهم اسقنا، قال أنس: لا والله ما نرى في السماء من سحاب ولا قزعة ولا شيئًا وما بيننا وبين سلع من بيت ولا دار، قال: فطلعت من ورائه سحابة مثل الترس، فلما توسطت السماء انتشرت ثم أمطرت، قال: والله ما رأينا الشمس ستًّا ثم دخل رجل من ذلك الباب في الجمعة المقبلة، ورسول الله قائم يخطب فاستقبله قائمًا فقال: يا رسول الله، هلكت الأموال وانقطعت السبل فادع الله يمسكها قال: فرفع رسول الله يديه ثم قال: اللهم

حوالينا ولا علينا، اللهم على الآكام والجبال والآجام والظراب والأودية ومنابت الشجر قال: فانقطعت وخرجنا نمشي في الشمس)). رواه البخاري ومسلم.

فعلم من الحديثين أن سنة توسل الصحابة بالنبي في الاستسقاء هي طلبهم منه أن يدعو لهم اللهَ أن يسقيهم الغيث، فأجابهم ﷺ لذلك، ودعا الله لهم، فاستجاب اللهُ دعاءَ نبيه؛ منة فضلًا منه وكرمًا، وهذه كانت حال الصحابة في عامة شئونهم وحالهم، يأتون النبي ﷺ فيطلبون منه الدعاء فيما ينتابهم، ولم يُعلم من أحد منهم قط أنه خالف هذه السنة، وتوسل بجاه النبي ﷺ في حياته، ولا بعد وفاته.

الوجه الثاني: أن عدول عمر بعد وفاة النبي ﷺ عن الاستسقاء به إلى الاستسقاء بعمه العباس -رضي الله عن الصحابة أجمعين- دليل صريح على أن استسقاءهم إنما كان بدعاء من استسقوا به، لا بجاهه وذاته؛ إذ لو كان قصده ذات العباس وجاهه؛ لكانت ذات النبي ﷺ وجاهه أفضل وأعظم وأقرب إلى الله من ذات العباس، ولما كان للصحابة العدول عن النبي ﷺ إلى سواه كائنًا من كان، لمقامه في نفوسهم، ومكانته عندهم، فعلم بذلك يقينًا أن الاستسقاء كان بالدعاء لا بالجاه.

الشبهة الثانية: احتجوا على جواز التوسل بجاه الأشخاص وحرمتهم بحديث الضرير، كما أخرجه الإمام أحمد وغيره بسند صحيح عن عثمان بن حنيف: ((أنّ رجلًا ضرير البصر أتى النبي ﷺ فقال: ادع الله أن يعافيني. قال: إن شئت دعوت الله، وإن شئت أخرت ذلك فهو خير، فقال: ادعه فأمره أن يتوضأ، فيحسن وضوءه فيصلي ركعتين، ويدعو بهذا الدعاء: اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة، يا محمد إني توجهت بك إلى ربي في حاجتي

هـذه، فتقضـي لـي اللـهم شـفعه في)). رواه أحمـد، والترمـذي، وابـن ماجـه، والحاكم، وصحح إسناده، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح غريب.

ولا حجة لهم في هذا الحديث بحال، بـل إذا أمعنا النظر تـبين لنـا أن الأعمـى لم يكن يقصد التوسل بذات النبي ﷺ بل بدعائه المستجاب، كمـا سـنبينه بـالوجوه الآتية:

الوجه الأول: قول الأعمى لرسول الله ﷺ: "ادع الله أن يعافيني" هو بين واضح أن الأعمى ما جاء إلا من أجل أن يدعو له رسول الله ﷺ بالشفاء من ضره، فلـو كان مقصود الأعمى التوسل بجاه النبي ﷺ أو ظن علـى الأقـل أنـه مشـروع كمـا يزعمه هؤلاء المخالفون، لما تكلف عنـاء المجـيء إلى رسـول الله ﷺ وهـو أعمـى، والحضور بين يديه.

الوجه الثاني: جواب الرسـول ﷺ لـه: ((إن شـئت دعـوت، وإن شـئت صـبرت وهو خير)). وهو دليل آخر أيضًا على أن الأعمـى مـا جـاء إلا مـن أجـل الـدعاء، وأمر التوسل بالجاه لم يكن ليخطر بباله هـو ولا أحـد مـن الصـحابة، كيـف وهـم أهل التوحيد، ولهم غاية الحرص على قطع كـل سـبيل إلى الشـرك، ولهـذا خيَّـره رسول الله ﷺ بـين الـدعاء والصـبر، وتخييره ذلـك يتضـمن وعـدًا لـه بالـدعاء إذا اختاره.

الوجه الثالث: إصرار الأعمى على طلب الدعاء منه ﷺ بقوله: ((فادعه)). وفي إصراره هذا على الدعاء لدليل قويّ على أن مجيئه لم يكن إلاّ مـن أجـل الـدعاء، ومن هذا الإصرار يفهم أن رسول الله ﷺ دعا له، وأنجز له وعده بذلك. على أن رسول الله ﷺ أحب أن يكون للأعمى مشاركة في الدعاء، وأرشده إلى مـا يـدعو به، فعلمه كلمات خاصة يقولها عند دعائه، وعملًا صالحًا يقدمه بـين يـدي دعـاء

رسول الله ﷺ رجاء استجابة الله لدعائه، لاجتماع الدعائين؛ دعاءِ النبي، ودعاء الأعمى.

الوجه الرابع: قول الأعمى في آخر دعائه الذي علمه إياه رسول الله ﷺ: ((اللهم شفعه في))، زاد الترمذي والحاكم في روايتهما: ((وشفعني فيه)). وهذا يقطع كل تلبيس في معنى الحديث حيث كما قال الألباني في التوسل: يستحيل حمله على التوسل بذاته ﷺ أو جاهه، أو حقه؛ إذ إن المعنى: اللهم اقبل شفاعته فيَّ، أي: اقبل دعاءَه فيَّ أن ترد علي بصري، والشفاعة هي باب من الدعاء، وهو المراد بالشفاعة الثابتة له ﷺ ولغيره من الأنبياء والصالحين يوم القيامة -كما تقدم- وهذا يبيّن أن الشفاعة أخص من الدعاء؛ فهي لا تكون إلاّ إذا كان هناك اثنان يطلبان أمرًا، فيكون أحدهما شفيعًا للآخر، بخلاف الطالب الواحد الذي لم يشفع غيره.

قال في (لسان العرب): الشفاعة كلام الشفيع للملك في حاجة يسألها لغيره، والشافع الطالب لغيره، يشفع به إلى المطلوب، يقال: شفعت بفلان إلى فلان فشفعني فيه. فثبت بهذا الوجه أيضًا أن توسل الأعمى إنما كان بدعائه ﷺ لا بذاته. انتهى كلام الألباني.

يؤكد هذا التقرير الزيادة الأخرى الصحيحة في رواية الترمذي والحاكم وغيرهما، وهي إرشاد النبي ﷺ للأعمى أن يقول في دعائه: ((وشفعني فيه))، أي: اقبل شفاعتي، أي: دعائي في أن تقبل شفاعته ﷺ أي: دعاءه في أن ترد عليّ بصري، هذا الذي لا يمكن أن يفهم من هذه العبارة سواه، فلا يعقل أن يكون الأعمى محلًا للتوسل بجاهه عند رسول الله ﷺ فعلم بذلك أن مدار الأمر كله في هذا الحديث على الدعاء، لا التوسل بالجاه والذات.

قال حافظ بن أحمد حكمي في (معارج القبول): وأما حديث الأعمى الذي يحتج به المجوزون للتوسل بالمقبور فلا حجةَ لهم فيه بحمد الله لو فهموا معناه، ووضعوه موضعه، ولكنهم أخطئوا في تأويله، ولم يُوفقوا لفهم مدلوله، فإن هذا الحديث بجميع الفاظه هو بمعزل عن مدَّعاهم. فسرد بعض ألفاظ الحديث ثم قال: والمقصود أن هذا الحديث إن جزمنا بصحته، فليس فيه لهم حجة، ولا دليل على ما انتحلوه بأفكارهم الخاطئة؛ فإن هذا الأعمى إنما سأل من النبي ﷺ الدعاءَ له بكشف بصره، وهو حيّ حاضر قادر على ما سأله منه وهو الدعاء، وهو يؤمن على ذلك ويقول: ((اللهم شفّعه فيّ))، فسأل من النبي ﷺ الدعاءَ، وسأل قبولَ دعائه من الله ﷻ لعلمهم التام بالإيمان بالله ﷻ وأنه لا يشفع أحد عنده إلا بإذنه، وبهذا أمره النبي ﷺ أن يدعو الله تعالى، فاجتمع الدعاء من الجهتين.

وهكذا كان الصحابة } كثيرًا ما كانوا يسألون من النبي ﷺ أن يدعو لهم بالنصر، وأن يستسقي لهم إذا أجدبوا، وبتكثير الطعام، كما سأل منه عمر > في غزوة تبوك، وقالت له أم أنس: "خويدُمك أنس ادع الله تعالى له"، وأمثال ذلك في حياته الدنيا مما لا يحصَى.

(تابع وسائل الشرك الأكبر المنافية لكمال التوحيد)

عناصر الدرس

اتخــــاذ القبـــــور مســـــاجد

من الوسائل المفضية إلى الشرك اتخاذ القبور مساجد، وقد حذَّر النبي ﷺ أمته من كل وسيلة تفضي إلى الشرك، وقطع كل ذريعة تؤدي إليه، ولهذا بالغ في النهي عن اتخاذ القبور مساجد، وتنوَّعت عباراته في التحذير من ذلك، إيذانًا منه ﷺ بخطورته على الدين، كيف وهي التي أوقعت كثيرًا من الأمم قديمًا وحديثًا إما في الشرك الأكبر، أو فيما دونه من الشرك، ويتمّ تفصيل ذلك من خلال النقاط الآتية:

أولًا: ذكر بعض النصوص الدالة على النهي عن اتخاذ القبور مساجد:

الأول: عن عائشة < قالت: "قال رسول الله ﷺ في مرضه الذي لم يقم منه: ((لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)). قالت: فلولا ذاك أُبرز قبره غير أنه خُشي أن يتخذ مسجدًا". رواه البخاري ومسلم.

ومثل قول عائشة هذا ما روي عن أبيها { فأخرج ابن زنجويه عن عمر مولى غفرة قال: ((لما ائتمروا في دفن رسول الله ﷺ قال قائل: ندفنه حيث كان يصلي في مقامه! وقال أبو بكر: معاذ الله أن نجعله وثنًا يُعبد، وقال الآخرون: ندفنه في البقيع حيث دُفن إخوانه من المهاجرين، قال أبو بكر: إنا نكره أن يخرج قبر رسول الله ﷺ إلى البقيع، فيعوذ به من الناس من لله عليه حق، وحق الله فوق حق رسوله ﷺ فإن أخرجناه -الأصل: أخرناه- ضيعنا حق الله، وإن أخفرناه أخفرنا قبر رسول الله ﷺ قالوا: فما ترى أنت يا أبا بكر؟ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: ما قبض الله نبيًّا قط إلا دُفن حيث قبض روحه، قالوا: فأنت

والله رضي مقنع، ثم خطوا حول الفراش خطًّا، ثم احتمله علي والعباس والفضل وأهله، ووقع القوم في الحفر يحفرون حيث كان الفراش)).

الثاني: عن أبي هريرة > قال: قال رسول الله ﷺ: ((قاتل الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)). رواه البخاري ومسلم.

الثالث والرابع: عن عائشة وابن عباس { : ((أن رسول الله ﷺ لما حضرته الوفاة جعل يلقي على وجهه طرف خميصة له، فإذا اغتمّ كشفها عن وجهه وهو يقول: لعنة الله على اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)). تقول عائشة: "يحذر مثل الذي صنعوا". رواه البخاري ومسلم. قال الحافظ ابن حجر: وكأنه علم أنه مرتحل من ذلك المرض، فخاف أن يعظم قبره كما من مضى، فلعن اليهود والنصارى إشارة إلى ذم من يفعل فعلهم. قلت: يعني من هذه الأمة، وفي الحديث الآتي التصريح بنهيهم عن ذلك.

الخامس: عن عائشة > قالت: ((لما كان مرض النبي ﷺ تذاكر بعض نسائه كنيسة بأرض الحبشة يقال لها: مارية -وقد كانت أم سلمة وأم حبيبة قد أتتا أرض الحبشة- فذكرن من حسنها وتصاويرها قالت: فرفع النبي ﷺ رأسه فقال: أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدًا، ثم صوروا تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة)). رواه البخاري ومسلم.

قال الحافظ ابن رجب في (فتح الباري): "هذا الحديث يدل على تحريم بناء المساجد على قبور الصالحين، وتصوير صورهم فيها كما يفعله النصارى، ولا ريب أن كل واحد منهما محرم على انفراده، فتصوير صور الآدميين يحرم، وبناء القبور على المساجد بانفراده يحرم، كما دلت عليه نصوص أخر، يأتي ذكر

بعضها، قال: والتصاوير التي في الكنيسة التي ذكرتها أم حبيبة وأم سلمة كانت على الحيطان ونحوها، ولم يكن لها ظل، فتصوير الصور على مثال صور الأنبياء والصالحين للتبرك بها، والاستشفاع بها يحرم في دين الإسلام، وهو من جنس عبادة الأوثان، وهو الذي أخبر النبي ﷺ أن أهله شرار الخلق عند الله يوم القيامة، وتصوير الصور للتأسي برؤيتها أو للتنزه بذلك، والتلهي محرم، وهو من الكبائر وفاعله من أشد الناس عذابًا يوم القيامة، فإنه ظالم ممثل بأفعال الله التي لا يقدر على فعلها غيره، وأنه تعالى ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله سبحانه وتعالى.

قال الألباني: قلت: ولا فرق في التحريم بين التصوير اليدوي والتصوير الآلي والفوتوغرافي، بل التفريق بينهما جمود وظاهرية عصرية، كما بينته في كتابي (آداب الزفاف).

السادس: عن جندب بن عبد الله البجلي أنه سمع النبي ﷺ قبل أن يموت بخمس وهو يقول: ((قد كان لي فيكم إخوة وأصدقاء، وإني أبرأ إلى الله أن يكون لي فيكم خليل، وإن الله عز وجل قد اتخذني خليلًا كما اتخذ إبراهيم خليلًا، ولو كنت متخذًا من أمتي خليلًا، لاتخذت أبا بكر خليلًا، ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك)). رواه مسلم.

السابع: عن الحارث النجراني قال: سمعت النبي ﷺ قبل أن يموت بخمس وهو يقول: ((ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد إني أنهاكم عن ذلك)). رواه ابن أبي شيبة.

الثامن: عن أسامة بن زيد أن رسول الله ﷺ قال في مرضه الذي مات فيه: ((أدخلوا عليّ أصحابي. فدخلوا عليه وهو متقنع ببردة معافريّ، فكَشف القناع، فقال: لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)). رواه الطيالسي وأحمد والطبراني.

التاسع: عن أبي عبيدة بن الجراح قال: آخر ما تكلم به النبي: ((أخرجوا يهود أهل الحجاز وأهل نجران من جزيرة العرب، واعلموا أن شرار الناس الذي اتخذوا -وفي رواية: يتخذون- قبور أنبيائهم مساجد)). أحمد والطحاوي وأبو يعلى وابن عساكر.

العاشرً: عن زيد بن ثابت أن رسول الله ﷺ قال: ((لعن الله -وفي رواية: قاتل الله- اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)). رواه أحمد.

الحادي عشر: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: ((اللهم لا تجعل قبري وثنًا، لعن الله قومًا اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)). رواه أحمد.

الثاني عشر: عن عبد الله بن مسعود قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((إن من شرار الناس من تدركه الساعة وهم أحياء ومن يتخذ القبور مساجد)). رواه ابن خزيمة وابن حبان وابن أبي شيبة وأحمد والطبراني وأبو يعلى وأبو نعيم.

الثالث عشر: عن علي بن أبي طالب قال: "لقيني العباس فقال: يا علي، انطلق بنا إلى النبي ﷺ فإن كان لنا من الأمر شيء وإلا أوصى بنا الناس، فدخلنا عليه وهو مغمى عليه فرفع رأسه فقال: ((لعن الله اليهود اتخذوا قبور الأنبياء مساجد)). زاد في رواية: ((ثم قالها الثالثة)). فلما رأينا ما به خرجنا ولم نسأله عن شيء". رواه ابن سعد وابن عساكر.

الرابع عشر: عن أمهات المؤمنين أن أصحاب رسول الله ﷺ قالوا: "كيف نبني قبرَ رسول الله؟ أنجعله مسجدًا؟ فقال أبو بكر الصديق: سمعت رسول الله يقول: ((لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد))". رواه ابن زنجويه.

قال ابن القيم في (إغاثة اللهفان): فقد رأيت أن سبب عبادة ود ويغوث ويعوق ونسرا واللات إنما كانت من تعظيم قبورهم، ثم اتخذوا لها التماثيل وعبدوها كما أشار إليه النبي ﷺ. قال شيخنا: وهذه العلة التي لأجلها نهى الشارع عن اتخاذ المساجد على القبور هي التي أوقعت كثيرًا من الأمم إما في الشرك الأكبر أو فيما دونه من الشرك، فإن النفوس قد أشركت بتماثيل القوم الصالحين وتماثيل يزعمون أنها طلاسم للكواكب ونحو ذلك، فإن الشرك بقبر الرجل الذي يُعتقد صلاحه أقرب إلى النفوس من الشرك بخشبة أو حجر، ولهذا نجد أهل الشرك كثيرًا يتضرعون عندها ويخشعون ويخضعون ويعبدونهم بقلوبهم عبادة لا يفعلونها في بيوت الله، ولا وقت السحر، ومنهم من يسجد لها وأكثرهم يرجون من بركة الصلاة عندها والدعاء ما لا يرجونه في المساجد، فلأجل هذه المفسدة حسم النبي ﷺ مادتها حتى نهى عن الصلاة في المقبرة مطلقًا، وإن لم يقصد المصلي بركة البقعة بصلاته كما يقصد بصلاته بركة المساجد، كما نهى عن الصلاة وقت طلوع الشمس وغروبها؛ لأنها أوقات يقصد المشركون الصلاة فيها للشمس، فنهى أمته عن الصلاة حينئذٍ وإن لم يقصد المصلي ما قصده المشركون سدًّا للذريعة.

قال: وأما إذا قصد الرجل الصلاة عند القبور متبركًا بالصلاة في تلك البقعة، فهذا عين المحادة لله ولرسوله والمخالفة لدينه، وابتداع دين لم يأذن به الله تعالى

فإن المسلمين قد أجمعوا على ما علموه بالاضطرار من دين رسول الله ﷺ أن الصلاة عند القبور منهيّ عنها، وأنه لعن من اتخذها مساجد، فمن أعظم المحدثات وأسباب الشرك الصلاة عندها، واتخاذها مساجد وبناء المساجد عليها، وقد تواترت النصوص عن النبي ﷺ بالنهي عن ذلك والتغليظ فيه، فقد صرح عامة الطوائف بالنهي عن بناء المساجد عليها متابعة منهم للسنة الصحيحة الصريحة، وصرح أصحاب أحمد وغيرهم من أصحاب مالك والشافعي بتحريم ذلك، وطائفة أطلقت الكراهة والذي ينبغي أن تحمل على كراهة التحريم إحسانًا للظن بالعلماء، وأن لا يظن بهم أن يجوزوا فعل ما تواتر عن رسول الله ﷺ لعن فاعله والنهي عنه. ثم ساق بعض الأحاديث التي ذكرناها سابقًا.

ثانيًا: ذكر أهم الشبهات التي تعلق بها المخالفون والرد عليهم فيها:

الشبهة الأولى: احتجوا على جواز اتخاذ القبور مساجد بقول الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُواْ ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ [الكهف:٢١]. فزعموا أن هؤلاء كانوا أهل شريعة من النصارى، وعليه يكون اتخاذ القبر من شريعتهم، وشريعة من قبلنا شريعة لنا إذا حكاها الله، ولم يعقبها بما يدل على ردها، كما في هذه الآية الكريمة على حسب زعمهم.

والجواب من وجوه:

الوجه الأول: أنا لا نسلم أن شريعة من قبلنا شريعة لنا، بل الذي عليه المحققون من أهل الأصول وغيرهم أن شريعة من قبلنا ليست شريعة لنا كما دل على ذلك

الكتاب والسنة، من ذلك قول الله ﷻ: ﴿ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗا ﴾ [المائدة: ٤٨]، وقال ﷺ: ((أعطيت خمسًا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي -فذكرها وآخرها- وكان النبي يُبعث يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس كافة)). رواه البخاري ومسلم.

الوجه الثاني: لو سلمنا أنه شرع لنا فإن ذلك مشروط بعدم مخالفته شريعتنا، والأمر على خلاف ذلك في هذه المسألة، حيث تواترت النصوص كما سبق في النهي عن اتخاذ القبور مساجد، فتخلف الشرط، وبطل الاستدلال.

الوجه الثالث: لا نسلم أن الآية تفيد أن ذلك كان شريعة لمن قبلنا، وذلك لأن الذين همُّوا باتخاذ المسجد عليهم، وصفوا في الآية بالذين غلبوا على أمرهم، وهذا يدل على الذم لا على المدح. قال ابن رجب في (فتح الباري) عند قوله: ((لعن الله اليهود والنصارى؛ اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)) قال: وقد دل القرآن على مثل ما دل عليه هذا الحديث، وهو قول الله ﷻ في قصة أصحاب الكهف: ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا ﴾، فجعل اتخاذ القبور على المساجد من فعل أهل الغلبة على الأمور، وذلك يشعر بأن مستنده القهر والغلبة واتباع الهوى، وأنه ليس من فعل أهل العلم والفضل، المتبعين لما أنزل الله على رسله من الهدى. انتهى كلامه.

الشبهة الثانية: كون قبر النبي ﷺ في مسجده الشريف، حيث لو كان ذلك ممنوعًا لما أدخل القبر في المسجد.

والجواب: أن هذا وإن كان هو المشاهد اليوم، فإنه لم يكن كذلك في عهد الصحابة } فإنهم لما مات رسول الله ﷺ دفنوه في حجرته التي كانت بجانب

مسجده، وكان يفصل بينهما جدار فيه باب، كان ﷺ يخرج منه إلى المسجد، وهذا أمر معروف مقطوع به عند العلماء، ولا خلاف في ذلك بينهم، والصحابة حينها دفنوه في الحجرة، إنما فعلوا ذلك كي لا يتمكن أحد بعدهم من اتخاذ قبره مسجدًا، ثم جاء الوليد بن عبد الملك في خلافته فأدخل الحجرة النبوية في مسجد النبي ﷺ فصار القبر بذلك في المسجد، ولم يكن ذلك الوقت في المدينة أحد من الصحابة. الذي حصل من الوليد بن عبد الملك في إدخاله الحجرة في المسجد كان على خلاف ما قصده الصحابة من دفن النبي ﷺ في حجرته مخافة أن يتخذ قبره عيدًا.

فلا يجوز لأحد بعد ذلك أن يحتج بما آل إليه قبر النبي ﷺ من إدماجه في المسجد بعد أن عُلِم أنه خلاف ما جاءت به السنة من النهي عن ذلك عمومًا، وهو مخالف أيضًا لصنيع عمر وعثمان حين وسع المسجد، ولم يدخلا القبر فيه. على أن الذين أدخلوا الغرفة في المسجد لقصد توسيعه احتاطوا في الأمر، وضيعوا الذريعة لئلا يتخذ قبره عيدًا، فبنوه بطريقة يستبعد حصول ذلك معها.

قال النووي في (شرح مسلم): ولما احتاجت الصحابة -رضوان الله عليهم أجمعين- والتابعون إلى الزيادة في مسجد رسول الله ﷺ حين كثر المسلمون وامتدت الزيادة إلى أن دخلت بيوت أمهات المؤمنين فيه، ومنها حجرة عائشة < مدفن رسول الله ﷺ وصاحبيه أبي بكر وعمر } بنوا على القبر حيطانًا مرتفعة مستديرة حوله؛ لئلا يظهر في المسجد فيصلي إليه العوام ويؤدي المحذور، ثم بنوا جدارين من ركني القبر الشماليين وحرفوهما حتى التقيا حتى لا يتمكن أحد من استقبال القبر، ولهذا قال في الحديث: ((ولولا ذلك لأبرز قبره غير أنه خشي أن يتخذ مسجدًا)) والله تعالى أعلم بالصواب.

الغلـــو في الصـــالحين، وتقـــديس الأشـــخاص والأشـــياء

لقد كان السلف الصالح من هذه الأمة حريصين على إنكار الغلو، ونهي الناس عنه حفاظًا على التوحيد وحماية لجنابه من الشرك وما ضاهاه؛ لأن الغلو أساس كل ضلال ومفتاح كل شر، وهو أصل انتشار الشرك في الناس كما أخبر الله تعالى في قوله: ﴿ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴾ [نوح: ٢٣، ٢٤]. قال ابن عباس: "هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن أنصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابًا، وسموها بأسمائهم ففعلوا، فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك وتنَسَّخ العلم عبدت". رواه البخاري.

قال الحافظ ابن حجر في (الفتح): وقصة الصالحين كان مبتدأ عبادة قوم نوح هذه الأصنامَ، ثم تبعهم من بعدهم على ذلك.

وبهذا تظهر خطورة الغلو، وأثره السيئ المترتب عليه وهو الإشراك بالله تعالى، أعظم الذنوب وأكبر الكبائر. وقد نهى الله عن الغلو فقال: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ [النساء: ١٧١]، وقال سبحانه: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [المائدة: ٧٧].

فنهاهم عن الغلو؛ وقد كان سبب قولهم المسيح ابن الله، وقولهم عزير ابن الله، والنهي عام لهم ولمن اتبع سَننهم، وسلك طريقهم، كما قال رسول الله ﷺ: ((وإياكم والغلو في الدين، فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين)). رواه أحمد، وابن ماجه. وإسناده صحيح كما قال الألباني في حجة النبي ﷺ.

وقد حذر النبي ﷺ أمته من الغلو وأكد عليه لئلا يقعوا في مثل ما وقع فيه من قبلهم من الشرك وغيره، فعن يحيى بن سعيد قال: كنا عند علي بن الحسين فجاء قوم من الكوفيين فقال علي: يا أهل العراق أحبونا حب الإسلام، سمعت أبي يقول: قال رسول الله ﷺ: ((يأيها الناس، لا ترفعوني فوق قدري فإن الله اتخذني عبدًا، قبل أن يتخذني نبيًّا))، فذكرته لسعيد بن المسيب فقال: "وبعدما اتخذه نبيًّا". رواه الحاكم في (المستدرك)، وقال: صحيح الإسناد. ووافقه الذهبي.

وعن عمر > أن رسول الله ﷺ قال: ((لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد فقولوا: عبد الله ورسوله)). رواه البخاري ومسلم. قال الحافظ في (الفتح): والإطراء المدح بالباطل تقول: أطريت فلانًا مدحته فأفرطت في مدحه. قوله: ((كما أطرت النصارى ابن مريم)) أي: في دعواهم فيه الإلهية وغير ذلك.

وقال الشيخ عبد الرحمن بن الحسن في (فتح المجيد): فأبى المشركون إلا مخالفة أمره، وارتكاب نهيه، وعظموه بما نهاهم عنه، وحذرهم منه، وناقضوه أعظم مناقضة، وضاهئوا النصارى في غلوهم وشركهم، ووقعوا في المحذور، وجرى منهم من الغلو والشرك شعرًا ونثرًا ما يطول عدّه، وصنفوا فيه مصنفات إلى أن قال: وإنما يحصل تعظيم الرسول بتعظيم أمره ونهيه، والاهتداء بهديه، واتباع سنته، والدعوة إلى دينه الذي دعا إليه، ونصرته وموالاة من عمل به، ومعاداة

من خالفه، فعكس أولئك المشركون ما أراد الله ورسوله علمًا وعملًا وارتكبوا ما نهى الله ورسوله، فالله المستعان.

اتخاذ التماثيل، ورفع الصور وتعظيمها

تقدم مرارًا أن من مقاصد الشريعة قطع كل ذريعة تفضي إلى الشرك، ومن ذلك اتخاذ التماثيل والصور، وذلك لأن في التصوير مضاهاة بخلق الله، يكون به المصور مشاركًا لله في الخلق والإبداع. وهذا منافٍ للتوحيد حيث يجب ألاّ يجعل لله ندٌّ في شيء من خصائصه.

واعلم أن شرك كثير من المشركين كان من جهة الصور، بل هو أول ظهور الشرك في الناس، كما تقدم ذكره من قصة الذين أشركوا في قوم نوح. وقد وردت نصوص كثيرة في السنة تنهى عن هذا المنكر العظيم هذه بعضها:

أولًا: عن أبي هريرة > قال قال: رسول الله ﷺ: ((قال الله تعالى: ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي، فليخلقوا ذرة، أو ليخلقوا حبة، أو ليخلقوا شعيرة)). رواه البخاري ومسلم.

ثانيًا: وعن عائشة < أن رسول الله ﷺ قال: ((أشد الناس عذابًا يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله)). رواه البخاري ومسلم.

ثالثًا: وعن ابن عباس } قال: سمعت رسول الله يقول: ((كلّ مصور في النار، يجعل له بكل صورة صورها نفس يعذَّب بها في جهنم)). رواه البخاري ومسلم.

رابعًا: وعنه > عن النبي ﷺ قال: ((من صور صورة في الدنيا، كلف أن ينفخ فيها الروح، وليس بنافخ)).

خامسًا: وعن أبي الهياج قال: قال لي عليّ: ((ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله؟ أن لا تدع صورة إلاّ طمستها)). رواه مسلم.

فهذه الأحاديث وأمثالها صريحة في شدة النكير على من صور أو اتخذ صورة، وذلك لأن فيها مضاهاة لخلق الله تعالى، وهي ذريعة إلى الشرك بالله تعالى. قال الخطابي: "إنما عظمت عقوبة المصور لأن الصور كانت تعبد من دون الله، ولأن النظر إليها يفتن وبعض النفوس إليها تميل.

وقال العلامة سليمان بن عبد الله: وقد ذكر النبي ﷺ العلة وهي المضاهاة بخلق الله؛ لأن الله تعالى له الخلق والأمر فهو رب كل شيء ومليكه، وهو خالق كل شيء وهو الذي صور جميع المخلوقات، وجعل فيها الأرواح التي تحصل بها الحياة، كما قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلًا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴾ [السجدة: ٧- ٩]، فالمصور لما صور الصورة على شكله ما خلقه الله تعالى من إنسان وبهيمة صار مضاهيًا لخلق الله، فصار ما صور عذابًا له يوم القيامة وكلف أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ، فكان أشد الناس عذابًا؛ لأن ذنبه من أكبر الذنوب.

فإذا كان هذا فيمن صور صورة على مثال ما خلقه الله تعالى من الحيوان، فكيف بحال من سوى المخلوق برب العالمين، وشبهه بخلقه وصرف له شيئًا من العبادة التي ما خلق الله الخلق إلا ليعبدوه وحده بما لا يستحقه غيره من كل عمل يحبه الله من العبد ويرضاه، فتسوية المخلوق بالخالق بصرف حقه لمن لا يستحقه من خلقه، وجعله شريكًا له فيما اختص به تعالى وتقدس هو أعظم ذنب عصي الله تعالى به، ولهذا أرسل رسله، وأنزل كتبه؛ لبيان هذا الشرك والنهي عنه

وإخلاص العبادة بجميع أنواعها لله تعالى، فنجّى الله تعالى رسله ومن أطاعهم، وأهلك من جحد التوحيد، واستمر على الشرك والتنديد، فما أعظمه من ذنب إن الله لا يغفر أن يشرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١] انتهى كلامه.

الشـــــــرك الأصــــــغر

أولًا: تعريف الشرك الأصغر لغةً واصطلاحًا:

الشرك الأصغر هو النوع الثاني من أنواع الشرك، وقد بيَّن صورته النبي ﷺ في بقوله: ((إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر، قالوا: وما والشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: الرياء)). رواه الطبراني. والرياء الذي هو من قسم الشرك الأصغر ما كان منه يسيرًا، ووارداً على سبيل التبع، وإلاّ فما غلظ منه قد يصل إلى الشرك الأكبر والعياذ بالله، وهذا ما يصدر عن المنافقين، كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢].

قال ابن القيم في (مدارج السالكين)، عند تعريف الشرك الأصغر: وأما الشرك الأصغر، فكيسير الرياء، والتصنع للخلق، والحلف بغير الله تعالى، وقول الرجل ما شاء الله وشئت، وهذا من الله ومنك، وأنا بالله وبك، وما لي إلا الله وأنت، وأنا متوكل على الله وعليك، ولولا أنت لم يكن كذا، وقد يكون شركًا أكبر بحسب قائله، ومقصده.

ثانيًا: حكمه:

الشرك الأصغر لا يخرج من الملة، ولكنه ينقض ثواب العمل، وقد يحبطه إذا زاد وغلب، وبالتالي لا يوجب لصاحبه الخلود في النار.

وتظهر بعض أحكامه إذا تبينت الفروق بين الشرك الأكبر والأصغر منها:

١. أن الشرك الأكبر لا يغفر الله لصاحبه.

٢. أن الشرك الأكبر محبط لجميع الأعمال، وأما الأصغر فلا يحبط إلا العمل الذي قرنه.

٣. أن الشرك الأكبر مخرج لصاحبه من ملة الإسلام، وأما الأصغر فلا يخرجه منها.

٤. أن الشرك الأكبر صاحبه مخلد في النار، وأما الشرك الأصغر فكغيره من الذنوب، وقيل: إنه لا يغفر لصاحبه إلاّ بالتوبة.

وبعد بيان حقيقة الشرك الأصغر لا بد من بيان بعض أنواعه، وتفصيل القول فيها، وذلك من خلال العناصر التالية.

إرادة الإنسان بعمله الدنيا

لا بد من بيان الفرق بين هذا، وبين الرياء؛ وهو أن الرياء يقع فيما فيه معنى التعبد، والعبادة لا تكون إلا لله، فمن شاب نيتَه شيءٌ من حب الظهور، وطلب الجاه، أو أراد أن يراه الناس، ويعظموه فهو فهو مراءٍ، وأما من عمل للدنيا من أجل كسب متاع قليل منها في أمور الدين فهو المقصود بهذا الباب، وقد ذمَّ الله

تعالى ذلك، وحذر منه في كتابه فقال: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [هود: ١٥، ١٦]. وأظهر الأقوال في هذه الآية: أنها شاملة للمؤمنين والكفار، وكل يناله جزاؤه بحسب حاله.

ورجح ابن القيم هذا القول في (عدة الصابرين) حيث قال: قال الضحاك: من عمل صالحًا من أهل الإيمان من غير تقوى عجل له ثواب عمله في الدنيا، واختار الفراء هذا القول، وقال: من أراد بعمله من أهل القبلة ثواب الدنيا عُجّل له ثوابه ولم يبخس، وهذا القول أرجح ومعنى الآية على هذا من كان يريد بعمله الحياة الدنيا وزينتها، وهذا لا يكون مؤمنًا ألبتة؛ فإن العاصي والفاسق ولو بالغًا في المعصية والفسق فإيمانهما يحملهما على أن يعملَا أعمال البر لله، فيريدان بأعمال البر وجه الله وإن عملَا بمعصيته فأما من لم يرد بعمله وجه الله وإنما أراد به الدنيا وزينتها؛ فهذا لا يدخل في دائرة أهل الإيمان، وهذا هو الذي فهمه معاوية من الآية، واستشهد بها على حديث أبي هريرة الذي رواه مسلم في صحيحه في الثلاثة الذين هم أول من تسعّر بهم النار يوم القيامة، القارئ الذي قرأ القرآن ليقال: فلان قارئ، والمتصدق الذي أنفق أمواله ليقال فلان جواد، والغازي الذي قتل في الجهاد ليقال هو جرئ.

ويدل على صحة هذا القول في الآية قوله تعالى: ﴿ نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا ﴾ [هود: ١٥] وذلك على أنها في قوم لهم أعمال لم يريدوا بها وجه الله، وإنما أرادوا بها الدنيا ولها عملوا، فوفاهم الله ثواب أعمالهم فيها من غير بخس، وأفضوا إلى الآخرة بغير عمل يستحقون عليه الثواب، وهذا لا يقع ممن يؤمن بالآخرة إلا كما يقع منه كبائر الأعمال وقوعًا عارضًا يتوب منه، ويراجع التوحيد.

ثم قال: والآية بحمد الله لا إشكال فيها، والله سبحانه ذكر جزاء من يريد بعمله الحياة الدنيا وزينتها وهو النار، وأخبر بحبوط عمله وبطلانه، فإذا أحبط ما ينجو به وبطل لم يبق معه ما ينجيه، فإن كان معه إيمان لم يرد به الدنيا وزينتها بل أراد الله به والدار الآخرة لم يدخل هذا الإيمان في العمل الذي حبط وبطل، وأنجاه إيمانه من الخلود في النار، وإن دخلها بحبوط عمله الذي به النجاة المطلقة، والإيمان إيمانان؛ إيمان يمنع من دخول النار، وهو الإيمان الباعث على أن تكون الأعمال لله يبتغى بها وجهه وثوابه، وإيمان يمنع الخلود في النار وإن كان مع المرائي شيء منه، وإلا كان من أهل الخلود، فالآية لها حكم نظائرها من آيات الوعيد، والله الموفق، وذلك قوله: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ [الشورى: ٢٠]، ومنه قوله: ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ [الإسراء: ١٨، ١٩].

ثلاثة مواضع من القرآن يشبه بعضها بعضًا، ويصدق بعضها بعضًا، وتجتمع على معنى واحد، وهو أن من كانت الدنيا مراده ولها يعمل في غاية سعيه لم يكن له في الآخرة نصيب، ومن كانت الآخرة مراده ولها عمل وهي غاية سعيه فهي له.

وقال الشيخ سليمان بن عبد الله في (تيسير العزيز الحميد): وقد سُئِلَ شيخ الإسلام المصنف عن معنى هذه الآية فأجاب بما ملخصه: ذكر عن السلف من أهل العلم فيها أنواع مما يفعله الناس اليوم، ولا يعرفون معناه، فمن ذلك:

النوع الأول: العمل الصالح الذي يفعله كثير من الناس ابتغاء وجه الله من صدقة وصلاة وإحسان إلى الناس، وترك ظلم ونحو ذلك مما يفعله الإنسان، أو يتركه

خالصًا لله لكنه لا يريد ثوابه في الآخرة إنما يريد أن يجازيه الله بحفظ ماله وتنميته، أو حفظه أهله وعياله، أو إدامة النعم عليهم، ولا همة له في طلب الجنة والهرب من النار، فهذا يعطى ثواب عمله في الدنيا، وليس له في الآخرة نصيب، وهذا النوع ذكره ابن عباس.

النوع الثاني: وهو أكبر من الأول وأخوف وهو الذي ذكر مجاهد في الآية أنها نزلت فيه، وهو أن يعمل أعمالًا صالحة ونيته رياء الناس، لا طلب ثواب الآخرة.

النوع الثالث: أن يعمل أعمالًا صالحة يقصد بها مالًا مثل: أن يحج لمال يأخذه لا لله أو يهاجر لدنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها، أو يجاهد لأجل الغنم، فقد ذكر أيضًا هذا النوع في تفسير هذه الآية، وكما يتعلم الرجل لأجل مدرسة أهله أو مكتبهم أو رياستهم، أو يتعلم القرآن ويواظب على الصلاة لأجل وظيفة المسجد كما هو واقع كثيرًا، وهؤلاء أعقل من الذين قبلهم؛ لأنهم عملوا لمصلحة يحصلونها، والذين قبلهم عملوا من أجل المدح والجلالة في أعين الناس، ولا يحصل لهم طائل، والنوع الأول أعقل من هؤلاء لأنهم عملوا لله وحده لا شريك له، لكن لم يطلبوا منه الخير الكثير الدائم، وهو الجنة، ولم يهربوا من الشر العظيم وهو النار.

النوع الرابع: أن يعمل بطاعة الله مخلصًا في ذلك لله وحده لا شريك له، لكنه على عمل يكفره كفرًا يخرجه عن الإسلام مثل اليهود والنصارى إذا عبدوا الله، أو تصدقوا، أو صاموا ابتغاء وجه الله والدار الآخرة، ومثل كثير من هذه الأمة الذين فيهم كفر أو شرك أكبر يخرجهم من الإسلام بالكلية إذا أطاعوا الله طاعة خالصة يريدون بها ثواب الله في الدار الآخرة، لكنهم على أعمال تخرجهم من الإسلام، وتمنع قبول أعمالهم، فهذا النوع أيضًا قد ذكر في هذه الآية عن أنس

بن مالك وغيره، وكان السلف يخافون منها قال بعضهم: لو أعلم أن الله تقبل مني سجدة واحدة لتمنيت الموت؛ لأن الله يقول: ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة: ٢٧] ثم قال: بقي أن يقال إذا عمل الرجل الصلوات الخمس، والزكاة، والصوم، والحج، ابتغاء وجه الله طالبًا ثواب الآخرة، ثم بعد ذلك عمل أعمالًا قاصدًا بها الدنيا مثل: أن يحج فرضه لله، ثم يحج بعده لأجل الدنيا كما هو واقع، فهو لما غلب عليه منهما، وقد قال بعضهم: القرآن كثيرًا ما يذكر أهل الجنة الخلص وأهل النار الخلص، ويسكت عن صاحب الشائبتين وهو هذا وأمثاله، انتهى.

وقد أجاد وأفاد -رحمه الله- وفي الآية من الفوائد أن الشرك محبط للأعمال، وأن إرادة الدنيا وزينتها بالعمل كذلك، وأن الله يجازي الكافر بحسناته، وكذلك طالب الدنيا ثم يفضي إلى الآخرة، وليس له حسنة. الخامسة: شدة الوعيد على ذلك. السادسة: الفرق بين الحبوط والبطلان.

الرقى الشركية

أولًا: تعريف الرقية:

رقَيْتُه أَرْقيه رقْيًا، من باب رمى، عوّذته بالله، والاسم الرُّقْيَا على فعلى، والمرة رقية، والجمع رُقى، مثل مدية ومدى. (المصباح المنير).

واصطلاحًا عرفها ابن الأثير في (النهاية) بقوله: الرقية: العوذة التي يرقى بها صاحبة الآفة، كالحمى والصرع، وغير ذلك من الآفات.

وقال أبو حيان في (البحر المحيط) من الجامع: هي ما يستشفى به للمريض من الكلام المعد لذلك.

الفرق بين الرقى الشرعية والشركية: الرقى أنواع منها ما جائز مشروع، ومنها ما هو محرم ممنوع، بل قد تكون شركًا والعياذ بالله.

ثانيًا: شروط مشروعية الرقية:

الرقية تشرع بثلاثة شروط:

الأول: أن تكون بكلام الله تعالى، أو بأسمائه وصفاته.

الثاني: أن تكون باللسان العربي، أو بما يعرف معناه من غيره.

الثالث: أن يعتقد أن الرقى لا تؤثر بنفسها، بل بإذن الله تعالى.

قال ابن حجر في (فتح الباري): أجمع العلماء على جواز الرقى عند اجتماع هذه الشروط. وعليه فإن الرقى لا بد أن تكون شرعية، ولا تجوز سواها من الرقى الشركية، أو البدعية، أو المقترنة بمحرم. كما يجب أن يحذر من أن يكون الراقي من غير أهل الصلاح والدين، كما يتقى أن يتلبس الراقي بحال هي مشابِهَة للسحرة وأهل الشعوذة. وأما الرقى الشركية المحرمة فهي ما اشتمل منها على استعاذة أو استعانة أو استغاثة بغير الله تعالى، أو دعاء غير الله، أو كان فيها شيء من أسماء الشياطين، أو اعتقد المرقي فيها أنها تؤثر بنفسها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: ولا تشرع الرقى بما لا يعرف معناه، لا سيما إن كان فيه شرك؛ فإن ذلك محرم، وعامة ما يقوله أهل العزائم فيه شرك، وقد

يقرءون مع ذلك شيئًا من القرآن ويظهرونه، ويكتمون ما يقولونه من الشرك، وفي الاستشفاء بما شرعه الله ورسوله ما يغني عن الشرك.

ثالثًا: الدليل على تحريم الرقى الشركية:

وقد وردت نصوص صريحة في النهي عن الرقى الشركية، منها ما رواه مسلم عن عوف بن مالك الأشجعي، قال: "كنا نرقي في الجاهلية، فقلنا: يا رسول الله، كيف ترى في ذلك، فقال: ((اعرضوا عليّ رقاكم، لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك))". وعن عبد الله بن مسعود < قال: سمعت رسول الله يقول: ((إن الرقى والتمائم والتِّوَلَة شرك)). رواه أحمد، وأبو داود، وابن ماجه، والحاكم، وصحح إسناده، ووافقه الذهبي.

وقد تمسك قوم بعموم بعض النصوص الدالة على مشروعية الرقية، فأجازوا كل رقية جربت منفعتها، ولو لم يعقل معناها، لكن دلَّ حديث عوف وحديث عبد الله بن مسعود أنه إذا كان من الرقى ما يؤدّي إلى الشرك يُمنع، وما لا يعقل معناه لا يؤمن أن يؤدي إلى الشرك فيمتنع سدًّا للذريعة.

رابعًا: تعريف التمائم:

التمائم واحدها تميمة، وهي خرزات كان الأعراب يعلقونها على أولادهم، ينفون بها النفس، والعين بزعمهم، فأبطلها الإسلام. كذا في (لسان العرب)، قال الحافظ في (الفتح): والتمائم جمع تميمة، وهي خرز أو قلادة في الرأس، كانوا في الجاهلية يعتقدون أن ذلك تدفع الآفات. وهي تجمع أنواعًا كثيرة، فهي تشمل كل ما يعلق، أو يتخذ مما يراد منه تتميم أمر فيه خير، أو دفع ما فيه ضرر، ويعتقد فيه أنه سبب، وما جعله الله تعالى سببًا، لا شرعًا ولا قدرًا.

قال سليمان بن عبد الله في (تيسير العزيز الحميد): قال المنذري: إنها خرز كانوا يعلقونها يرون أنها تدفع عن الآفات، واعتقاد هذا الرأي جهل وضلالة؛ إذ لا مانع، ولا دافع غير الله تعالى، وقال أبو السعادات: التمائم جمع تميمة، وهي خرزات كانت العرب تعلقها على أولادهم، يتقون بها العين في زعمهم، فأبطله الإسلام. قال: كانوا يعتقدون أنها تمائم الدواء والشفاء. ثم قال عند حديث: ((من تعلق تميمة فقد أشرك))، قال ابن عبد البر: إذا اعتقد الذي علقها أنها ترد العين، فقد ظن أنها ترد القدر، واعتقاد ذلك شرك.

وقال أبو السعادات: إنما جعلها شركًا؛ لأنهم أرادوا دفع المقادير المكتوبة عليهم، وطلبوا دفع الأذى من غير الله الذي هو دافعه. انتهى كلامه.

(الشرك في الألفاظ)

عناصر الدرس

من الشرك: الحلف بغير الله

الحلف بغير الله من الشرك كما روى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب > عن رسول الله ﷺ أنه قال: ((من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك)). رواه الترمذي وحسنه، وصححه الحاكم.

وقوله: ((فقد كفر أو أشرك))، يحتمل أن يكون هذا شكًّا من الراوي، ويحتمل أن يكون "أو" بمعنى الواو، فيكون قد كفر وأشرك، ويكون من الكفر الذي هو دون الكفر الأكبر، كما أنه من الشرك الأصغر. وكثر عند الناس في هذا الزمن مَن يحلف بغير الله، كمن يحلف بالأمانة، أو يحلف بالنبي ﷺ أو يقول: وحياتي، وحياتك يا فلان، وما أشبه هذه الألفاظ، وهذه الأحاديث واضحة صريحة في التحذير والنهي عن الحلف بغير الله ﷻ وأنه من الشرك أو الكفر والعياذ بالله؛ لأن الحلف بالشيء هو تعظيم له، والله وحده هو المستحقّ للتعظيم، فهو وحده المستحق لأن يحلف به.

قال ابن مسعود > : "لأن أحلف بالله كاذبًا، أحب إليَّ من أن أحلف بغيره صادقًا". ومن المعلوم أن الحلف بالله كاذبًا كبيرة من الكبائر، لكن الشرك -وهو الحلف بغير الله- أعظم جرمًا منه. فيجب على المسلم أن يحذر كل الحذر، ولا تأخذه العوائد الجاهلية. ومن الأحاديث الواردة في النهي والتحذير من الحلف بغير الله تعالى قوله ﷺ: ((إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، من كان حالفًا بالله فليحلف بالله، أو ليصمت)). رواه البخاري مسلم.

قال في (تيسير العزيز الحميد): وأجمع العلماء على أن اليمين لا تكون إلا بالله أو بصفاته، وأجمعوا على المنع من الحلف بغيره، قال ابن عبد البر: لا يجوز الحلف

بغير الله بالإجماع، انتهى. ولا اعتبار بمن قال من المتأخرين: إن ذلك على سبيل كراهة التنزيه، فإن هذا قول باطل، وكيف يقال ذلك لما أطلق عليه الرسول ﷺ أنه كفر أو شرك بل ذلك محرم، ولهذا اختار ابن مسعود > أن يحلف بالله كاذبًا ولا يحلف بغيره صادقًا، فهذا يدل على أن الحلف بغير الله أكبر من الكذب مع أن الكذب من المحرمات في جميع الملل؛ فدل ذلك أن الحلف بغير الله من أكبر المحرمات.

من الشرك الأصغر: قول: ما شاء الله وشئت

ويدل على ذلك ما روى الإمام أحمد والنسائي عن قتيلة: ((أن يهوديًا أتى النبي ﷺ فقال: إنكم تشركون تقولون: ما شاء الله وشئت. وتقولون: والكعبة. فأمرهم النبي ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا: ورب الكعبة، وأن يقولوا: ما شاء ثم شئت)). وروى النسائي عن ابن عباس { : ((أن رجلًا قال للنبي ﷺ: ما شاء الله وشئت، فقال: أجعلتني لله ندًّا؟! قل: ما شاء الله وحده)).

فدل الحديثان وما جاء بمعناهما على منع قول: ما شاء الله وشئت، وما شابهه من الألفاظ، مثل: لو لا الله وأنت، وما لي إلا الله وأنت؛ لأن العطف بالواو يقتضي التسوية بين المتعاطفين، وهذا شرك، فالواجب أن يعطف بثم، فيقال: ما شاء الله ثم شئت، أو: ثم شاء فلان، لولا الله ثم أنت، أو: ثم فلان، ما لي إلا الله ثم أنت؛ لأن العطف بثم يقتضي الترتيب والتعقيب، وأن مشيئة العبد تأتي بعد مشيئة الله تعالى لا مساوية لها، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠]، فمشيئة العبد تابعة لمشيئة الله، ولا يقدر على أن يشاء شيئًا إلاّ إذا كان الله قد شاءه.

قال سليمان بن عبد الله في (تيسير العزيز الحميد): قوله: إنكم تشركون تقولون ما شاء الله وشئت، هذا نص في أن هذا اللفظ من الشرك؛ لأن النبي ﷺ أقرَّ اليهودي على تسمية هذا اللفظ تنديدًا أو شركًا، ونهى النبي ﷺ عن ذلك وأرشد إلى استعمال اللفظ البعيد من الشرك،

وقوله: ((ما شاء الله ثم شئت)) وإن كان الأولى قول ما شاء وحده، كما يدل عليه حديث ابن عباس وغيره، وعلى النهي عن قول ما شاء الله وشئت جمهور العلماء، إلا أنه حُكي عن أبي جعفر الداودي ما يقتضي جواز ذلك؛ احتجاجًا لقوله تعالى: ﴿ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ ﴾ [التوبة: ٧٤]، وقوله: ﴿ وَإِذۡ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَأَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِ ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، ونحو ذلك، والصواب القول الأول، فان النبي ﷺ أنكر ذلك، وقال لمن قال له ذلك: ((أجعلتني لله ندًّا))، وأقرن من أسمائه تنديدًا وشركًا على تسميته، ومن المحال أن يكون هذا أمرًا جائزًا، وأما ما احتج من القرآن، فقد ذكروا عن ذلك جوابين:

أحدهما: أن ذلك لله وحده لا شريك له، كما أنه تعالى يقسم بما شاء من مخلوقاته، فكذلك هذا.

الثاني: أن قوله: ما شاء الله وشئت، تشريك في مشيئة الله، وأما الآية فإنما أخبر بها عن فعلين متغايرين، فأخبر تعالى أنه أغناهم، وأن رسوله أغناهم، وهو من الله حقيقة؛ لأنه الذي قدر ذلك ومن الرسول ﷺ حقيقة باعتبار تعاطي الفعل، وكذا الإنعام، أنعم الله على زيد بالإسلام والنبي ﷺ أنعم عليه بالعتق، وهذا بخلاف المشاركة في الفعل الواحد، فالكلام إنما هو فيه، والمنع إنما هو منه، فإن قلت: قد ذكر النحاة أن ثم تقتضي اشتراك المعطوف والمعطوف عليه في الحكم،

كالواو، فلم جاز ذلك بثُم، ومنع منه الواو وغاية ما يقال: إن ثم تقتضي الترتيب بخلاف الواو، فإنها تقتضي مطلق الجمع، وهذا لا يغير صورة الاشتراك قبل النهي عن ذلك؛ إنما هو إذا أتى بصورة التشريك جميعًا -وهذا لا يحصل إلا بالواو بخلاف ثم- فإنها لا تقتضي الجمع؛ إنما تقتضي الترتيب. فإذا أتى بها زالت صورة التشريك والجمع في اللفظ، وأما المعنى فلله تعالى ما يختص به من المشيئة وللمخلوق ما يختص به، فلو أتى بثم وأراد أنه شريك لله تعالى في المشيئة كلولا الله ثم فلان مثلًا؛ لم يوجد ذلك فالنهي باقٍ بحاله، بل يكون في هذه الصورة أشدَّ ممن أتى بالواو مع عدم هذا الاعتقاد، ويُشبه ذلك الجمع بين اسم الله واسم غيره في ضمير واحد، ولهذا أنكره النبي ﷺ على الخطيب قال: ((ومَن يعصهما فقد غوى، فقال له: بئس الخطيب أنت)).

من أنواع الشرك الأصغر، التطير

قال في (المصباح المنير): تطيّر من الشيء، واطّيّر منه، واسم: الطِّيَرَة، وزان عِنَبَة، وهي التشاؤم، وكانت العرب إذا أرادت المضيَّ لمهمٍّ مرّت بمجاثيم الطير وأثارتها؛ لتستفيد هل تمضي أو ترجع.

وأما تعريفها في الاصطلاح: فهي التشاؤم بمرئي أو مسموع، وهذا من الأمور النادرة؛ لأن الغالب أن اللغة أوسع من الاصطلاح؛ لأن الاصطلاح يُدْخِل على الألفاظ قيودًا تخصها، مثل الصلاة لغة: الدعاء، وفي الاصطلاح هي أخص من الدعاء، وكذلك الزكاة وغيرها. وإن شئت فقل: التطير هو التشاؤم بمرئي أو مسموع أو معلوم. فالمرئي كما لو رأى نوعًا من الطير فتشاءم. والمسموع، كمن هم بأمر فسمع أحدًا يقول لآخر: يا خسران، أو يا خائب، فيتشاءم. والمعلوم

كالتشاؤم ببعض الأيام، أو بعض الشهور، أو بعض السنوات، فهذه لا ترى ولا تسمع.

واعلم أن التطير ينافي التوحيد، ووجه منافاته له من وجهين:

الأول: أن المتطير قطع توكله على الله، واعتمد على غير الله.

الثاني: أنه تعلق بأمر لا حقيقة له، بل هو وهم وتخييل، حيث لا يوجد رابط بين مراده وما تطير به، وهذا منافٍ للاستعانة بالله تعالى في قضاء الحوائج.

قال ابن الأثير في (النهاية في غريب الحديث): الطِيَرَة -بكسر الطاء وفتح الياء، وقد تسكن- هي التشاؤم بالشيء. وأصله فيما يقال: التطير بالسوانح والبوارح من الطير والظباء وغيرهما. وكان ذلك يصدهم عن مقاصدهم، فنفاه الشرع، وأبطله ونهى عنه، وأخبر أنه ليس له تأثير في جلب نفع أو دفع ضر.

والتطير شرك، وقد نهى عنه النبي ﷺ وحذر أمته منه أشد التحذير؛ لأن فيه سوءَ ظنٍّ بالله تعالى، وتعلقَ القلب بغيره سبحانه في جلب النفع، ودفع الضر، وبه تنشغل النفس، وتدخلها الأوهام والوساوس، وهو منافٍ للتوكل، وقاطع لأسبابه. ولهذا لم يذكره الله تعالى في القرآن الكريم إلا في معرض الذم، حيث جعله من أوصاف أهل الشرك والكفران، وسمات أعداء الرسل وأولياء الشيطان، كما أخبر الله عنهم أنهم قالوا لرسلهم: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [يس: ١٨، ١٩]. وقال ﷻ عن قوم فرعون: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٣١]. وقال تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٧٨].

وقد ثبت عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: ((الطيرة شرك، ولكن الله يذهبه بالتوكل)). أخرجه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه، والحاكم في (المستدرك)، وصحح سنده، ووافقه الذهبي. وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، لا نعرفه إلا من حديث سلمة بن كهيل، وروى شعبة أيضًا عن سلمة هذا الحديث، قال: سمعت محمد بن إسماعيل يقول: كان سليمان بن حرب يقول في هذا الحديث: "وما منا، ولكن الله يذهبه بالتوكل". قال سليمان: هذا عندي قول عبد الله بن مسعود، وما منا. فجعله مدرجًا من قول ابن مسعود.

وتعقب هذا القول -أي: أن الزيادة مدرجة- ابن القطان في بيان الوهم والإيهام فأقول -وبالله التوفيق-: كل كلام مسوق في السياق، لا ينبغي أن يُقبل ممن يقول: إنه مدرج إلا أن يجيء بحجة، وهذا الباب معروف عند المحدثين.

قال ابن الأثير في (النهاية) في توجيه هذا قول: معناه إلا من قد يعثر به التطير، وتسبق إلى قلبه الكرامة. وهذا من خطرات النفس، وحديثها الذي قد رفعه الله عن هذه الأمة وعفا عنه بقوله: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾ [البقرة: ٢٨٦]. قال الحافظ في (الفتح): وقوله: ((ولكن الله يذهبه بالتوكل)) إشارة إلى أن من وقع له ذلك فسلم لله ولم يعبأ بالطيرة، أنه لا يؤاخذ بما عرض له من ذلك. ويؤكد هذا المعنى أثر عبد الله بن عمرو في الباب. ومنه أيضًا حديث معاوية بن الحكم أنه قال لرسول الله ﷺ: ((إنا كنا حديثي عهد بجاهلية فجاء الله بالإسلام وإن رجالًا منا يتطيرون، قال: ذلك شيء يجدونه في صدورهم فلا يصدهم)). رواه مسلم.

قال ابن مفلح في (الآداب): ومعناه أن الطيرة شيء تجدونه في نفوسكم ضرورة ولا تكليف به، لكن لا تمنعوا بسببه من التصرف؛ لأنه مكتسب فيقع به

التكليف. وهكذا يحصل تفسير النصوص بعضها لبعض، وينتفي التعارض الذي قد يُتوهم فيها.

وقد جاء عن النبي ﷺ أنه قال: ((من ردته الطيرة فقد قارف الشرك)). رواه ابن وهب في (الجامع). وصححه الألباني في (الصحيحة).

وبين رسول الله أن من عرض له شيء من ذلك فكفارته أن يقول: ((اللهم لا خير إلا خيرك ولا طير إلا طيرك، ولا إله غيرك)). رواه أحمد في (المسند)، على نحو أثر الترجمة. وعن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: ((لا عدوى ولا طيرة، ويعجبني الفأل الصالح، والكلمة الحسنة)). رواه البخاري ومسلم.

قال ابن القيم في (مفتاح دار السعادة): وهذا يحتمل أن يكون نفيًا، وأن يكون نهيًا، أي: لا تطيروا، ولكن قوله في الحديث: ((ولا عدوى ولا صفر ولا هامة)) يدل على أن المراد النفي، وإبطال هذه الأمور التي كانت الجاهلية تعانيها، والنفي في هذا أبلغ من النهي؛ لأن النفي يدل على بطلان ذلك وعدم تأثيره والنهي إنما يدل على المنع منه.

وبما أنه قد يشتبه على كثير من الناس الفرقُ بين الفأل والطيرة، يحسن أن ينقل كلام بعض الأئمة في بيان بعض الفوارق التي بينهما.

قال ابن الأثير في (النهاية): الفأل -مهموز- فيما يسرُّ ويسوء، والطيرة لا تكون إلا فيما يسوء، وربما استعملت فيما يسر. وإنما أحب الفأل؛ لأن الناس إذا أمَّلوا فائدة الله تعالى، رجوا فائدته عند كل سبب ضعيف أو قوي، فهم على خير، ولو غلطوا في جهة الرجاء فإن الرجاء لهم خير. وإذا قطعوا أملهم ورجاءهم من الله كان ذلك من الشر. وأما الطيرة فإن فيها سوءَ الظن بالله، وتوقعَ البلاء. وقال الحافظ في (الفتح) في وجه كون الطيرة قد تستعمل فيما يسر: وكان ذلك بحسب

الواقع، وأما الشرع فخص الطيرة بما يسوء، والفأل بما يسر، ومن شرطه أن لا يقصد إليه فيصير من الطيرة. وهذا ضابط دقيق جدًّا من الحافظ رحمه الله تعالى.

وقال الشيخ عبد الرحمن بن سعدي في (القول السديد): والفرق بينهما: أن الحسن لا يدخل بعقيدة الإنسان ولا بعقله، وليس فيه تعليق القلب بغير الله بل فيه من المصلحة النشاط والسرور، وتقوية النفوس على المطالب النافعة. ثم ذكر صفة ذلك فليُنظر. وإنما أطلت في هذه المسألة نظرًا لشدة الحاجة إليها، والله أعلم.

الاستسقاء بالأنواء

أولًا: تعريفه:

الاستسقاء: طلب السقيا، كالاستغفار: طلب المغفرة، والاستعانة: طلب المعونة، والاستعاذة: طلب العوذ، والاستهداء: طلب الهدايا؛ لأن مادة استفعل في الغالب تدل على الطلب، وقد لا تدل على الطلب، بل تدل على المبالغة في الفعل، مثل: استكبر، أي: بلغ في الكبر غايته، وليس المعنى طلب الكبر، والاستسقاء بالأنواء أي: أن تطلب منها أن تسقيك.

ثانيًا: أقسام الاستسقاء بالأنواء:

ينقسم الاستسقاء بالأنواء إلى قسمين:

القسم الأول: الشرك الأكبر، وله صورتان:

الأولى: أن يدعو الأنواء بالسقيا، كأن يقول: يا نوء كذا اسقنا أو أغثنا، وما أشبه ذلك، فهذا شرك أكبر، لأنه دعا غير الله، ودعاء غير الله من الشرك

الأكبر، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٧]، وقال تعالى: ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾ [الجن: ١٨]، وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [يونس: ١٠٦]. إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة الدالة على النهي عن دعاء غير الله، وأنه من الشرك الأكبر.

الثانية: أن ينسب حصول الأمطار إلى هذه الأنوار على أنها هي الفاعلة بنفسها دون الله ولو لم يدعها، فهذا شرك أكبر في الربوبية، والأول في العبادة؛ لأن الدعاء من العبادة، وهو متضمن للشرك في الربوبية، لأنه لم يدعها إلا وهو يعتقد أنها تفعل وتقضي الحاجة.

القسم الثاني: شرك أصغر، وهو أن يجعل هذه الأنواء سببًا مع اعتقاده أن الله هو الخالق الفاعل؛ لأن كل من جعل سببًا لم يجعله الله سببًا لا بوجه ولا بقدرة، فهو مشرك شركًا أكبر.

وقد دلت نصوص من الكتاب والسنة على ذم هذا الفعل الشنيع، وهو لا ريب من الشرك بالله تعالى؛ حيث يطلب النفع الضر من غير الله تعالى، وينسب المطر الذي هو رزق من الله تعالى إلى النجم. قال الله تعالى: ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ [الواقعة: ٨٢]. والمعنى: وتجعلون شكركم لله على ما أنزل إليكم من الغيث، والمطر، والرحمة أنكم تكذبون، أي: تنسبونه إلى غيره.

ويؤيد هذا المعنى حديث ابن عباس قال: ((مُطر الناس على عهد النبي ﷺ فقال النبي ﷺ: أصبح من الناس شاكر، ومنهم كافر. قالوا: هذه رحمة الله، وقال بعضهم: لقد صدق نوء كذا وكذا. قال فنزلت هذه الآية: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ

ﭐلنُّجُومِ ﴾ [الواقعة: ٧٥] حتى بلغ ﴿ وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ﴾ [الواقعة: ٨٢]».
رواه مسلم. وعليه أكثر المفسرين.

ومن الأحاديث التي ورد فيها الترهيب من ذلك ما جاء عن أبي مالك الأشجعي > أن رسول الله ﷺ قال: ((أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة)). رواه البخاري.

وعن زيد بن خالد الجويني > قال: ((صلى لنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح في الحديبية على أثر سماء كانت من الليل، فلما انصرف أقبل على الناس فقال: هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: أصبح من عبادي مؤمن بي، وكافر؛ فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي، وكافر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا؛ فذلك كافر بي، مؤمن بالكوكب)). رواه البخاري ومسلم.

التسمي باسم فيه تعبيد لغير الله، كعبد الرسول

ومن أنواع الشرك تعبيد الأسماء لغير الله تعالى؛ لأن فيه إضافة النعم لغير الله، وفيه أيضًا إساءة أدب مع مقام الربوبية والإلهية؛ فهو ممنوع من جهة اللفظ وجهة المعنى، ولهذا أجمع العلماء على ذلك كما قال ابن حزم: اتفقوا على تحريم كل اسم معبد لغير الله، كعبد عمرو، وعبد الكعبة، وما أشبه ذلك، حاشا عبد المطلب. والإجماع أحد الأدلة الشرعية التي ثبتت بها الأحكام، والأدلة هي: الكتاب، والسنة والإجماع، والقياس. قوله: وما أشبه ذلك، مثل: عبد الحسين، وعبد الرسول، وعبد المسيح، وعبد العلي.

وأما قوله ﷺ: ((تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم)). الحديث رواه البخاري، فهذا وصف وليس علمًا، فشبه المنهمك بمحبة هذه الأشياء المقدم لها على ما يرضي الله بالعابد لها، كقولك: عابد الدينار، فهو وصف، فلا يعارض الإجماع.

قوله: "حاشا عبد المطلب". حاشا الاستثنائية إذا دخلت عليها ما وجب نصب ما بعدها، وإلا جاز فيه النصب والجر. وبالنسبة لعبد المطلب مستثنى من الإجماع على تحريمه، فهو مختلف فيه، فقال بعض أهل العلم: لا يمكن أن نقول بالتحريم والرسول ﷺ قال: ((أنا النبي لا كذب، أنا ابنُ عبد المطلب)) رواه البخاري ومسلم. فالنبي ﷺ لا يفعل حرامًا، فيجوز أن يعبد للمطلب إلا إذا وجد ناسخ، وهذا تقرير ابن حزم -رحمة الله- ولكن الصواب تحريم التعبيد للمطلب، فلا يجوز لأحد أن يسمي ابنه عبد المطلب، وأما قوله ﷺ: ((أنا ابن عبد المطلب))، فهو من باب الإخبار وليس من باب الإنشاء، فالنبي ﷺ أخبر أن له جدًّا اسمه عبد المطلب، ولم يرد عنه ﷺ أنه سمى عبد المطلب، أو أنه أذِنَ لأحد صحابته بذلك، ولا أنه أقر أحدًا على تسميته عبد المطلب، والكلام في الحكم لا في الإخبار، وفرق بين الإخبار وبين الإنشاء والإقرار، ولهذا قال النبي ﷺ: ((إنما بنو هاشم وبنو عبد المطلب شيء واحد)) رواه البخاري، وقال ﷺ: ((يا بني عبد مناف)) ولا يجوز التسمي بعبد مناف.

وقد قال العلماء: إن حاكي الكفر ليس بكافر، فالرسول ﷺ يتكلم عن شيء قد وقع وانتهى ومضى، فالصواب أنه لا يجوز أن يعبد لغير الله مطلقًا لا بعبد المطلب ولا غيره، وعليه، فيكون التعبد لغير الله من الشرك.

التسمي بالأسماء التي فيها تعظيم لا يليق إلا بالله كملك الملوك

من مقتضى التوحيد تعظيم الله تعالى، وإجلاله، وعدم إشراك أحد معه في شيء من خصائصه، ولا رفعه إلى منزلته لا لفظًا؛ لأنه ذريعة إلى الشرك، ولا معنى؛ لأنه الشرك نفسه. ومن ذلك التسمي بأسماء تتضمن نفوذًا أو سلطانًا أو حكمًا مطلقًا، وذلك مثل قاضي القضاة، وحاكم الحكام، وملك الملوك، وسلطان السلاطين.

فمن تسمى بهذا الاسم، فقد جعل نفسه شريكًا مع الله فيما لا يستحقه إلا الله؛ لأنه لا أحد يستحق أن يكون قاضي القضاة، أو حاكم الحكام، أو ملك الأملاك إلاّ الله -تبارك وتعالى- فالله هو القاضي فوق كل قاضٍ، وهو الذي له الحكم المطلق، وإليه يرجع الأمر كله، كما ذكر الله تعالى ذلك في القرآن الكريم، كما في قوله: ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف: ٤٠]، وقوله سبحانه: ﴿ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [غافر: ٢٠]، وكل من حكم أو قضى من خلقه فبحكم الله يحكم، وبقضائه يقضي، وأما الحكم المطلق والقضاء المطلق فلله وحده شرعًا وكونًا.

وفي هذا المعنى جاء النهي عن النبي ﷺ بقوله: ((إن أخنع اسم عند الله رجل يُسمى ملك الأملاك، لا مالك إلاّ الله)). قال سفيان: مثل شاهان شاه. وفي رواية: ((أغيظ رجل على الله وأخبثه)). رواه البخاري. وقوله: ((أخنع)) يعني: أوضع. قال العلامة سليمان بن عبد الله في (تيسير العزيز الحميد): قوله:

((مَلِك الأَملاك)) هو بكسر اللام من مَلِك، والأملاك جمع ملك، ثم أكد النبي ﷺ التشديد في تحريم التسمي بذلك بقوله: ((لا مالك إلا الله))، فالذي تسمى بهذا الاسم قد كذب وفجر وارتقى إلى ما ليس له بأهل، بل هو حقيق برب العالمين؛ فإنه الملك في الحقيقة، فلهذا كان أذلّ الناس عند الله يوم القيامة.

والفرق بين الملك والمالك أن المالك هو المتصرف بفعله وأمره، ذكره ابن القيم. فالذي تسمى ملك الأملاك أو ملك الملوك قد بلغ الغاية في الكفر والكذب، ولقد كان بعض السلاطين المساكين يفتخر بهذا الاسم، فأذله الله، قوله: "قال سفيان" هو ابن عيينة، تقدمت ترجمته.

قوله: "مثل شاهانِ شاهِ" هو بكسر النون والهاء في آخره، وقد تنون وليست هاء تأنيث، فلا يقال بالمثناة أصلًا، وإنما مثّل سفيان بشاهان شاه؛ لأنه قد كثرت التسمية به في ذلك العصر، فنبه سفيان بأن الاسم الذي ورَدَ الخبر بذمه لا ينحصر في ملك الأملاك، بل كل ما أدَّى معناه بأي لسان كان فهو مراد بالذم، ذكره الحافظ.

والحديث صريح في تحريم التسمي بملك الأملاك ونحوه، كملك الملوك وسلطان السلاطين، قال ابن القيم: لما كان الملك لله وحده لا مَلك على الحقيقة سواه كان أخنعَ اسمٍ وأوضعَه عنده، وأبغضه له اسم شاهان شاه أي: ملك الملوك وسلطان السلاطين، فإن ذلك ليس لأحد غير الله فتسمية غيره بهذا من أبطل الباطل، والله لا يحب الباطل، وقد ألحق أهل العلم بهذا قاضي القضاة، وقالوا: ليس قاضي القضاة إلا من يقضي الحق، وهو خير الفاصلين الذي إذا قضى أمرًا فإنما يقول له كن فيكون، ويلي هذا الاسم في القبح والكراهة والكذب سيد الناس وسيد الكل، وليس ذلك إلا لرسول الله ﷺ خاصة كما قال: ((أنا سيد ولد

آدم)) فلا يجوز لأحد قط أن يقول عن غيره: هو سيد الناس، كما لا يجوز له أن يقول: أنا سيد ولد آدم.

وقال ابن أبي جمرة: يلتحق بملك الأملاك قاضي القضاة، وإن كان قد اشتهر في بلاد الشرق من قديم الزمان إطلاق ذلك على كبير القضاة، وقد سلم أهل المغرب من هذا، فاسم كبير القضاة عندهم قاضي الجماعة، وقد زعم بعض المتأخرين أن التسمي بقاضي القضاة ونحوها جائز، واستدل له بحديث: ((أقضاكم علي)) قال: فيستفاد منه أن لا حرجَ على مَن أطلق على قاضٍ أن يكون أعدلَ القضاة وأعلمهم في زمانه، أقضى القضاة، أو يريد إقليمه أو بلده، وتعقبه العالم العراقي فصوَّب المنع، وردَّ ما احتجَّ به بأن التفضيل في ذلك وقع في حق من خوطب به من يلتحق بهم، فليس مساويًا لإطلاق التفضيل بالألف واللام، قال: ولا يخفى ما في ذلك من الجرأة وسوء الأدب، ولا عبرة بقول من ولي القضاة فنعت بذلك، فلذَّ في سمعه، واحتال في الجواز؛ فإن الحق أحق أن يتبع.

وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قائمة المراجع العامة

١. (**ابن تيمية : المجلد الأول والثاني من الفتاوى**)
جمع وترتيب/ عبد الرحمن بن قاسم، طبع مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف في المدينة المنورة، عام ١٤١٦هـ.

٢. (**القول المفيد على كتاب التوحيد**)
محمد بن صالح العثيمين، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، الدمام، ١٤٢١هـ .

٣. (**تسهيل العقيدة الإسلامية**)
عبد الله بن عبد العزيز الجبري، دار الصميعي للنشر والتوزيع، الرياض، ١٤٢٣هـ.

٤. (**ابن تيمية : اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم**)
تحقيق د. ناصر العقل، الطبعة الأولى، شركة العُبَيْكَان للطباعة والنشر، الرياض، ١٤٠٤هـ .

٥. (**ابن أبي العز الدمشقي : شرح العقيدة الطحاوية**)
تحقيق د. عبد الله التركي، وشعيب الأرنؤوط، الطبعة العاشرة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٧هـ.

٦. (**ابن تيمية : قاعدة جليلة في التوسّل والوسيلة**)
تحقيق : هادي المدخلي. المكتب الإسلامي، ١٩٩٠م.

٧. (**الدين الخالص**)
محمد صديق حسن خان، مكتبة دار التراث بالقاهرة، بدون تاريخ.

٨. (**الإلحاد - أسباب هذه الظاهرة وطرق علاجها**)
عبد الرحمن عبد الخالق، الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء بالرياض، بدون تاريخ.

٩. (**العقيدة الإسلامية**)

عبد الرحمن حبنكة.

١٠. (**الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد، والرد على أهل الشرك والإلحاد**)

صالح الفوزان، طبع الرئاسة العامة للبحوث والإفتاء بالرياض، ١٤١٠هـ.

١١. (**مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية**)

عثمان جمعة ضميرية، مكتبة الوادي للتوزيع، جدّة، ١٤١٧هـ.

١٢. (**المدخل لدراسة العقيدة الإسلامية على مذهب أهل السنة والجماعة**)

إبراهيم البريكان، دار السنة بالخُبُر، الطبعة الخامسة، ١٤١٨هـ.

١٣. (**أصول الدين**)

البغدادي، دار الكتب العلمية، ط/١، بيروت، ١٤٠١هـ.

